يصدرها: حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

الظمأ.. للحب

لعميد الأدب الفنلندي المعاصر: ميكا والتاري



أروع ما كتب مؤلف قصة "المصري"

١٠ قروش

مايكا والتارى

الظمأ.. للحب



A STRANGER CAME TO THE FARM

By: MIKA WALTARI

مطبوعات

كتابى

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الرابع عشر

الظمأ .. للحب

تأليف : ميكا والتـــارى

ترجمة : محمد بدر الدين خليل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن واحد وخمســون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أو كل شهر .. وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى . قلب عذراء . الهاربة من الجنة . حواءالجديدة. أحدب نوتردام . جريمة حب . عشيقة نابليون . مذكرات كيوبيد . صنم تحطم . حديقة الله . عندما تحقد المرأة . لعبة الحب والموت . توبة خاطئة . أيها الربيع ترفق . الشيطان على الارض . ليدى هاملتون . الارملة المرحة . حياة جورج صاند . حياة سارة برنار . رباعيات عمر الخيام . حياة بيتهوفن. حياة موسولينى . كوخ العم توم . الزوج والعشيق . البوهيمية . فتاة لهـا ماض . ترويض النمرة . فن الحب . الجريمة والعقاب . المنافق . أميرة مصر. ٠مطار . أفروديت . أقنعة الحب السبعة . سالومى . الاعداد : ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ـ ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ـ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٤ ـ ٤٥ ـ ٤٦ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ـ ٥١

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ماعدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا . والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها .

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : في مصر والسودان : ١٢٠ قرشا وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن والحجاز : مايوازى ١٤٠ قرشا مصريا وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا وأستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى المانيا ١٦٠ قرشا بخلاف أجر البريد الجوى .

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد Money Order

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ،حياة رأة (جزءان) ، الخطيئة الاولى ، اوديب ، مدام بوفارى (جزءان) ، عاشقات فى الخريف ، قلوب ضالة ، ديكاميرون . وثمن كل من الاول والرابع والسابع ٢٠ قرشا ، والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر ١٢ قرشا ، والثانى عشر ١٤ قرشا ، والثـالث والخامس والســادس ١٠ قروش (خالص أجرة البريد المسجل)

عزيزى القارىء ..

◆ لعلك تلاحظ اننى دائب على ماحرصت عليه – منذ بداية اصدار هذه السلسلة – من التزام « التنويع » فيما أختاره من الآداب العالمية ، لاقدمه لك فى « مطبوعات كتابى » .. فقرأت معى شوامخ من الادب الانجليزى ،والفرنسى، والامريكى ، والايطالى الحديث ، والايطالى القديم ، واليونانى ، والنمسوى .. ثم الادب الهندى .. وهاانا ذا أقدم لك اليوم – فى العدد الذى بين يديك – أدبا جديدا عليك ، نابعا من بلد حر ، مجاهد ، مناضل ، تجمعه ببلادنا العربية أوجه شبه كثيرة ، ذلك هو الادب الفنلندى ، الذى أنقلك به الى أفق جديد ، اذ أنقل اليك النص الكامل لتحفة من أروع تحفه الحديثة !

ولقد ظلت مصر – حتى السنوات الاخيرة – بمعزل عن آداب كثير من أقطار العالم ، تكاد تقتصر فى علاقاتها الادبية على دول غرب أوربا ، وأمريكا الشمالية .. ولكنها حطمت ، فىعهدها الجديد ، القيود التى كانت تكبل علاقاتهابالدول، وآن للادب – كما آن للسياسة – أن يتعرف على آفاق جديدة !

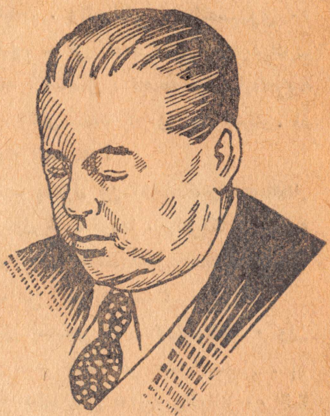
وأفق الادب الفنلندى من هذه الآفاق التى نسعى الآن لارتيادها . وان « مطبوعات كتابى » لتفخر بالجهد المتواضع الذى بذلته فى هذا السبيل ، اذ تقدم لك « الظمأ .. للحب » .. وهى قصة الظمأ بكل معانيه وألوانه .. ظمأ القلب ، وظمأ الروح ، وظمأ الجسد !.. كما انها قصة « الارض الطيبة » . والنفس البشرية تشبه الارض ، فهى قد تكون مجدبة تملأها الاشواك والاعشاب الطفيلية ، حتى اذا امتدت اليها يد الاصلاح ، ازدهرت وأثمرت !.. وهى قد تكون ظمآنة ، فاذا ماظفرت بالرى والسقيا ، أنتجت وأينعت !.. وهى قد تكون خصبة ، كريمة ، ما ان تلقى فيها البذرة حتى تدب فيها الحياة ، فتأخذ فى النمو والاثمار !

و « ميكا والتارى » – مؤلف هذه القصة ، ومؤلف قصة « سنوحى » التى عرفتها من قبل – من أبرز كتاب فنلندا المعاصرين ، وقد تجاوزت شهرته كما تجاوز نجاحه حدود بلاده ، فاصبح من الكتاب العالميين . فتعال نقرا هذه القصة الشامخة ، المشوقة ، ونتعرف معا على .. الادب الفنلندى الحديث !

حلمى مراد

١٧/٦/٥٦

ميكا والتارى



• **للقدر** تصرفات غريبة مع الناس ، ومع الكتاب بوجه خاص .. ومع « ميكا والتارى» بوجه أخص !.. فعلى الرغم من ان هذا الكاتب القصصى الفنلندى ظل يرقى سلم النجاح باطراد ، خلال عشرين عاما ، **الا ان فرصة الشهرة العالمية الواسعة لم تواته الا يوم أقبلت (هوليوود) على اخراج أفلام تستغل فيها ما للتاريخ الفرعونى من سحر، وما سلطته ثورة مصر المجيدة على أرض الفراعنة من أضواء بهرت أنظار العالم** .. ومن ثم وقع اختيار احدى الشركات السينمائية على قصة « المصرى » أو « سنوحى » ــ كما اشتهرت ــ لميكا والتارى ، فاذا الضجيج الذى أثاره الفيلم يجذب انتباه القارىء العادى فى العالم الى « ميكا والتارى » ، والى الادب الفنلندى ، الذى ظل أجيالا حبيس قوقعته المحلية !

وهكذا كانت مصر ، وتاريخها الفرعونى ، وتألقها فى عهدها الجديد ، هى العوامل التى استغلها القدر لاذاعة شهرة والتارى » ، مع ان قصة « المصرى » ليست خير انتاجه ، **بل ان القصة التى قدر لها ان تكون أروع قصصه على الاطلاق، هى تلك التى نقدم لك فيما يلى ترجمة دقيقة ، أمينة لها ، لاول مرة باللغة العربية** .. وليس هذا من قبيل الدعاية للعدد

الذى نقدمه لك اليوم من « مطبوعات كتابى » ، ولكنها شهادة نقاد الادب العالميين ، الذين أجمعوا على أنها أكمل انتاج لهذا الكاتب الفنلندى ـ من الناحية الفنية القصصية ـ كما انها من أروع القصص من حيث فكرتهـــا ، وطريقة عرضـــها ، وما استخدمه مؤلفها في كتابتها من أساليب تصويرية ، وتحليلية .. وهى شهادة اعتزت بها الدور التى تولت نشر مؤلفاته فى انجلترا وأمريكا ، فحرصت على أن تثبتها فيمـــا كتبته عن سيرته !

يستخدم اسما مستعارا .. وهو تلميذ !

◆ **واذا** كان العالم لم يتعرف على « والتارى » الا حديثا ، الا ان (فنلندا) عرفت قدره ككاتب روائى مبدع ، منذ أكثر من عشرين عاما . والواقع انه كان يؤلف ويكتب قبل هـــذه الاعوام العشرين ، ولكنه كان يشفق من ان يضع اسمه عـــلى مؤلفاته ، ومن ثم كان يستخدم اسما مستعارا ، هو الاســـم الذى نشر تحته انتاجه الاول ، حين كان فى الثامنة عشرة من عمره ، ولم يكن قد اجتاز بعد مرحلة الدراسة الثـــانوية فى (هلسينكى) ، عاصمة فنلندا .. وكان هـــذا الانتاج الاول يتضمن مجموعة من القصص القصيرة ، تعتمد عـــلى عنصرى الغموض والمفاجأة

ولم يقدم « والتارى » على وضع اسمه الحقيقى على مؤلفاته الا خلال السنوات التى قضاها فى (باريس) ، عقب تخرجه فى جامعة (هلسينكى) ، اذ أقبل على اخراج عدد من الكتب القصصية التى تدور أحداثها فى (فنلندا) ، وفى عاصمتهـــا بوجه خاص ، **فاستطاع ـ ببراعة فائقة ـ ان يعرف باريس ، والعالم الغربى ، ببـــلاده ، وأرسى دعائم مجده ككاتب قصصى ناجح . ثم بلغ قمة النجاح بالفعل ، فى سنة ١٩٣٧ ، حين اصدر قصته التى نقدمها لك فيما يلى : قصة « الظمأ .. للحب » ،**

أو « غريب وفد على المزرعة » ، كما أسماها فى البداية ٠٠ فقد تجاوز نجاح هذه القصة نطاق الادب الفنلندى القــومى الى ميدان الادب العالمى

وأصبح « والتارى » قصصيا عالميا ، ولكن شـهرته ظلت محصورة فى الاوساط الادبية الغربية ، الى ان واتاه القـدر بأحد تصرفاته « الغريبة ! » ـ التى أشرنا اليها فى بدء المقال ـ فأوحى الى (هوليوود) بأن تخرج قصة « المصرى » على الستار الفضى !

مابين فنلندا ٠٠ ومصر !

• **وقصص** « والتارى » ـ عامة ـ تعطى صورة واضحة ، جلية ، لدولة لم يتعرف عليها قارىء العربية تعرفا كافيا ، هى (فنلندا) ، التى تغلب عليها ظروف تكاد تتشابه مع كثير من الظروف التى تسود الدول العربية عامة ، ومصر بوجه خاص ٠٠ ظروف الدولة الزراعية التى فطنت الى ما للصناعة من قيمـة فى الحياة الحديثة ، وما لديها هى بالذات من موارد وامكانيات كانت خافية عليهـا ، فنهضت لاستغلالها ، وبدأت تخوض مايعتور التصـنيع عادة من تطورات لاتقتصر على الناحيـة الاقتصادية فحسب ، بل انها تؤثر الى حد كبير فى المجتمـع الذى يكافح ليروض نفسه على الانتقال من ميدان الزراعة الى ميدان الصناعة ، وفى نفسية المجتمع التى تتعـرض للهزات الناشئة عما يترتب على هذا الانتقال من اخـلال بالاستقرار الذى ألفه ٠٠ هزات مبعثهـا تطور العادات ، والتقـاليد ، والتعليم ، وطبيعة العمل ، وغير ذلك ٠٠

على آن هذا ليس كل مايؤثر فى المجتمع الفنلندى من عوامل ، فهناك عامل هام يهز دائما استقرار هذا المجتمع ، ويتمثل فى تعرض هذه الدولة ـ فى معظم مراحل تاريخها ـ للغزو والاحتلال

الكلمة = عبارة كاملة ٠٠ فى كتابات « والتارى » !

◆ و « **والتارى** » ـ ككاتب قصصى ـ لايقصر فنه على لون واحد من ألوان القصة ، وانما هو يعالج كل لون من ألوانها٠٠ **ولعل أروع ميزاته ، وأكثرها دلالة على تمكنه من فنـــه ، انه يحتفظ دائما بدقته التصويرية ، وبراعته التحليلية ، وأسلوبه السلس ، وتعبيراته التى تكاد كل كلمة فيها تقوم مقام عبارة كاملة ، ان لم تكن عبارات ٠٠ وهذا ما يجعل مهمة المترجم ـ الذى يتعرض لنقل مؤلفات « والتارى » الى أية لغة ـ مهمـــة شاقة ، ودقيقة ، وجسيمه ، فى آن واحد !**

فمن اللون التاريخى ، قدم « والتارى » للعالم قصة «المصرى» أو « سنوحى » ، فكانت دراسة ممتعة لمرحلة من مراحل التاريخ القديم ٠ ففى تتبعه لهذا البطل الفرعونى فى فراره من مصر ـ وقد سبق ان نشرنا فى « كتابى » قصته منقولة عن الاصـــل الفرعونى المسجل على أوراق البردى ـ رسم « والتارى » فى حذق ومهارة ، صورا مفصلة لحياة السوريين ، والحيثيين ، والبابليين ، فضلا عن حياة مصر الفرعونية ٠٠ فجاء كتابه قصة ممتعة ، ودراسة تاريخية مفصلة فى آن واحد ٠ وكان توفيقه الاكبر فى آنه كان من اليقظة بحيث انه لم يغلب وقائع التاريخ على الخيال ، وكذلك لم يدع خياله يطغى على الحقائق التاريخية ويشوهها !

وقصة «المصرى» تتناول ـ بهذا ـ التاريخ على نطاق عالمى ٠٠ وكذلك قصة « حرس السـلطان » التى أبدع فيها تصـــوير المعارك ، ومؤامرات البـــلاط ، والغزو والسلب والنهب ٠٠ ولكن لوالتارى قصصا تاريخية أخرى ، تناولت تاريخ بلاده ٠٠ تاريخ (فنلندا) ٠ ومن أروع ما أنتجه فى هذا الصدد «مايكل الفنلندى » ، و « الملاك الاسود » التى سلكها الدكتور حسـين هيكل فى عداد الشوامخ العالمية التى يجب أن تترجم الى كل

لغة ، والتى نأمل ان تقدم لك « مطبوعات كتابى » ترجمة دقيقة أمينة لها ، فى أحد أعدادها القادمة

« تاجر مسامير ٠٠ عند مقدم الليل » !

◆ **وارتاد** « والتارى » ميدان القصص الخرافى ، الذى يجفل منه كتاب العصر الحديث ، اذ يظنونه قاصرا على طبقات معينة من القراء ، كالاطفال ، والذين لم يؤتوا نصيبا وافرا من العلم ٠٠ فاذا الكاتب الفنلندى المبدع ، يستطيع ببراعته ـ فى مزج الاسفاف فى الخيال بواقعية الحقائق ـ ان يهدم هذه الفكرة الخاطئة عن القصص الخيالى ٠ ولوالتارى ان يفخر فى هذا الميدان بقصته الرائعة « تاجر مسامير عند مقدم الليل ! » ، وهى قصة عالج فيها ، بأسلوب فكاهى ، موضوع الزوج الذى تحير المغريات قلبه ، فيهيم هذا القلب بعيدا عن الزوجة الوفية ، ويخوض المغامرات ، وينساه صاحبه فى مخادع الجميلات ، **حتى اذا أضناه التنقل بين ألوان الهوى ، وأتعبه ابتداع الاكاذيب التى يموه بها الزوج الضال على زوجته ، تحسست هذه الزوجة صدره ، فأسبغت عليه سكينة ناعمة . وهى تقول له : « ان قلبك كثير الضلال ، فخليق بك ان تعطبنيه لاحفظه لك فى خزانتى كسابق عهدنا ٠ وانك لفى حاجة الى الراحة ، وقد أعددت لك الفراش ، وكتبا للمطالعة ٠ ولعل عنايتى بك لاتضايقك ٠ فاذا حنت نفسك الى قلبك ، فسوف تجده معى فى أمان ! »**

وفى خلال هذه الرواية ، يصاحب « تاجر المسامير » أشباح الفراعنة ، وطيف « سنوحى » ـ مما يدل على مدى تأثر الكاتب بهذه الشخصية الفرعونية ! ـ والجرذان ، والديكة ، والدجاجات ، والقطط ، والكلاب ٠٠ ويستخلص « والتارى » من كل هذه الشخصيات الخرافية الفكاهات والعبر والعظات ٠ وهو فى ذلك كله ، يوحى اليك بالجو الذى تجده فى « كليلة

ودمنة » ، وقصص « هانس اندرسن » و « مارك توين » ٠٠ مجتمعة !

« الظمأ ٠٠ للحب ! »

• **أما** أروع قصص « والتارى » الواقعية ، فهى دون نزاع « الظمأ ٠٠ للحب » ، التى نقدمها لك اليوم : **قصة زوج غبى، خامل ، لاينطفىء ظمأه الى الخمر ، والى جسد زوجتــه ٠٠ وقصة زوجة خدعت فى زوجها ، وفي حبها ، وفي مثلها العليا، وغثيت نفسها لاغراق زوجها فى اشباع شهواته ، فأسلمته جسدها ، وضنت عليــه بروحهــا !٠٠ ثم تحول تقـززها الى كراهية ، فأصبح جسدها يتحول الى هيكل من حجر باردكلما اقبل عليه زوجها !٠٠ الى ان ساق اليها القدر رجلا أحبته ، فاذا الحياة تدب في الجسد البــارد ٠٠ واذا الظمـأ يبرح بالجسد والروح والقلب جميعها** ٠٠ و ٠٠ لندع الباقى الى ان تقرأ القصة ، حتى لا نفســد عليك متعة تتبع ســياقها ، واكتشاف أحداثها ووقائعها وغاياتها !

ولقد بلغ « والتارى » فى هذه القصة أبدع آيات التصوير والتحليل معا ٠٠ فان عباراته تكاد تبدو كخطوط فى لوحــة معبرة ، واضحة ٠ فهو يصف الزوج الغبى كمــا بدا لعينى « آلتونين » بطل الرواية ، فيقول : « لم يعد آلتونين يشعر بغير التقزز الذى غشيه لملمس تلك اليد الرخوة الضعيفة !٠٠ أحس بما كان فيها من لين يثير الاشمئزاز من هذا الرجل الذى كان أقصر منه ، والذى أجدب رأسه من الشعر قبل الاوان !٠٠ وخيل اليه ان زوج الرجــل كانت ــ هى الاخرى ــ كنبات اسفنجى منتفخ على فراغ ٠٠ أو بالاحرى ، كنبات فطرى !٠٠ وأحس بغثيان لمرأى الخدين المترهلين ، والفم المتراخى الغليظ الشفتين ، والذقن الطرية الناعمة كأنها ذقن امرأة ، والنظرة الزائفة ، الزائغة ، كسحلية تتسلل على صدغه ! »

من ذا الذى يقرا هذه السطور ، ولا تقفز أمام عينيه صورة الرجل الرخو الجسم ، المترهل ، الخامل ، الملتاث العقل ؟.. ثم تظل هذه الصورة تقفز أمام بصره ـ من تلقاء ذاتها ـ كلما ورد ذكر ذلك الزوج فى سياق القصة !

جحيم .. الشهوة !

● **ويصل** « والتارى » الى حد الروعة ، حين يصف النوبات الشهوانيـــة ، الحيوانيـــه ، التى كانت تعترى الزوج .. يصفها فى صورة مادية ، لا فى صورة أدبية تعتمد على المجاز والاستعارة :

« وكان يحبو على أربع ، ليضرع الى زوجته ويتوسل .. وقد أحس بوقدة تسرى فى كل جسمه : كل شريان تحول الى أتون ملتهب .. وكل عصب فى كيانه كان يرتعش شهوة !.. وما لبثت الابتسامة العريضة التى كانت شـفتاه الغليظتان تنفرجان عنهـا ان تحولت الى سباب .. وكانت الكلمـات البذيئة تنساب من فمه ، وقد تجلت على أسارير وجهه مظاهر العته .. كانت شـهوته هى جحيمه !.. وما أفظع جحيم الشهوة التى كانت تستعر فى جوانحه ـ دون ان تجد اطفاء ـ فتلفح ريحها كل من يقترب منه ! »

صورة لا مغالاة اذا قلنا انها تفوق أى رسم يبتدعه فنان ، لان كل كلمة فيها رسم فى الواقع .. ومن هذه الرســوم تتألف لوحه مفصلة ، معبرة ، دقيقة ، لحيوانية الشهوة !

هذان مثـالان من الاسلوب التصـويرى الذى ارتقى به « والتارى » ـ فى هذه القصه بالذات ـ الى الذروة !.. على انه كان في أسلوبه التحليلي أروع وأمجد .. فهو ينقل ، فى سلوبه التصويرى ، عن « المرئيات » .. أما فى أسلوبه التحليلى ، فانه يغوص الى أعماق النفوس .. يجرد شخصياته الآدمية من مظهرها المادى ، الظاهرى ، فيكشف عن مشاعرها ، وانفعالاتها ،

وأفكارها ، فى دقة تشهد بأنه ولابد قد عرف هذه الشخصيات فى الحياة الواقعية ، فدرسها دراسة دقيقة

انه يصف الزوجة التى خدعت فى زوجها ، فاكتشفت انه رجل تافه ، خسيس ، سكير ، حيوان ، لا هم له سوى ارضاء الشهوة التى كانت تعربد فى جسده المشبع بالخمر ، فيقول:

« .. لقد ظلت لمسات تلكما اليدين تقتلان جسدها فى بطء ، حتى مات هذا الجسد فى النهاية ، دون ان يصعد زفرة ، أو يرسل شهقة باكية تكشف عن الشعور بالذلة والهوان ! .. بل انها كانت ترى فى الشهقة والزفرة مايرضى ذلك البدن المرتجف الذى يسعى اليها متعطشا ، فشاءت ان تحرمه هذا الرضى ! »

ولكنه لايكتفى بهذه الخطوط فى لوحته التحليلية ، فيتمها فى مكان آخر ، قائلا :

« على ان المرأة شعرت - فى ساعة الاسى المرير - بأن فى حياتها شيئا واحدا يخلق بها أن تحمد السماء عليه .. ذلك هو انها لم ترزق بولد ! .. من أجل هذا ، على الأقل ، كانت تكبح من شهوة زوجها ، حتى لاتضطر قط الى ان تعانى فظاعة وبشاعة ان تحمل فى أحشائها حياة نفثها ذلك البدن الرخو ، الناضح بالخمر ! .. وان تشهد الطفل ينمو ، ويكبر ، فترى فى عينيه تلك النظرة المعتوهه التى تلمع فى عينى زوجها ، وتلمس فى ملامحه ما فى ذلك الرجل من ضعف النفس ، ومن الغش والخداع ، ومن الشهوة البدنية ! .. وأصبحت تكره نفسها وجسدها ، لانها كانت مضطرة الى الخضوع لهذا الرجل ! »

ثم آن للمرأة أن تلتقى بالرجل الذى أحبته ، فكان أول مافكرت فيه ان تأبى جسدها على الزوج الذى كانت تكرهه ، لتهبه للحبيب ! .. ويمضى « والتارى » يحلل نفسية المرأة فى

براعة ماهرة ، فيبين كيف ان الكراهية جعلتها تعتبر اقتراب زوجها من جسدها فعلا دنسا ، وكيف ان الحب جعلهـا ترى فى استيلاء حبيبها على هذا الجسد نعمة وبركة !٠٠ **ولا مغالاة اذا قلنا ان « والتارى » يفوق أى كاتب فى وصف التفاعلات العاطفية التى تدور فى نفس امرأة كهذه ، فتجعل علاقتهـا « الحلال » بزوجها « حراما » فى نفسـها ٠٠ والعلاقة غـير المشروعة ـ مع حبيبها ـ « حلالا » فى شريعة حبها !**

وهكذا بلغ « والتارى » بقصـــة « الظمأ ٠٠ للحب » ـ أو « غريب يفد على المزرعة » ـ ذروة المجد ، فكتب لهذه القصة ـ التي تفخر « مطبوعات كتابى » بأن تقدمها لك فى الصفحات التالية ـ خلودا بين الشوامخ الادبية من مختلف الآداب ، وعلى مر العصور !

الظمأ.. للحب

قصة طويلة للكاتب الفنلندى "ميكا والتارى"





الفصل الاول

● **عند** غروب شمس أحد أيام الربيع ، أقبل على المزرعة رجل غريب ٠ وكان قد قطع مسافة طويلة علـى قدميه ، ثم وصل الى القرية أخيرا ، وعرج سالكا احدى الطرق الجانبية ٠ وكانت الشمس الساطعة قد ألهبت الارض ، ثم جاءت البرودة ـ مع هبوط الظلام ـ فجعلت الاديم يقرقع تحت القدم ، فى البقاع التى كان الدرب يمتد فيها تحت ظلال أشجار التنوب السمراء (التى يؤخذ منها خشب الشربين) ، أو عبر المرتفعات الصخرية التى تتألق تحت أشعة الشمس الآفلة

واجتاز الغريب النهر على جسر أوهنه طول العمر ٠ وكان سطح الماء المتجمد ، الضارب الى الزرقة ، يمتد ملتويا بين ضـفتين منحدرتين ، ترامت على جانبيهما أراض محروثة ، مرتفعة هونا ما ، وقد قسمتها أسيجة من الاسلاك الشائكة الى مستطيلات خطت فى دقة ٠ كانت الحقول تمتد على جانبى النهر مرتفعة

نحو الشرق والغرب ، وقد خلت تربتها من أى نبات ، اللهم الا بقايا سيقان محصول العام الماضى ، وقد جفت واكتست بلون بنى • وهنا وهناك كانت تمتد رقعة متضائلة من جليد أشهب اللون •• فقد كان الجليد لا يزال يكسو أرض الغابات ، ولم يكن يتخلل العراء سوى نبات الخلنج الحائل اللون ، وقد دب فيه شيء من حمرة الازدهار • وكان ضـوء الشمس الغاربة ينعكس على زجاج نوافذ القرية ، ليتبع عابر الطريق ، وكأنه أشرطة من نسيج لامع ، رقيق !•• وفوق المزارع الهـادئة ، كان ثمة صاريان من صوارى اللاسلكى (ايريال) ، يتطاولان فى الهواء نحو السماء الزرقاء

وكانت الطريق المليئة بالحفر والثغرات الغـائرة تمضى صاعدة التل فى رفق • وعند المنحنيات ، كانت تتجلى بوضوح — وسط سمرة أرض الحقـول الداكنة — خضرة الاشجار الناضرة ، وصفرة الرمال الزاهية •• الرمال التى جرفت خلال الشـتاء الى حافة الطريق • ولم يكن ثمه كثـير من أكوام الرمال ، اذ لم يصادف الغريب سوى اثنتى عشرة كومة منها ، وكانت ملقاة فى الغور الممتد الى جانب الطريق ، وكأنها أهيلت هناك فى غير اعتناء ، أو باهمال متعمد ، وقد انتثرت حبيباتها الدقيقة على طول القاع ، بعد ان تبخرت مياه الربيع منها فى أول يوم سطعت فيه الشمس !

وكان الغريب قد سار طويلا فى ذلك اليوم • وقد أحس بتأثير هذا السير فى أوصاله ، وأحس به فى ذهنه ، الذى بدأ يتثاقل ويتخدر فى بطء • أحس به ، كمـا يحس الرجـل القوى بالاجهاد بعد طول عناء !•• وكان يقوم أمامه — عـلى حافة الحقول — مخزن للغـلال رمادى اللون ، وسط أرض السفح الصخرى • وانتقلت الطريق من منطقة الظـلال ، الى ضوء الشمس الراحلة ، فتوقف الغـريب — للحظة واحدة — والتفت خلفه ، ثم تطلع أمامه ، واتجه لفوره الى المزرعة

وخامره شعور بالغباء . كانت القرية قد تراجعت متوارية فى البعد ، وبدت له السماء ممعنة فى الارتفـاع ، فى تلك المنطقة .. أكثر ارتفاعا مما كانت تلوح وهو أسفل السفح !.. وكان لا يزال قادرا على أن يميز كل بيت ، بل كل نافذة .. ولكن النوافذ والبيوت كانت قد صغرت وتضاءلت ، وبدا النهر المتجمد كشريط ضيق جـدا ، من جليد أزرق ، يتخلل الحقول ، وقد أخذ يكتسب سمرة . واذ عاد يواصـل سيره مرة أخرى ، تكشف أمامه منظر طبيعى جديد .. فبين السفح الصخرى والغابات ، امتدت بحيرة صغيرة ، أخـذت صفحتها الجليدية ـ التى بدأت فى الذوبان ـ تعكس آخر أشعة الشمس الآفلة ، فى ألسنة ملتهبة !.. وكانت ثمـة حقول قليلة تمتد الى حافة البحيرة ، وقد كساها الماء الذى تناثرت فيـه جزر صغيرة من الشجر . وخلف هذه الحقول ، كان بيت المزرعـة والبنايات الملحقة به ، تقوم كلها على أرض مرتفعة ، بين البحيرة والسفح الذى انتصب عليه مخزن الغلال

لمح الرجل كل هذا بنظرة واحدة ، ثم لم يعد يتأمل سوى دار المزرعة وحدها ، وهو يسعى نحوها . وكانت الدار عبارة عن مبنى ذى طابق واحد ، أقيم من الخشب ، وقد خلع الزمن على جدرانه المطلية باللون الاحمر سـمرة قاتمة ، وذاب لون اطارات النوافذ الرمادى فى ضوء الشفق ، وتصاعد فى الهواء خيط من دخان أزرق من المدخنه ، التى قام عليها جهاز تعيين اتجاه الريح . ورأى سياجا رماديا ، وحظيرة رمادية للماشية ، أقيم نصفها الاسـفل من الطوب الاحمر .. ومظلة خشبية للماشية .. وأخيرا ، عند منعرج فى جدول مائى منساب من البحيرة ، كان ثمة مبنى لحمام أحال الدخان جدرانه الى اللون الاسود . وثبت الغريب بصره على المبنى الرئيسى ، فلم يلبث أن رأى ضـوءا ينبعث من نافذة حجرة الجلوس . وفى تلك

اللحظة ، تلاشى ضوء الشفق الاحمر الذى كان ينبعث من وراء الغابة ، واستحال ضـوء النهار الراحل الى زرقة ، ثم أظلمت السماء · وسار الرجل تحت آسلاك كهربائية ، كانت أعمدتها الحديثة الطلاء تلوح بيضاء وسط الارض المحروثة الداكنة

وفيما كان يسعى نحو الضوء الهادىء المنبعث من النافذة ، احتجب هذا الضوء لحظة وراء شبح ·· اذن فهناك من رآه !·· وخامره شعور مبهم،فخيل اليه انه عاش هذه اللحظة فى فترةمن الماضى السحيق ، وانه سار فى هذه المنطقة الغريبة عنـد هبوط الليل ، ساعيا الى نور هادىء !·· ودهمه فجأة اعياء شديد ، فأخذ يجر قدميه جرا ، وثقل على ظهره عبء الحزمة التى كان يحملها ، وشعر بأن لاشىء أصبح يعنيه : لا البيت الغريب ، ولا شبح الرجل الذى ظهر فى النافذة ·· لا شىء على الاطلاق ! ·· ولم يعد ثمة وجود لكل ماعرفه من نوم وتعب فى أمسيات أخرى فى الايام السالفة ·· لقـد قام بينه وبين ذلك حاجز لا سبيل الى اجتيازه ، ومن ثم فقد أصبح مجرد مسافر فى طريق غريبة ، تؤدى به الى مزرعة لم يكن يعرفهـا ، وليست بذهنه فكرة واحدة عن الماضى · وكان هذا خيرا له ، ومن ثم ارتاح اليه !

* * *

◆ **ودلف** الى المزرعة خلال البوابة المهشمة ، وصعد الدرجات المحطمة الى الدار · وانبعث من أرض الردهة أزيز تحت ثقله · وتلمس طريقه الى باب غرفة الجلوس ، فطرقه ، ثم فتحـه ، وظل واقفا لدى العتبة ، الى جوار فرن الطهو الابيض الكبير · وقال فى صـوت خفيض ، وكأنه خشى ان يزعج من كانوا بالداخل : « مساء الخير ! » ·· وخلع قبعته فى بطء ، ومسح جبينه بيده ، وأخذ يترقب · وكان الضوء يعشى عينيه بعد ان ألفتا عتمة الغسق الهادئة · وكان ثمة مصباح كهربائى يتدلى من السقف ــ لا تحيط به ظلة ــ وقد أفاض على الغرفة نورا

لا حياة فيه ، كشف عن ثلاثة أشخاص : ففى الطرف الاقصى من المائدة ، جلس رجل - لم يفارق مرحلة الشباب - يقرأ صحيفة ، وقد اعتمد بمرفقيه الى المائدة . وتراقص بصر الرجل على القادم ، ولكنه غضه لفوره ، وعاد الى القراءة وعلى محياه عبوس صارم . وكانت المائدة العارية تحمل بقايا طعام : وعاء حساء ، وسلة تحتوى على شرائح خبز سميكة ، وثلاث صحاف (أطباق)

وكان يجلس على مقعد خشبى طويل - لصق الحائط المجاور للنافذة الجنوبية - شيخ فى قميص ذى كمين طويلين ، وهو منهمك فى اصلاح ما انقطع من عيون كيس شبكى . وتوقف الشيخ عن عمله ليتطلع الى الغريب بنظرات الشيخوخة المعتمة . وكان وجهه ناحلا ، ينم عن شقاء !.. وأخذ يتأمل الغريب - دون ان يختلج جفناه ، ودون ان يرد التحية - فى غير فضول ، وانما فى شيء من الدهشة تجلى على وجهه !



أما الشخص الثالث ، فكان امرأة وقفت بين الفرن وحوض الماء . وكانت ترتدى ثوبا قطنيا ، ومرولة قذرة ، وقد ثنت كميها مشمرة عن ساعدين أبيضين ، قويين . ونظر الغريب الى يديها ، فاذا هما بديعتا الشكل ، لهما أصابع طويلة ،

رشيقة ، ولكنهما كانتا حمراوين ، خشنتين ، أكسبهما العمل قوة · ثم تطلع الى وجهها ، فاذا شعرها قد عقص الى الخلف فى غير اعتناء ، واذا وجهها يبدو تحت الضوء الباهت خاليا من أية سيماء ، الى درجة مستغربة ·· خاليا خلوا تاما ! ··
كان وجهها جامدا ، باردا ، لا ينم عن شيء مما فى نفس صاحبته ، وقد أخذت عيناه الزرقاوان ترمقان القادم فى غير دهشة · وخيل اليه انهما تتفحصانه ، وتقدران قيمته !·· لقد عرفته تلكما العينان دون أن تستعينا بكلمات ما ، فخطر له ـ وقد جعله الاعياء شبه نائم ـ ان شخصا أوتى مثل هذا الوجه ، ومثل هاتين العينين ، لابد ان يكون مخلوقا فذا ·· أقسى من ان يكون امرأة !

و ردت تحيته بهزة بسيطة من رأسها ، وهى تقول : « مساء الخير » !

وأنزل الغريب كيس متاعه عن منكبه في بطء ، وجلس على المقعد الضيق المجاور للباب ، ثم طوى كيسه وقبعته بين قدميه · لقد اختار لنفسه المقعد المخصص للاطفال والمتسولين ! ومكث صامتا · اذ كان الصمت هو العادة المألوفة فى ذلك الصقع من العالم ، فليس سوى الاغبياء ، والاطفال السيئى التربية ، من يبادر الى الحديث عن مهمته فورا · ولم يكن على علم بهذه العادة فى البداية ، اذ كان من بلد بعيد ، ولكنه وعاها سريعا · وكانت عادة أدهشته ، بل انه رآها عادة طيبة ، فلن يلبث وقت الكلام آن يحين ، ان عاجلا أو آجلا ، ومن ثم فلا داعى للعجلة !

* * *

◆ **وعاود** الشيخ عمله ، بينما شرعت المرأة فى تنظيف المائدة · كانت امرأة طويلة القامة ، متينة البنيان ، ترتدى حذاءين طويلي الرقبة ـ مما يستخدم في الحظائر ـ وقد

تيبست عليهما لطخ من روث البقر !.. أما الرجل الجالس الى المائدة ، فقد ظل يطالع صحيفته ، وان راحت عيناه تتبعان ـ فى خبث ـ كل حركة من حركات الرجل الجالس الى جوار الباب ، بنظرات مسترقة !

ومرة أخرى ، أحس الغريب بشعور مبهم أوحى اليه بأنه عاش هذه اللحظة من قبل .. عاش فى هذه الساعة الهادئة من ساعات المساء ، فى مزرعة عتيقة ، تحت الوهج الباهت المنبعث من مصباح كهربائى ،ورأى وجه هذا الرجل المتغضن ، تمتد تحت عينيه السريعتى الحركة جيوب منتفخة زرقاء ، وهذا الشعر الناعم ، والفم الواسع ، الغليظ الشفتين ، الذى ينم عن عته .. والاسنان التالفة .. واليدين اللتين أمسكتا الصحيفة فى استرخاء .. لقد رأى رجالا من هذا النوع من قبل . وأخذ يحملق فى تلكما العينين اللتين راحتا تروغان منه باستمرار

وما لبث الشيخ ان قال ، ويداه المعروقتان ، المرتجفتان ، تبسطان النسيج الشبكى ـ الذى كان يرتقه ـ على ركبتيه : « من أين قدمت أيها الغريب ؟ » .. كانت عادة القوم ان يوجهوا للزائر مثل هذه الاسئلة ، بعد فترة مناسبة من الوقت. وتوقفت المرأة عن أعمالها لتنظر اليه . فقد كانت المزرعة تقبع فى مكان ناء عن الطريق العامة ، ومن ثم كان من النادر ان يزورها أحد ، ما لم يكن له فيها عمل . اما الزائر ـ فى هذه المرة ـ فقد خيل للمرأة انها تستطيع ان تحدس المهمة التى دفعت به الى هناك .. اذ كانت تتوقع مجىء أحد ما !

وأخذ الاشخاص الثلاثة ـ الذين كانوا فى الحجرة ـ يحملقون فى الغريب ، فلم يلبث ـ بعد لحظة ـ ان قال فى تردد ، ودون ان يجيب على السؤال مباشرة : « جئت من أجل ذلك العمل الذى فى مزرعتكم » !

ونظر الرجل ـ الجالس الى المائدة ـ نحو المرأة ، ثم طوى صحيفته بعنف ، وتغيرت أساريره ، فبدا الشر فى عينيه ،

واختلج فمه بشكل بشع ٠٠ ثم انفجر قائلا : « لسنا بحاجة الى رجل هنا ! ٠٠ ما الذى بعث بهذه الفكرة الى رأسك ؟ »

ولم يهتز الغريب ، وان غشيه شيء من العجب ، فتطلع الى الرجل – الذى فقد رزانته – بعينين لم تخلوا من الازدراء ، ثم تحول الى المرأة ، وقال فى هدوء : « **رايت الاعلان فى الصحيفه ، فخطر لى ان اتى وأسألكم هذا العمل ! »** ٠٠ فهزت رأسها ٠٠ وظلت النظرة المنبعثه من عينيها الزرقاوين على صرامتها ، بيد أنها قالت متلطفه : « هل لك ان تتقدم فتجلس هنا ؟ » ٠ ونظرت – وهى تقول هذا – الى الرجل الجالس الى المائدة ٠٠ مجرد نظرة ألقتها عليه ، فتخاذلت ملامح وجهه على الفور ، واسترخت تنفاه ، وعاد فمه الى وضعه المستخذى السابق ٠ عيناه وحدهما هما اللتان بقيتا تومضان بغضب مشبوب ، ولكن نارهما لم تلبث أن انطفأت ، فأصبحت نظراته خاليه من كل معنى ، كما كانت حالها من قبل !

وترك الغريب كيس متاعه على الارض ، واجتاز الغرفة ليجلس الى جوار الشيخ على المقعد الطويل الملاصق للجدار ٠ وسألته المرأة وهى تتفحصه فى تؤدة : « ما أظنك من أهل هذه المنطقة ؟ » ٠٠فهز رأسه نافيا ٠ وعادت تقول :« اذن فلعلك من بلد بعيد ؟ » ٠٠ ولم يكن فى لهجتها التساؤل المألوف عند معظم النساء ، ولكنها كانت لهجة من يسعى وراء الحقائق ٠ فتردد الرجل ، ثم أجاب فى شيء من التوجس : « من فنلندا الشرقية »

وازدادت المرأة تفرسا فيه ، فأردف ذاكرا اسم منطقة صناعية كبيرة ٠٠ فسألته : « هل تناولت العشاء ؟ » ٠٠ وكانت قد همت بغسل الاطباق ، فصبت ماء ساخنا على كومة الصحاف التى رصت على حافة الفرن استعدادا لغسلها٠ وأجاب الرجل – كاذبا – دون ان يرفع بصره نحوها : « لست جائعا ! » ٠٠ واشعل الرجل الجالس الى المائدة سيجارة ،

وألقى بالثقاب على الارض ، ثم نهض وسار نحو الغريب ..
ونفث الدخان من ركن فمه ، ثم أخذ يطرق المائدة بأصابعه طرقات ذات معنى ، وقال : « هل الامر كذلك ؟! .. الى هذه الدرجة ؟! .. وما الذى ألقى بك الى هذه البطاح ؟ »

ولم يتحرك الغريب . بل انه لم ينظر الى سائله ، وانما راح يحدق فيما أمامه بدون جواب . وغاظ هذا المسلك الرجل الآخر ، فقال : « ان على من يأتى ينشد عملا ان يجيب عن الاسئلة التى توجه اليه على الاقل ! .. ما الشهادات التى تستند اليها ؟ .. لابد ان لديك بعض شهادات ، فيما أحسب ؛ فلسنا نستخدم أى شريد يطرق بابنا ! »

وفكر الغريب فى الثقوب التى كانت تتخلل حذاءيه ، والسترة البالية الرخيصة ، والقميص « الفانيلا » الذى انساب من الثقبين اللذين أحدثهما مرفقاه فى كمى السترة . كان قد استبدل هذه الاسمال بآخر حلة بقيت له . وأدى دفء الحجرة - بعد برودة الهواء فى الخارج - الى تصاعد عبير العرق ورائحة الثياب المتسخة .. وكانت هذه الامور تفسر تلك اللهجة الجافية ، المزدرية ، التى راح الرجل الآخر يسأله بها . وأربد وجه الغريب ، ونكس عينيه نحو الارض ، ثم قال فى هدوء : « أجل ، عندى شهادتان »

وتحسس الجيب العلوى فى سترته - دون ان يرفع رأسه - ثم أخرج حافظة أنيقة من الجلد ، تناول منها ورقتين مطويتين ، تآكلت حوافهما ، فاختطفهما الرجل ذو الشفتين الغليظتين من يديه ، وأسرع يقترب من النور ، ثم شرع يقرأهما فى عناء - شأن من لا يجيد القراءة - مبتدئا بالورقة التى نسخت على الآلة الكاتبة ، وذيلت بخاتم ادارى ، ومعقبا بالورقة التى كتبت بخط اليد .. ثم قال مستهزئا : « بديع .. بديع .. بستانى !؟ .. ورئيس عمال فى مصنع !؟ ..



ان الورقتين باليتان ، حتى ليتعذر على ان أقرأ اسمك ، أو ٠٠ لعلك محوته منهما ٠٠ هه ؟ ٠٠ انهما جد قديمتين ، حتى ان أحدثهما كتبت منذ ثمانى سنوات ٠ ماذا كنت تعمل منذ ذلك الحين ؟٠٠ هذا هو المهم ٠٠ اليك نفاياتك هذه ! »

وألقى الرجل اليه بالورقتين فى ازدراء ، وقد احتقن وجهه ، وتطاير الشرر من عينيه ٠ وكان يتحدث في غضب ، فتدافعت الكلمات من فمه بسرعة جعلته يتلعثم ٠ ثم تلاشى التغضن ، فلانت أسارير وجهه حتى أوشكت ان تنم عن لطف ٠٠ فقد اطمأن الى أنه السيد المالك هنا ، وأحس بقيمته ازاء ٠٠ « هؤلاء الافاقين الملعونين » !

وطرح الشيخ نسيجه الشبكي على الارض فجأة ، واستوى واقفا ، بينما أقبلت المرأة من ناحية الفرن تجفف يديها فى مرولتها ، ووقفت بجانب المتكلم ، تحت الضوء ٠ كانت عروق صدغيه تنتفض ، وأخذ يهتز وهو يدق الارض بقدميه ، ويصخب ، ويطوح بذراعيه حوله : « **نبئنى بحق الجحيم ، لماذا يستأجر كل هؤلاء الاوغاد دون علمى ؟٠٠ من السيد هنا ؟٠٠ أأنا امعة ؟٠٠ لعنة الله على هذا ، الا أستطيع ٠٠٠ »**

فقاطعته المرأة بصوت خفيض ، واضح ، بدا مسموعا وسط

هذا السيل الصاخب . والتصقت الكلمات بحلق الرجـــل ، ففغر فاه في ضعف ، ودار مرة أو اثنتين فى الحجرة ، ثم أخذ يحملق فى كتلة من الخشب كانت تشتعل فى الموقد ، بينمـا سار الشيخ الى النافذة وقد استقام ظهره المقوس ، وانتصب شعر شاربيه الاشيبين . وركل الرجل الاول كتلة الوقود ، فاهتزت وجنتاه البدينتان ، وقطعة اللحم المتهدلة تحت ذقنه . ثم نظر الى المرأة ، فقرأ الغريب فى تلك النظرة حقداً بلغ من المرارة والعمق درجة جعلته يشيح بوجهه !

وخطا الرجل الى الغرفة المجاورة ، ثم صفق الباب وراءه . وارتطم باب آخر ، وانبعث من السرير صرير مســـموع ، اذ ألقى الرجل بنفسه عليه وهو فى كامل ثيابه .. ثم ســـاد السكون . ولم يبق فى غرفة الجلوس ــ بالنسبة للغريب ــ سوى الضوء الباهت المنبعث من المصباح المجرد من الظلة ، والنظرات الباردة ، الزرقاء ، المنبعثة من المرأة !

* * *

• ولم يكن الغريب قد تحرك عن المقعد الخشبى ، وان كان قد أشاح بوجهه . وكانت المرأة تحدجـــه بنظرات حادة ، ثم عادت الى الفرن ، والى غسل الصحاف . وعاد شعر شـــاربى الشيخ الى الاسترخاء .. وكان قد جر قوامه البـــارز العظـام ، المقوس ، الى وضعه الاول بجوار النافذة ، ثم راح يطل عـــلى الخارج ، وهو يظل عينيه براحته ، والحقيبة الشبكية ملقاة عند قدميه

وكان الظلام يستفحل في الخـــارج ، وقد بزغت بضـع نجوم ، وبدت حافة الهضبة الصخرية واضحة وسط اطار السماء ، خلف البحيرة والحقول الســاجية . وواصلت المرأة غسل الصحاف فى صمت ، ثم جففتها بقطعة من قماش خشن ، ومسحت المائدة ، ووضعت كل الادوات فى الصوان . حتى

اذا فرغت من كل هذا ، بقيت هنيهة واقفة ، ويداها معقودتان امامها ، وقد سرحت بصرها نحو السماء المعتمة والقرية التى كانت تميزها على البعد بضع نقط مضيئة . ثم خلعت مرولتها - وهى لا تزال فى صمتها - وجلست الى المائدة ، وعقدت يديها على حافتها . ولم تنظر الى الغريب وهى تتكلم فى هذه المرة ، قائلة :

- نحن بحاجة الى عامل مجد ، يستطيع ان يؤدى أى عمل فى المزرعه ، وان يدير شئون المكان وحده .. فليس هنا سوى ثلاثتنا : السيد الكهل ، وهو يشترك فى العمل بقدر ما تمكنه قوته ، وزوجى ...

وهنا ارتجف صوت المرأة - وكأن تلك الكلمة كانت تثير تقززها - وغضت بصرها الى يديها ، فنظر الغريب بدوره الى تلك الاصابع القوية ، المتسقة الشكل .. ولكنه لم ير خاتما حول احداها !.. وعادت تقول فى طلاقة ، وكأنها كانت تتدبر ما ينبغى قوله ، أثناء انهماكها فى العمل الى جوار الفرن : « وزوجى يشتغل هو الآخر ، ولكن .. فى غير انتظام .. عندما يستطيع العمل ، فقط ، فهو .. فانه كان مريضا . ولم يسبق لاحد منا عهد بأعمال المزارع ، قبل مقدمنا الى هذا المكان . ومن ثم فنحن بحاجة الى رجل يعتمد عليه ، ولكن ... »

وتوقفت عن الحديث من جديد ، وبدا عليها الارتباك للمرة الاولى ، وكأنما كانت الكبرياء الشماء تجعل النطق بالكلمات التالية عسيرا عليها .. ولكنها لم تلبث ان استطردت قائلة : « ولكننا لن نملك ان نستبقيه بعد الصيف » !.. فهز الغريب رأسه . وعادت المرأة تناضل نفسها من جديد ، لتقول : « وبجانب هذا ، اذا كان الاجر يهمك كثيرا ، فاننى أخشى ... »

وبادر الغريب قائلا فى عجلة : « لست أحفل بالنقود كثيرا ، وفى وسعى ان أمكث الى الخريف لقاء أى أجر تمنحونى

اياه !.. وعلى كل ، فسوف نرى ما تأتى به الاحداث ! » ..
وهنا نهض الشيخ فانصرف بخطى غير ثابتة ، بعد ان ألقى تحية المساء . وسمع صرير باب يفتح ، ويغلق ، على بعد . وتطلعت المرأة الى الغريب .. ولاح ان التحفظ الدفاعى الذى كانت تنتهجه قد خف قليلا ، ولانت أسارير وجهها الجامد .. وقالت : « ان الشيخ ينام فى غرفة الزائرين .. انه يقيم فى المزرعة طيلة حياته ، وهو صديق حميم لى ! » .. فرفع الغريب عينيه ، ونظر الى المرأة فى غير تحرج ، فاذا اللطف ينحسر عن أساريرها فى الحال ، ليحل محله قناع من التحفظ ، بينما تبدى فى عينيها بريق نظرة حذرة ، جامدة . وقالت فى اقتضاب :

ـ لست أريد ان أطلع على شهادتيك ، فما جدواهما ، وقد سمعنا عنهما الكفايه منذ قليل ؟.. ولن أسألك عن آخر مكان كنت تعمل فيه ، ولا كيف فقدت عملك ، فالامر الآن موكول اليك . كل ما كنت أرغب فى ان أستوثق منه هو انك من شطر آخر من الدولة . وأظنك أعزب ، كما ورد فى الشهادتين ؟!

وتردد الغريب برهة ، ثم أجاب : « نعم » !

فعادت تواصل حديثها : « لست أدرى سر طلبك هذا العمل ، ولست أريد ان أعرفه . ان أهل القرية لا يتعاملون معنا ، كما اننا لا نكاد نذهب الى القرية . وخليق بك ان تعرف هذا منذ الآن . وتستطيع أن تنام فى ذلك السرير المؤقت ، القائم فى أقصى هذه الحجرة ، الى أن يشيع الدفء فى الليالى ، فتنتقل لتنام فى المخزن . ثم اننى لا أجيد الطهو تماما ، فضلا عن اننا لا نجد قدرا كبيرا من القوت فى هذا الفصل من السنة .. هذا كل شىء ، فان راق لك ، كان بوسعك ان تمكث ! »

ونهض الغريب عن المقعد الخشبى ، فسار الى الباب ، وعلق قبعته على المشجب ، ثم حمل كيس متاعه الى السرير . وعاد الى المائدة ، فنظر الى المرأة وقال ، وهو يقسر نفسه على الكلام : « اذا كنت فى عجب من رغبتى فى العمل ، فلست أملك سوى ان أقول لك انى لست هاربا من البوليس ! » ..

وتردد قليلا ، وكأنه يهم بأن يضيف عبارات أخرى ، ولكن المرأة رفعت يدها تسكته ، وقالت : « لا أحب ان أزج بنفسى فى شئونك ، فلدى من شئونى مايكفينى .. ألا اذهب الآن الى فراشك ، ان كنت متعبا .. وغدا أريك ماينبغى ان تراه ! »

وانبعثت كلماتها الاخيرة فى خشونة ، ثم نهضت ، وتأملت الرجل وكأنها تقيسه بنظراتها ..وما لبثت ان دلفت الىحجرتها

* * *

• وكان الغريب جالسا على حافة سريره ، حين عادت ثانية . كان قد خلع حذاءيه الرطبين ، وألقى فوقهما بجوربيه المبتلين ، وجلس وقد أحنى رأسه ، وأخذ يتأمل قدميه .. وكانتا متورمتين ، وبهما بعض السحجات ، لطول المسافة التى قطعها سائرا ، ولكنه لاح وكأنه لم يفطن الى ذلك الا لتوه . ونقلت المرأة الحذاءين والجوربين الى جوار الفرن ، لتجف ، ثم ألقت بجانبه – على السرير – طاقما من الملابس الداخلية ، وقالت فى صوت يغالب الفتور فيه اللطف : « انظر ما اذا كانت هذه تلائمك .. وفى وسعك غدا ان تلبس الحذاءين المطاطين اللذين فى الردهة ، فهما لم يستعملا الا قليلا . وتستطيع ان تلقى بثيابك المتسخة فى هذا الركن لتغسل »

ونهض فى حرج ، فاذا به – وقد خلع حذاءيه – لايجاوزها فى الطول الا قليلا . والتقت عيناها الزرقاوان الباردتان ، بعينيه آللتين اختلط فيهما اللونان الاخضر والرمادى . كانتا

عينين حزينتين ! .. وبسط اليها يده ، وهو يقول فى شىء من التوجس : « أعتقد ان النـاس يتصافحون عنـد ابرام صفقة كهذه .. ان اسمى : « آلتونين » ! »

وتطلعت اليه فى ارتياب ، وقد لزمت جانب الحذر فجأة ، فهوت يده الى جانبه ، ونظر فى ارتباك الى قدميه العاريتين المتورمتين .. وقال بسرعة ، وفى ذلة : « لست أدرى عادات أهل هذه البقاع .. قد لا يكون من اللائق بالسيدة ان تصافح أجيرا فى مزرعتها ! » .. فقـالت فى تؤدة : « ان المسـألة لا ترجع الى عادة ! » .. **وبسطت يدها ، فتصافحت اليدان ، ثم انفصلتا فى عجلة ، ولكن ملمس يدها ظل عالقا براحـة الرجل التى أكسبها العمل خشونة !**

وعندما تحولت عنه ، رفع يده وراح يتأملها فى دهشـة ، اذ كان قد ألف مصـافحة نوع آخر من الايدى ! .. وقالت المرأة : « أهلا بك فى المزرعـة ، اذن ، يا آلتونين .. والآن ، هيا الى سريرك ، فلابد انك متعب . عم مساء ! » .. فأجابها ، وهو يتأمل ظهرها المشـدود ، القوى ، أثناء انصرافهـا الى حجرتها : « عمى مساء ! »

وساد الهدوء كل شىء . وفى بطء ، أخـذ الرجل يسحب قميصه الممزق ليخلعه . وتلفت حوله فى المكان ، ثم خطا فى رفق عبر الحجرة ، ليطفىء النور . وما ان تلاشى الضوء ، حتى شرعت عيناه تتعودان عتمة ليل الربيع رويدا . وتجلى له أثاث الحجرة فى أشكال سوداء ، ضخمة . ثم سار الى السرير . وعاوده مع الظلام تعب داهم ، مبرح ، فلم يحـاول ان يخلع قطعة أخرى من ثيابه ، بل نشر قطعة بالية من فراء الغنم على السرير ، ووضع كيس متاعه تحت رأسه ، واستلقى باسـطا ساقيه

ومنذ تلك اللحظة قدر للمزرعة ان تكون مقاما له ومستقرا !

وسمع خنفساء تقرض خشب الجدار بجوار أذنه ، فخطر له أن القوم اعتادوا ان يعتبروها نذيرا بالموت !٠٠ ثم استغرق لفوره في نعاس عميق لا تتخلله أحلام ولا ذكريات

على انه اضطر فى أيام مقبلة الى أن يتذكر أن خنفساء راحت تقرض الجدار فى أولى لياليه فى المزرعة ، منذرة بالموت !



الفصل الثانى

◆ **كان** الغريب لا يزال مستغرقا فى النعاس ، حين ولجت المرأة الحجرة فى جلبة ، عند مطلع النهار ، فأشعلت النار ــ دون ان تضىء المصباح الكهربائى ــ ووضعت عليها الماء لتعد القهوة ٠ وألقت نظرة الى الفراش ، فلاحظت ــ بشىء من الاستهجان ! ــ ان الرجل لم يجشم نفسه عناء خلع ثيابه ٠ وكانت فى الواقع قد ألفت الكسل والقذارة ، بل انها أوت الى سريرها فى بعض الاحيان بقدمين ملطختين بروث البقر !٠٠ ولكن هذا لم يحدث الا فى أسوأ أيامها ٠٠ فى أقسى مراحل الشتاء ، حين كان الاسى المرير يكوى نفسها وكأنه جمر مستعر !

وكان قد طال اهمالها جسدها ، اذ لم تكن توليه سوى العناية الضرورية التى لا غنى عنها ٠ بل انها كانت ــ فى بعض الاحيان ــ تتعمد ان تجعل نفسها مثيرة للاشمئزاز ، مختارة بذلك أخف شرين ٠٠ فان المرء يلجأ فى قنوطه ــ

بعد أيام وأسابيع وسنوات من الصد ، والتوسل ،والتضحيات غير المجدية ـ الى أساليب أخرى ، أشد أثرا من الكلمات !

وراحت تتحرك بعجلة ، اذ كانت تخلو فى سويعات الصباح الى نفسها ، فتبارك كل لحظة تقضيها وحيدة !٠٠ فقد كان زوجها ينام الى ساعة متأخرة ، وكانت من ناحيتها تتركه فى رقاده ما طاب له أن يبقى ٠ فكان ـ فى بعض مراحل الشتاء ـ يظل فى السرير أياما بطولها ، وان لم يكن بقاؤه هذا نعمة صافية للمرأة ، فى كل الاحوال ، اذ أنه كان لا يلبث ان ينهض متسللا من فراشه ، حين يطمئن الى عدم وجود الشيخ ، ويجوس خلال الحجرات وهو فى ثيابه الداخلية !

وكان كل شىء يتألق فى ضوء الفجر ، خارج الدار ٠ وانبعثت من الحقول أطياف واهنة ، واستوت الاغصان ـ المكسوة بالجليد ـ فى استقامة ، فى صباح الربيع الصافى ٠ وكانت أرض الحقول الموحشة ـ التى ظلت منذ عشرات السنين ، تحرث عاما بعد عام ـ تمثل الاجداب ذاته ، فى تلك الآونة من العام ، حين تأخذ الثلوج فى الذوبان ٠ وسارت المرأة الى النافذة ، وراحت تطل على الطريق ٠ كانت أفنان شجرة « التامول » ـ فى فناء الدار ـ تبدو فى ضوء البكور حمراء ٠ ومن القرية ، تصاعد خيط أو اثنان من الدخان ، راحا يتلويان تحت دفعات الهواء ٠٠ بينما كان النهر المتجمد يتألق ، مرسلا انعكاسا أزرق .

واستعرت النار فى الموقد ، وأخذت تبعث أزيزا خافتا ، فتلفتت المرأة ، ورمقت الرجل النائم بنظرها ٠ كانت يداه الضخمتان ، الغليظتان ـ يدا العامل ـ تتدليان فى استرخاء من فوق حافة السرير ٠ وكان شعره متناثرا حول رأسه ، ووجهه قد خلا ـ بحكم النوم ـ من كلّ تعبير ٠٠ وكان وجها نحيلا ، تكثر فيه التغضنات حول العينين ، كما ينم فمه عن تعب وشقوة !

وتناولت المرأة دلوها ، والمعصرة ، ثم ذهبت الى حظيرة البقر

وبعد فترة ، كانت تقف فى مدخل الحظيرة ، تحلب البقر ، حين رأت الغريب قد خرج الى فناء الدار ، وراح يغتسل الى جوار البئر ، وقد تعرى حتى وسطه ، رغم ان البرودة القارسة كانت لا تزال عالقة بالهواء . كان يغتسل فى ضوء البكور الوردى ، فبدا جذعه العارى لدنا ، قويا ، وظهره مستقيما ، وردفاه ضيقين . وكان جد نحيل ، لا يحمل جسده درهما من اللحم أكثر من القدر الذى لا غنى عنه !

وراحت المرأة تحدق فيه ، وكأنها تتأمل شيئا غير مألوف . ولدهشتها ، **أحست بوخزة من اشفاق تغوص فى قلبها !.. لابد ان من الصعب على المرء ان يكون وحيدا ، فقيرا ، يعتمد فى معاشه على الغير . ولكن ، كان ثمة ما هو أنكى من هذا !.. وابتسمت لنفسها فى مرارة ، وهى ترى ان الوحدة ، والفقر ، والاعتماد على الغير ، قد تكون ــ لدى بعض الناس ــ حلما من احلام حرية لا سبيل الى الفوز بها !**

وعندما ولجت الدار ثانية ، كان الرجل قد نسق شعره ، وحلق لحيته ، وارتدى الثياب الداخلية الجديدة . وكان لون وجهه مائلا الى الزرقة من شدة البرد ، ولا يزال خاليا من كل تعبير ، وكأنما محا النوم عنه كثيرا من الاشياء !.. محا النوم عنه مظاهر الاعياء ، والعجز ، والحيرة الناشئة عن المجىء الى مكان غريب !.. كان الرجل قد غدا ــ اذ ذاك ــ مجرد عامل على أهبة البدء فى عمله اليومى

وكان الاغتسال فى البكور قد أثلج أطرافه ، ولكن ملمس الماء القارس لاح وكأنه أحرق ما كان قد تراكم عليه ، خلال السنين ، من قذارة ، وهوان ، وامتعاض من نفسه !.. **لم يكن يبغى سوى العمل .. وما كان له وجود الا لهذا .. للعمل بيديه القويتين ، المدربتين ، فقط !.. فليس هناك ما هو**

أفضل من العمل ، لرجل يريد ان يمحو سني حياته ، وكأن لم يكن لها من قبل وجود ، على الاطلاق !

ولقد احتبس نفسه فى اليوم الاول ، وفى كثير من الايام التى تلته ، فى دائرة ضيقة من العمل والنسيان ، دون ان يفكر أو ينظر .. مثل رجل مريض لا يعى ما يدور حوله ، أو كأنه لا يكترث له !.. وكان هذا هو السر فى صلاحيته للعمل فى هذه المزرعة . فما كان ليوجه سؤالا ، أو يبدى فضولا .. بل أنه ما كان لينعم النظر فى أى انسان !.. كان وجوده بلسما يخفف من لوعة أى نفس حائرة ، مثقلة !.. كان جد قريب ، ولكنه ـ مع ذلك ـ جد بعيد . وكان فى وسع المرء ان يركن اليه ، دون ان يطالب بشىء فى مقابل ذلك !.. كان دعامة خفية ـ دون ان يدرى ـ حيث أخفقت كل دعامة أخرى .. ومن ثم فقد كان مجيئه الى هذه المزرعه بالذات ، عملا غير صالح !

* * *

• **وأخذت** حرارة الشمس تزداد شدة فى ذلك النهار الاول من حياته الجديدة . وذابت أرجوانية السماء واستحالت الى زرقة صافية ، شاملة . وشرع يتصاعد من الحقول ضباب رقيق ، وبدأ جليد النهر الضيق فى الذوبان

واحتسى « آلتونين » قهوته وهو جالس الى المائدة الضخمة فى حجرة الجلوس ، ومضى يقضم الخبز اليابس ويستمرىء مافيه من طعم المسلى النباتى . ثم أرته المرأة المبانى الملحقة بالدار : مظلة البقر ، والحظيرة ، ومأوى الخنازير .. وقد جمعها سقف واحد . وكان « آلتونين » قد اعتاد ظروفا أخرى .. ربما كانت أفضل من هذه .. ولعله لم يكن خير من يحكم على هذه !.. وعلى كل ، فان أية عين غير خبيرة كانت خليقة بأن تلاحظ ان المكان كان يتردى فى حال سيئة . فقد

كانت جوانب البنايات تميل فى هذا الاتجاه ، وفى ذاك !..
وعندما أذابت الشمس الجليد عن السقوف ، بدت الثغرات فيها قذى لعين أى انسان عادى . ورأى الرجل فى مأوى العربة أدوات زراعية من طراز عتيق ، كدست هناك فى غير اعتناء ، صونا لها من الشتاء . وبدت حظيرة البقر شبه خاوية ، اذ لم يبق فيها سوى أربع بقرات ، وواحدة صغيرة نحيلة ، وعجل واحد

وقالت المرأة وهى تتفادى نظراته : « لقد اضطررنا الى ان نخفض عدد حيواناتنا فى الخريف ، اذ كان محصول العلف سيئا فى هذا العام » !

وفى مخزن الغلال ، فحص « آلتونين » الحشيش الجاف ، فاذا به قد اكتسب لون الصدأ ، اذ امتص الرطوبة ، ثم جف واشتد جفافه ، وكان لابد من خلطه بالتبن والشوفان

وقال : « هل اختزنتم شيئا من العلف المجفف ؟ » .. ولكنه سرعان ما أمسك لسانه ، وبدا وكأنه لم يوجه سؤالا ما ، بينما سرت فى وجه المرأة حمرة ، وتبدى التحدى فى عينيها . ثم قالت بعد لحظة : « اننى آعنى بالماشية والخنازير ، فلن يكون لك شأن بها ! »

وكانت فى الحظيرة فرس فى حال طيبة ، وقد بدت عليهما أمارات التغذية الجيدة . واجفل « آلتونين » عندما وقع بصره على هذه الفرس ، اذ كانت بيضاء لا شائبة فيها .. بيضاء بحكم كبر السن ، كما بدا له . ورفعت الفرس رأسها ، وحملقت فيه بعينين كأنهما كأسين من الدماء ، وقد ردت أذنيها الى الخلف فى تحفز ، فقالت المرأة : « ان الشيخ يضطلع بأمر هذه الحظيرة ، وهو الذى أشرف على تربية هذه الفرس مذ كانت مهرة .. لقد كانت فى صغرها رمادية اللون ، مرقطة ببقع بيضاء ، وكذلك كان أولادها .. ومثل هذا النوع لا يتحول الى اللون الابيض الا عندما يكتهل ! »

ولطم « آلتونين » صدر الفرس العريض براحة يده ، وقد أحس وهو فى الحظيرة ـ محوطا برائحة النوشادر النفاذة ، المتصاعدة من الروث ـ بأنه فى داره والوسط الذى يرتاح اليه ٠٠ فلقد كانت حظيرة الخيل مملكة للرجل خلال سنوات لا سبيل الى تذكرها !٠٠ وتطلع « آلتونين » الى المرأة وسألها : « ألا تزال الفرس تلد الى الآن ؟ » ٠٠ فهزت المرأة رأسها ٠ واذ ذاك قال وكأنه كان يفكر فى شىء آخر : « الواقع انها حيوان جيد ، قوى !٠٠ ولكن من المؤكد ٠٠٠ » وتردد لحظة ، ثم استطرد : « من المؤكد أننا لانستطيع قضاء الصيف ـ فى مزرعة بهذا الحجم ـ بجواد واحد فقط » !

وسارت المرأة الى النافذة ، ووقفت تسرح بصرها خلال الالواح الزجاجية المغبرة ، وهى تقول : « لقد اعتدنا ـ حتى الآن ـ ان نبتاع فى ربيع كل عام جوادا ، لان الجياد ـ اذ ذاك ـ تكون فى حال سيئة ، اثر انهاك قواها فى جر الاخشاب ، ومن ثم تكون رخيصة ٠٠ ثم نعمل على تغذية هذا الجواد خلال الصيف ، ونحصل من ورائه على ثمن طيب عندما يبدأ موسم قطع الاخشاب من جديد ! »

فقال « آلتونين » وكأنه يحدث نفسه : « ان الجياد غالية فى هذه الايام ! »

ولزمت المرأة الصمت فترة طويلة ، وهى تحملق خلال النافذة على غير هدى أو قصد ٠ ثم التفتت ، وواجهت « آلتونين » ، ويداها خلف ظهرها تتشبثان بحافة النافذة فى قوة ٠ وقالت : « ألا نستطيع حقا ان ندبر أمورنا ـ فى هذا الربيع ـ دون جواد آخر ؟ »

وللمرة الاولى ، أدرك « آلتونين » الضائقة التى كانت المرأة تعيش فى كنفها ، وعرف مدى الالم الذى تجشمته لتسأله النصح فى لهجة تكاد تكون توسلا وضراعة ٠ وأخذ يفكر برهة ، وهو يتحسس بأصبعه السرج الذى كان معلقا الى

الجدار ، وما لبث ان قال دون أن يلتفت نحوها : « **في وسع المرء ان يفعل أى شيء ، اذا ما توفرت لديه الرغبة ! » .. وكان صوته خفيضا ، وكأنه يحدث نفسه .. أو كأن كلماته كانت تتجاوز الرد المنشود على سؤالها . ورددت المرأة بدورها كلماته فى تؤدة : « في وسع المرء ان يفعل أى شيء .. اذا ما توفرت لديه الرغبة ! »**

وظلت مولية النور ظهرها ، ومن ثم كان وجهها لايبدو له واضحا ، ولم يكن يرى منها سوى قامة طويلة ، مستقيمة ، مشدودة بدرجة غريبة .. فقال لنفسه فى اكتئاب : « ان هذه المرأة تقسو على نفسها كثيرا ، فهل فى وسعها بعد ذلك ان تترفق بأى مخلوق ؟! »

* * *

• **وعادا** فى صمت الى ساحة المزرعة الخاوية ، التى كانت الشمس قد أصلتها فيضا من حرارتها ، حتى لقد كانت التربة تتشقق تحت أقدامهما . وكان ينبعث من الظلة التى اختزن الخشب تحتها ، صوت فأس ،اذ كان الشيخ قد استيقظ ، وانصرف الى قطع كتل الخشب للوقود . وولجت المرأة الدار ، تاركة « آلتونين » وحيدا فى الخارج . واتجهت عيناه الى الحقول المقفرة ، المترامية خلف البحيرة .. كانت شجيرات الصفصاف العارية من الورق تبدو حمراء بالنسبة للتربة المحيطة بها ، وهى تشرئب برؤوسها خارج الحفر .. لقد كانت الشجيرات قد أوشكت ان تكبر بالنسبة للحفر التى غرست فيها . وأخذ الرجل يتصور ـ فى خياله ـ كيف ينبعث الضباب المشبع بالرطوبة ، فى الامسيات ، من الفراغ الذى يقع بين الغابات والمرتفعات الصخرية ، ثم يسرى منتشرا فوق الشطر الادنى من الحقول

وقال لنفسه : « كان خليقا بهم ان ينقلوا كميات من الطمي

والرمل الى هذه الحقول أثناء الشتاء ٠٠ وفى وسع المرء ان يجرب الكلس (الجير) أيضا ! »

و سعى الى ما وراء حظيرة البقر ، ليتفقد السماد العضوى ـ المتخذ من الروث ـ والذى كان مكوما بجوار الجدار ، تحت سقف من الالواح الخشبية ٠ وكان ثمة جذع من شجر الشربين ملقى الى جانب السماد ، وقد دق فيه خطاف ، مما أوحى بأن المزارع الشيخ كان يشتغل فى تلك البقعة أبان الشتاء ٠ وحفر « آلتونين » فى الروث بمقدم حذائه ، فتبين ان قاع الكومة كان مرصوفا بالحجر ، وان المادة السائلة فى السماد كانت قد تسربت جارية على السفح المنحدر ، فذهبت بددا !٠٠ **وسرح بصره نحو الحقول مرة أخرى ، ثم أطلق زفرة عميقة ، اذ وجد ان من العسير عليه ان يقرر من أين يبدأ !**

وسار متلكأ نحو مخزن الخشب ٠ وكانت حرارة الجو قد اشتدت ، و هبت ريح مضت تدفع ـ فى رفق ـ سحبا بيضاء عبر السماء ٠٠ وامتزج عبير الارض الجرداء بشذى العطر المنبعث من نبات الراتينج (القلفونية) ٠ وكان المزارع الشيخ لايزال منهمكا فى تقطيع الخشب ، ولكنه ترك الفأس من يده ، ثم اعتدل ، وشد ظهره المقوس ، عندما اقترب «آلتونين» منه ، فاذا به فارع الطول ، حتى ليصل رأس « آلتونين » الى منكبيه !

وظل الاثنان صامتين بضع لحظات ، وقد وقف كل منهما أمام الآخر ٠٠ ثم قال آلتونين : « ترى هل تصحبنى فى جولة حتى أتبين ما تريدون ان أقوم به من حرث ؟ »

فتطلع اليه الشيخ ، وقد أسدل على وجهه الضامر قناعا من التحفظ يخفى ما بنفسه ، ثم هوى بالفأس على الكتلة الخشبية التى كان يقطعها ، وقال : « ان الاسيجة فى حاجة الى اصلاح ، ولا بد من اجراء هذا الاصلاح يوما ، ومن ثم فقد يكون من الخير أن نبدأ به الآن »



وان هى الا لحظة ، حتى شاهدتهما المرأة خلال النافذة ،وقد انطلقا ـ صعدا ـ فى الدرب الممتد على سفح التل . وكان الشيخ يسير فى المقدمة ، بسترته الممتلئة بالرتوق ، يتبعه « آلتونين » حاملا لفة من الاسلاك الشائكة ، وأدوات قص السلك . وما لبثا أن تواريا بين شجر الشربين ذى الخضرة الكالحة

وسمعت المرأة اهتزاز السرير فى الغرفة الداخلية ، وأعقبه وقع قدمين ، فاتخذت أسارير وجهها مظهرا صارما . لقد انتهت سويعات البكور ـ التى تخلو فيها الى نفسها ـ وبدأ اليوم !

* * *

• **وما** أن حان المساء ، حتى كان « آلتونين »قدرأى كل ما كان ينبغى أن يرى : المروج المتطرفة ، والبقاع العارية المهملة فى الغابة ـ حيث اجتثت الاشجار للوقود ولاتخاذ الاعمدة والدعائم ، فلم تبق سوى أشجار متباعدة ـ والحقول التى حرثت حرثا خفيفا والتى لم تقلب سوى طبقة سطحية من تربتها، وبعض بقاع قليلة نبتت فيها عيدان الجودار . كذلك رأى ، لدهشته ، قطعة من الارض اجتثت منها الاشجار والحشائش

فى غير اعتناء ، وبقيت فيها أكوام من الجذور والسيقان المحروقة ، مما نم عن أن القوم كانوا يعدون مساحات جديدة لزراعه ، فى حين انهم كانوا يتركون الحقول القديمة مهمله ، مهجورة !٠٠ وكان حليقا به ان يضحك لهذا التصرف ، لولا انه لم يجد فيه ما يضحك ، وانما راى فيه تصرفا عدائيا ٠ تصرفا يوحى ــ للنظرة الاولى ــ بنذر الخطر !

وساوره عين الشعور مرة أخرى ، حين أطل ــ عندالغسق ــ من فوق حافه الهضبة الصخريه العاليه على الاراضى المنبسطة، المترامية تحت قدميه ، فرأى المزرعه ، والبيت وقد بدا لونه الاحمر كالحا ، وخيطا من الدخان ينساب متصاعدامن المدخنة، والبنايات الملحقة بالبيت فى لونها المغبر ، والبحيرة المستلقية بين الصخور البارزة ٠ وكان المزارع الشيخ قد حذره من هذه البحيرة ، وأنذره بأن ماءها كثيف ، لزج ، لا غـور له ، وان ضفافها رخوة ، تنهار تحت قدمي المرء ٠٠ ومن ثم فهى خطرة بالنسبة للماشية كذلك !

وهز رأسه وهو شارد الذهن ٠ كانت ثمـة غريزة قويه تهيب به أن يعمل لاصلاح الاحوال فى هذه المزرعه ، بأقصى ما فى طوقه وقدرته ٠٠ ولكنه تبين ، وقلبه مثقل ، ان فرداواحدا لايستطيع أن يقوم بقسط كبير ، واذن ، فقد قدر على المكان أن يروح فريسة سهلة للدمار !

على أنه لابد من عمل شىء ٠ **وأحس « آلتونين » برغبة حارة ، قوية ، تنبعث من سويداء فؤاده ، فتدفعه للمساعدة ، ولكن ٠٠ مساعدة من ؟ ٠٠ مساعدة تلك المرأة الوحيدة ، ذات الشعر المعقوص الى الخلف ، والوجه الكئيب الشاحب ٠٠ المرأة التى كانت تسجن نفسها فى نطاق ــ أبعد ما يكون عن المرونة ــ من الحياة القاسية ، الصارمة !** ٠٠ واستولى عليه اشفاق غريزى عميق ، فشرع يحسب فى سـكون أقل ماتدعـو الضرورة الى شرائه كي تغل الارض محصولا مناسبا ٠ أى نوع من التقاوى

كان لديهم ؟ .. وهل عندهم أى نوع من المخصبات (السماد) ؟ ..
ولكنه وجد من المستحيل أن يرسم خطة تقوم على الحدس والتخمين . وتذكر أنه مر بمتجر عام خلال اجتيازه القرية ، فقرر أن يحصل من هذا المتجر على بيان للاسعار . وأدرك أن ليس ثمة من سبيل الى التفكير فى الحصول على شىء سوى الضرورات الماسة التى لاغنى عنهـا ، ومن ثم فلا بد أولا من تكوين فكرة واضحة عن كل ما كان لازما ، قبل أن يقول أى شىء في هذا الصدد

وتألف العشاء - فى تلك الليلة - من بطاطس ، وسمك مدخن (رنجة) ، و « سجق » مصنوع من أمعاء الخنزير . وجلس أربعتهم الى المائدة العارية ، وراح كل يأكل على طريقته . ولكن الرجل المقيم فى الحجرة الداخلية - ولم يكن « آلتونين » يقوى على أن يحمل نفسه على وصفه بـ « السيد » ! - لم يصب من الاكل الا قليلا ، وكان طيلة الوقت ينظر الى الطعام شذرا !.. على أنه استعمل الشوكة والسكين فى مهارة الشخص الراقى ، وكأنما كان يبغى أن يقيم شيئا واضحا يميزه عن الآخرين ، رغم انهم كانوا يجلسون جميعا حول مائدة واحدة !.. وفاجأ « آلتونين » عينى الرجل اليقظتين الماكرتين ، وهما ترمقانه من وقت لآخر !

وألفى « آلتونين » سريره - فى ذلك المساء - وقد أعد ونسق خصيصا من أجله !.. فالى جانب فراء الغنم ، حظى ببطانية ، ووسادة ، وملاءتين من نسيج خشن . وبينما كان يبحث عن شىء فى كيس متاعه ، لاحظ أن يدا عبثت فى مقتنياته القليلة التى كانت مودعة فى الكيس !.. ولم يكن لديه فى الواقع مايحرص على اخفائه ، ولكن الامر بدا مثيرا للعجب .. فان ربة البيت لم تكن تلوح من ذلك الصنف الذى يحلو له التنقيب بين الاشياء التى يملكها خادم !.. على انه لم يول هذا الامر مزيدا من تفكيره ، وسرعان ما استغرق فى نوم

عميق ، مطمئن ، اذ كانت الحجرة قد أصبحت مألوفة لديه ، وكان الاستلقاء وبسط الاطراف على الحشية الخشنه ، المحشوة بالقش ، يبعث الارتياح فى نفسه !

وفى الصباح المبكر من اليوم التالى استقل العربة ناقلا « صفيحتين » مليئتين باللبن ، الى معمل الالبان الذى كان فى قرية أخرى تبعد عن المزرعة ببضعة أميال . وحملق فيه صاحب المعمل ، كما تطلع اليه عميلان آخران جاءا ينقلان الالبان على عربتيهما ، وبادراه بالتحية . وحاول الثلاثة ان يجاذبوه أطراف الحديث ، بدافع من الفضول ، ولكنه آثر التحفظ .. فلم يوجه لهم أسئلة ما ، وأخذ يجيب على أسئلتهم بردود مقتضبة !..
وعندما انصرف ، اغتبط اذ اتخذ طريقه الى الدار ، جالسا فى العربة التى أخذت الفرس تجرها بخطى متثاقلة

وكان يدرك أن الفرس لم تمل اليه ، فقد شدت أذنيها الى الوراء ـ دلالة التحفز ـ وأخذت تهز رأسها . اذ كانت من « السكان » الاوائل فى المزرعة ، ولذا لم تكن تألف الاغراب . على أن « آلتونين » لم يحفل بذلك . كان لونها الغريب يبلبل أفكاره .. وكذلك كانت تبلبلها أشياء كثيرة أخرى فى المزرعة ، وان لم يستطع أن يعلل لنفسه هذا الشعور !

* * *

• **وتوالت** الايام .. بل انها تسللت دون أن يشعر بها ، اذ كان لديه عمل وفير يشغله ، مما دل على أن المزرعة كانت تفتقد عاملا قديرا ، منذ أمد بعيد . وكان اذا رفع رأسه عن العمل ، أبصر فوق رأسه قبة السماء ، وشعر بريح دافئة تهب على الحقول . وكانت القرية تلوح بعيدة .. وأبعد منها كانت تقوم مدن ، ومحطات للكهرباء ، ومصانع . وكانت الصخور الكالحة ، والمساحات الممتدة من الارض الهزيلة الخصب ، تسعى اليه مقتربة منه كلما سار فى ساحة المزرعة ، وفى الحقل ، وسرح بصره يطوف بالريف

وفى بعض الاحيان ، كان يجد الغرفة خالية ، اذا ما عاد من عمله الى الدار فى الامسيات ، اذ تكون المرأة فى حظيرة البقر لحلب اللبن . وحدث ذات يوم ، أن خرج الرجل الثالث من مخدعه ، بينما كان « آلتونين » ينفض الاوساخ عن حذاءيه ، ويعلق سترته الى الباب ، وشرع يتحدث اليه وكأنمـا كان يتحين الفرص لهذه المناسبة .. فقال ، محاولا أن يرسم صرامة على وجهه ، وأن يثبت نظرات عينيه المختلجتين ، الزائغتين :

ـ اسمع يا آلتونين .. لقد عملت بستانيا ، ومن ثم فأنت جدير بأن تكون خير رجل لهذه المهمة .. فلقد كنت فى حاجة الى مساعدتك منذ زمن طويل . ان هذه الحقول لاتكاد تغل مايكفي ، ولو لغذائنا ، كما ترى . فمـا رأيك فى أن ننشىء حديقة لاستنبات الخضر ؟.. لا أعنى حديقة صغيرة ، مادمنا نعتزم العمل .. ليست مجرد رقعة لاستنبات حزمـة من البصل .. تعال فانظر !

وأمسك بكتف « آلتونين » ، وأشار خلال النافذة الجنوبية نحو البحيرة ، التى انعكست أضواء المغيب على جليدها الذائب ، فبدت فى لون الدماء القانية . وكانت تقـوم بين الحشائش الجافة القريبة من الدار ، بضع شجيرات متشابكة الافنان من أشجار العنب المعروف باسم « عنب الثعلب » ، واثنتـان من شجر التفاح ، وقد كستهما الطحالب لطول العهد بهما . وكان « آلتونين » قد شهد هذه الاشجار من قبل ، فلم ينظر اليهـا فى هذه المرة ، **اذ لم يعد يشعر بغير التقزز الذى غشيه لملمس تلك اليد الرخوة ، الضعيفة !.. أحس بماكان فيها من لين يثير الاشمئزاز ، من هذا الرجل الذى كان أقصر منه قامة ، والذى أجدب رأسه من الشعر قبل الاوان !..** وخيل اليـه أن روح الرجل كانت ـ هى الاخرى ـ كنبات اسفنجى منتفخ على فراغ .. أو بالأحرى ، كنبات فطرى !.. وأحس بغثيان لمرأى الخدين المترهلين ، والفم المتراخي الشفتين ، والذقن الطرية الناعمـة

التى تشبه ذقن امرأة ، والنظرة الزائغة ، الرائغة ، كسحلية تتسلل على صدغة !

واسترسل الرجل يقول : « الا انظر ياآلتونين ٠٠ ان هذه البقعة التى تقع على السفح الجنوبى ، ذات تربة خصبة ، غنية . كما ترى ٠٠ وسنزرع خمسين شجرة تفاح فى بادىء الامر . وفى وسعنا أن نستنبت البطاطس فيما بينها ٠ لقد قرأت هذه الفكرة فى كتاب ما ٠ وهناك ، سنزرع - فى صفوف محاذية للاشجار - خيارا ، وطماطم ، وشليك ٠٠ تلى ذلك صفوف من البنجر ، والكرنب ، واللفت ، تمتد حتى حافة الماء ٠٠ لقد رسمت الخطة بالفعل ، فتعال والق نظرة عليها ! »

* * *

• وفتح الرجل باب مخدعه ، فدخل « آلتونين » جناح مخدوميه لاول مرة منذ مقدمه الى المزرعة ٠ وتأمل ماحوله بعين واعية ، منصتا بنصف اصغاء الى ثرثرة الرجل ٠ كان ثمة سرير ضيق - فى هذه الحجرة - وصوان ذو أدراج ، ومنضدة ، ومقعد ، بينما فرشت الارض ببساط ٠ وكان كل شىء نظيفا ، منسقا ، عاريا من الزخرف ٠ اذن ، فلا بد أن هذه كانت غرفة مخدومته ٠ وكانت تليها غرفة أخرى ، اعتاد الرجل أن ينام فيها ٠٠ والى هذه الغرفة ، اقتاد الرجل « آلتونين »

وكانت حجرة فسيحة ، تختلف تماما عن كل ما كان يتوقع أن يراه فى مزرعة كهذه !٠٠ كانت الجدران قد كسيت - منذ عهد قريب - بورق ذى لون رمادى باهت ٠ وكان منظر البحيرة وخلفها المرتفعات المكسوة بالغابات ، يبدو بديعا جداً خلال نافذة تلك الغرفة ٠ وكان هناك مكتب كبير ، تناثرت عليه المساطر ، والاوراق التى كان بينها ورق من النوع المخصص لرسم المشروعات ٠ وعلى طول أحد الجدران ، قامت خزانة للكتب ، زخرت بالمؤلفات ٠ كما كانت ثمة كتب مفتوحة على المكتب والمقاعد ٠ وألقى « آلتونين » نظرة ، فاذا هى جميعا

كتب فى مبادىء الزراعة ، وبعض مؤلفات أخرى باللغتين السويدية والالمانيه

ورمق « آلتونين » الرجل بنظرة من ركن عينه ، فاذا هو واقف بجوار المكتب ، سادر فى الكلام دون انقطاع ، وقد تسللت احدى يديه ـ دون أن يفطن ـ الى جيب سرواله (بنطلونه) ، بينما كانت اليد الاخرى تشير الى الاوراق المبسوطة أمامه . وبدأ « آلتونين » يشعر بأنه أخطأ فهم الرجل ، فلا بد أنه يستحق منه اهتماما أكثر مما خصه به حتى الآن !.. ومن ثم شرع يصغي اليه ، وان كانت عيناه قد واصلتا التجوال في الغرفة ، فلاحظتا السرير الذى لم يسو بعد ، وقد تناثرت أغطيته من جراء نوم الرجل خلال النهار . وكان رماد السجاير يتناثر على الاغطية ، وعلى الارض ، كما كان ثمة كتاب على الرف ، مكسو بالغبار



وكانت هناك صور ثبتت الى الجدران .. صور نسوة عاريات ، اقتطعت من مجلات !.. وما لبثت عينا « آلتونين » ان استقرتا على مذياع لاسلكى ـ جهاز للراديو ـ وضع على منضدة ، وقد تراكمت فوقه الكتب والصحف . وقال بغتة ، على الرغم منه ، والرجل ماض فى حديثه : «ان لديك مذياعا !»

وقطع الرجل حديثه ، ولاح كمن يحاول ان يعى ماقاله الآخر، اذ أخذ يردد فى غباء : « مذياع !٠٠ مذياع ! » ٠٠ ثم قال : « أجل لدى مذياع ، ولكن الجهاز اللعين يأبى أن يعمل ٠ لقد دفعت من أجله ألفى « مارك » منذ عام ٠٠ لا ، بل دفعت ألفين وثمانمائة ٠٠ لا ، لقد أخطأت ٠٠ لابد أن المبلغ تجاوز ثلاثة آلاف !٠٠ ياللجحيم !٠٠ ماكنت لاقضى العمر فى اصلاح هذا الشىء الحقير ! »

فسأله آلتونين : « ألم تقم له هوائيا (ايريال) فى الخارج ؟

ـ لا ، انه يسير على مايرام بدون هوائى ، اذا ما عمل ٠ ان اقامة هوائى كانت تتطلب منى الصعود فوق سطح الدار ، وما كنت لاجشم نفسى هذا العناء ٠ ولكن ٠٠ لنعد الى حديث الحديقة ٠٠ أنظر !٠٠ لقد رسمت مشروعى ، بحيث أبدأ بخمسة صفوف حول أشجار التفاح ٠٠ وفى وسعك أن تشرع فى تخطيطها منذ الغد ، وسوف أعطيك الرسم ، كما سنطلب الزجاج اللازم لبيوت الخضر من المدينة !

* * *

• **وفيما** كان الرجل ماضيا فى حديثه ، مال « آلتونين » الى الامام وأخذ يمعن النظر فى النافذة ، ويفحصها عن كثب ، فوجد أن المصراعين اللذين يحملان الالواح الزجاجية قد أحكم اغلاقهما بالمسامير !٠٠ كان هناك نحو اثنا عشر مسمارا دقت فى أطاريهما ، وقد فتحت ثغرة للتهوية فى اللوح الزجاجى العلوى ، بطريقة مبتكرة ، وبذا كان من المستحيل فتح النافذة كلها ، دون تحطيم الزجاج

ومضى الرجل يقول ، وهو يسجل أرقاما على قصاصة من الورق :

ـ خمسون شجرة تفاح تدر خمسين ألف «مارك» فى العام !٠٠ ان التفاح المستنبت محليا يجد رواجا طيبا ، وعندما يتسنى

انتشار زراعة الفو! له على نطاق واسع فى هذه البلاد ، سيغدو فى وسع القوم فرض ضرائب على الواردات ٠٠ واذ ذاك سنجد أن التوفر على انتاج التفاح وحده كفيل بأن يدر علينا دخلا طيبا ٠٠ هذه مسألة !٠٠ ننتقل الآن الى الخيار ، والطماطم ، والخضر الطرية ٠٠ ان الاغبياء المقيمين فى هذه المنطقة لايعرفون عنها شيئا ٠٠ فليس هناك ادراك ، ولا روح ابتكار !٠٠ وليس لهم أن يلوموا سوى أنفسهم اذا ما أفلسوا وباعوا مزارعهم ٠ أراهنك ، باى شيء تحب ، على أن البستان والحديقة سيدران بعد خمس سنوات مايعادل دخل كل الحقول مجتمعـــه !٠٠ ولسوف نستثمر الربح فى المشروع نفسه ، فنوسع الحديقة ، ونقيم بيوتا زجاجية للنباتات ، ونبتاع سيارة مستعملة لنقل المحصول الى السوق مباشرة ، مرتين فى الاسبوع !

وأخذ « آلتونين » يعتصر ذهنه بحثا عن كلمات ٠ فلمـــا كف الرجل عن الحديث ، وراح يسب ـ فى ضيق ـ وهـــو يجمع سلسلة من الارقام المتراكمة ، شرع « آلتونين » يقول فى صوت هادىء :

ـ كان لابد ، لتنفيذ هذا المشروع ، من أن تقلب الارض فى الخريف الماضى ، وان تخطط الصفوف التى ستزرع فيهـــا الخضر ٠٠ وكان عليكم أن تضيفوا الى التربة طميا وسمـــادا خلال الشتاء ٠ هناك كمية قليلة من السماد العضوى (السباخ) ، ولكنها لاتكاد تكفى ٠٠ ولو للحقول فقط !

فصاح الرجل محنقا ، وقد بدأت شفتاه الغليظتان ترتجفان: « لتذهب الحقول الى الجحيم !٠٠ انها لا تدر مالا ! »

واستأنف « آلتونين » حديثه قائلا : « ثم ان عليك ـ بجانب هذا ـ أن تقدر المسافة بيننا وبين أقرب سوق ، ونوع المنافسة التى سنضطر الى مواجهتها ، ومستوى الاسعار فى الخريف ٠ ان الجزر والكرنب واللفت تعيش وتحتمل النقل ، أما الطماطم ، فلن تصلح بعد الوقت الذى يتطلبه نقلها الى السوق ، الا غذاء

للخنازير . فى حين أن الشليك ... »

وتوقف ، ففرك الرجل ـ الواقف بجوار المكتب ـ قصاصة الورق بين أصابعه ، وهو يسب بصوت خفيض ، ويكرر اللعنات فى توال رتيب متتابع . وعندئذ ، تركه « آلتونين » وأغلق الباب فى رفق . وكان لهذا الباب قفل جديد متين ، يتوسطه ثقب للمفتاح ـ من الجانب الخارجى ـ ولكنه لم يكن يحمل مفتاحا . واستقرت عينا « آلتونين » مرة أخرى على سرير المرأة الضيق ، ثم اجتاز مخدعها الى غرفة الجلوس

★ ★ ★

◆ **وكانت** المرأة تلج الغرفة فى تلك اللحظة ، فوقفت تحدق فيه . وظن هو أنه قد أفزعها ، فأسرع يقول فى لهجة جدية لاتشى بشىء من خواطره : « ان على أن أبدأ بتخطيط صفوف حديقة الخضر ، واقامة أعمدتها .. وسيطلب الزجاج من المدينة» .. وتردد عندما هم بأن يقول: « انالسيد يقول ...»، اذ أن اللقب أثار اباءه فى هذه المناسبة ، فآثر الصمت

وكانا وحيدين فى الغرفة الواسعة ، وقد انتهى عمل اليوم، وأصبحت اللحظة مهيأة لقول ما كان ينبغى أن يقال منذ البداية . وكانت معالجة الموضوع جد عسيرة ، مما كان يضطر المرأة الى ارجائه على أمل ان تتطور الامور فتكشفه من تلقاء نفسها ، دون ماحاجة للكلمات !

وجلست على حافة صندوق الوقود ، وعقدت راحتيها فى حجرها ، وصوبت بصرها مباشرة الى «آلتونين» . وكان شعرها مرجلا الى الخلف ، منحسرا عن جبينها الذى لوحته الشمس بالسمرة . وكانت ترتدى حذاءيها القذرين المخصصين للحظيرة، بينما تجلى الاسى ، والعزم ، على محياها . وقالت اخيرا وهى تومىء برأسها نحو باب غرفة النوم :

ـ ليس للرجل الذى بالداخل قول فى ادارة شئون هذا المكان . فاذا أقدم على الحديث اليك مرة أخرى بهذا الشأن يا « آلتونين » ، فلا تحفل به ، اذ ليست لكلامه قيمة .. ليست له قيمة على الاطلاق !.. ومن ثم تظاهر بأنك لاتسمع كل ماقد يطلب عمله منك ، وكل ماقد يعدك أو يهددك به .. هذا خير ماتفعل ازاءه !

وظلت جالسة فى مكانها ، ويداها معقودتان فى حجرها ، وقد شدت كلا منهما على الاخرى . وكانت رابطة الجأش ، بادية الوقار ، لايطرف لها جفن .. فأشاح « آلتونين » بوجهه عنها ، وقال فى هدوء : « حسن جدا ! »

وفى ذلك المساء ، لم يحط بمائدة العشاء سوى ثلاثة أفراد . ولم تصدر من الغرفة الداخلية حركة ولا نأمة . ولم يكن أى قدر من المسلى على المائدة ، فكسا « آلتونين » والمزارع الشيخ خبزهما اليابس بطبقة من الدهن ، ونثرا عليه ملحا خشنا . وقال الشيخ فى رضى : « هذا مثال دقيق لغذاء الفلاح ! » .. كان يبدو انه يزداد سرورا ، كلما قل مايقدم من طعام !

وسمح لنفسه بجرعة من اللبن ، استعان بها على ازدراد الخبز . وكان هو الشخص الوحيد الذى يطلب البركة من الله ، فكان يبسط دائما يديه الضامرتين قبل أن يجلس الى المائدة . كما كان بوسع المرء أن يرى انه فى الطفولة ـ منذ سنين عديدة ، بعيدة ـ عرف الجوع ، فسرى فى دمائه احترام النعمة الممثلة فى الخبز !

* * *

◆ **مالبث** « آلتونين » على مر الايام أن اضطلع بمهمة اجتلاب الماء للدار ، ونقل خشب الوقود اليها ، وتنظيف حظيرة البقر كلما انفسح الوقت أمامه . ولم يكن فصل البذر ، الحافل

بالعمل ، قد بدأ بعد ، ولكن ماسمعه من الشيخ عن نوع الحبوب المعدة للبذر ، وما شهده بنفسه فى قيعان صناديق خزن الغلال ، جعله يطيل التفكير .

ولم يتكرر الحديث عن زراعة الخضر . ولكن حدث ذات مساء ، و « آلتونين » منهمك فى تنظيف حظيرة البقر ، أن اقبل ساكن الغرفة الداخلية - كما كان « آلتونين » يلقب زوج المرأة بينه وبين نفسه - فتسلل الى داخل الحظيرة ، محاذرا أن يطأ الروث فى سيره . وكان يحمل بيده عصا غليظة ، راح يعابث بها بطون البقر بطريقة تثير الاستهجان !.. ووجد عناء فى ابتكار مايبدأ به الحديث . وكان « آلتونين » يحك الروث عن الارض ، ويدفعه الى المجراة المعدة لتصريفه ، متظاهرا بأنه لم يكن يراه . حتى اذا اقترب من غطاء المجراة ، سأله الرجل بصوت أجش ، وفى لهجة جمعت بين الرجاء والقحة :

« هل لديك شيء من الخمر يا آلتونين ؟ »

ولم يجبه « آلتونين » ، فدفع الرجل وجهه الشاحب الى الامام ، وقد بدا فى عتمة الحظيرة مائلا الى الزرقة ، وارتجفت ذقنه ، وهو يقول : « احضر لى بعض الخمر اذا ماذهبت الى معمل الالبان فى المرة القادمة يا آلتونين ، وسأنقدك الثمن ! »

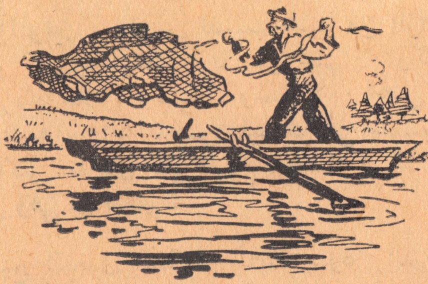
ورفع « آلتونين » غطاء المجراة ، وأخذ يدفع الروث المبتل خلال الفتحة فى حركات بطيئة . وضم الآخر قبضتيه ملوحا بهما فى وقاحة ، ثم التفت خلفه فى وجل ، ليتأكد من أن ليس ثمة من يسمعه ، وهمس : « لسوف أتلقى فى الاسبوع المقبل بعض المال .. أكياسا من النقود !.. اذ كتبت الى المدينة فى طلبها ، فاحضر لى الشراب فى يوم السبت ، امنحك مائة مارك .. بل سأمنحك مائتين يا آلتونين ! »

واهتزت الشوكة التى كان « آلتونين » يحك بها الروث ، وانبعث لها رنين اذ طوح بها بكل قواه نحو ركن مظلم من

الحظيرة ، وصاح : « ياللجرذان اللعينة ! »

وقفز الآخر الى الوراء مذعورا ، ولم يفقه جلية الامر الا حين بلغ وسط المكان . واذ ذاك قال متلعثما وهو يرتجف : « ها .. هل هناك فأر ؟ » .. ثم هوى بعصاه الثقيلة فجأة على ظهر بقرة ، فى عنف ، فترنحت البقرة ومالت بوثاقها .. واذ ذاك غادر المكان .

وانتزع « آلتونين » الشوكة من قائمة خشبية كانت قد انغرست فيها ، وتحسس سنا كسرت منها ، وهو آسف ، ثم اتجه نحو البقرة وأخذ يربت ظهرها فى رفق .. وكانت المسكينة لاتزال ترتجف ، فأحس « آلتونين » بأن يده هى الاخرى ترتجف !



الفصل الثالث

◆ **ذاب** الجليد ، وبدأت أعواد العشب الصغير تظهر في ساحة المزرعة ، وتحول لون أشجار الصنوبر - على حافة الهضبة - الى خضرة مغبرة ٠ وكان الشيخ يجذف وحيدا فى المساء ، فى قاربه ذى القاع المنبسط، الذى كان يذكر «آلتونين» بقصعة العجين ، ثم يطوح بشبكة الصيد عند النقطة التى ينبع فيها الجدول من البحيرة ٠٠ وكان هذا الجدول قد أصبح يجرى دافقا فى قناته الصخرية ، ويصب فى موجات متكسرة مزبدة فى النهر الذى يجرى تحت حافة الهضبة ٠٠ وكان قد جف خلال الصيف السابق ، ولكنه أخذ - فى هذا الفصل من السنة - يجرى فياضا ، مجتازا أشجار الشربين السمراء ، متخللا المرعى الصغير ، والمناطق التى نمت فيها سنابل الشوفان الوليدة

وبينما كان « آلتونين » يرفع السماد الى العربة ، ذات صباح ، أقبل المزارع الشيخ من البحيرة ، يحمل ثلاث سمكات كبيرة ، ربطت بحبل من العشب ٠ كان هذا خير صيد ظفر به حتى ذاك اليوم ، فاذا المظهر المكدود قد زايل وجهه ، بل لقد

بدا على أساريره طيف ابتسامة وهو يقف الى جوار « آلتونين » ويجفف العرق المتفصد من جبينه

وترك « آلتونين » الفرس تصيب شيئا من الراحة ، وقد شعر كما لو كان يستيقظ رويدا من حلم ٠٠ وكأن كل شيء حوله أخذ يزداد جلاء ، وضياء ، وحياة !٠٠ **أحس بأنه ينطلق من أسار نفسه ، وانه يتحرر ليندفع فى سبيل الظفر من الحياة بأكثر مما نال حتى اليوم ، فجعله هذا راغبا فى أن ينصت ، بل وفى أن يتكلم !**

ورفع الشيخ آلنحيل سمكاته٠كانت سوداء اللون تقريبا٠٠ أسماك المياه المعتمة !٠٠ وكشرت كبراها عن أنيابها الحادة ، الوحشية ، مما أوحى الى « آلتونين » بأن البحيرة الراكدة كانت ـ ككل شيء فى الدنيا ـ تضمر فى أعماقها حياة حافلة بالجشع !٠٠ وما لبث أن قال للشيخ متوددا : « انك قدجمعت بهذه السمكات غذاء طازجا يكفى لبضعة أيام ! » ٠٠ وحدق فى عينى الشيخ الخابيتين ، الجاثمتين بين تغضنات وتجعدات مغبرة اللون ، فلاحظ مدى الخوف الذى يتولاه حين يكون جد قريب من شخص غريب !٠٠ على أن احترام كل منهما لصفات الآخر ، وتقديره اياه ، كانا قد قربا بينهما ، رغم الفارق الكبير فى العمر ٠ وكان كل منهما قد خدم هذه الحقول القديمة ، التى كان خصبها يتناقص ، والتى مهدت وحرثت لاول مرة ـ تحت ظلال الصخور الدانية ـ فى عصر سابق !٠٠ كان هذا جل مايربطهما من قبل ، أما الآن ، فكان ثمة صباح صحو ، مشرق ، وكان النهار يبتسم لهما ، وقد توفر لديهما طعام طازج يتغذيان عليه ٠ حتى الفرس العجوز المقيدة بين ذراعى العربة الثقيلة ، لم تلبث أن رفعت رأسها وأخذت تصهل فى رضى !

وقال الشيخ وهو يمس كبرى سمكاته : « ألا ادعنى باسم

هيرمان ٠٠ وما اسمك انت ؟ »
ـ جان !

* * *

• وهكذا لحظات صامتين ٠٠ الشيخ الاعجف ، فى سترته المرتقة، ممسكا بثلاث سمكات سوداء ربطت بخيط من العشب ٠٠ و « آلتونين » ٠٠ نحيل هو الآخر ، ولكنه مستقيم الظهر ، مفتول العضلات ، يستند الى احدى ذراعى العربة، ممسكا بعنان الفرس !

وقال آلتونين : « لن تحظى الحقول بكثير من السماد فى هذا الربيع ! » ٠٠ ونظرا معا نحو الارض المحروثة ، المنحدرة ، حيث تناثرت أكوام ضئيلة من الطمى والروث ، على مسافات متباعدة ٠ وقال هيرمان : « ان التقاوى ضعيفة كذلك ! »

وود « آلتونين » أن يسأل عن السبب فى الحاجز الخفى الذى كان يشعر بأنه يفصل بينه وبين القوم ، كلما أثير أمر شراء شيء ، ولو كان أشد الاشياء ضرورة ٠ ولكنه لم يكن يرى من شأنه أن يسأل ، وانما كان كل شأنه أن يبذل خير ما فى وسعه ، للافادة مما يعطى له ٠ ومن ثم عاد يقول : « خليق بنا، على أية حال ، أن نحصل على سماد كيماوى ٠٠٠ » ٠ ولكنه كبح جماح لسانه فجأة ، فقال هيرمان : « سنحصل على بضعة أكياس من السماد المستخلص من العظام ، ولكن الريح والجو هما اللذان يصلحان المحصول ٠ لقد كنا نسير على مايرام فى الايام الخالية، دون أن تكون لدينا مدارس للزراعة ، أو خبراء ٠٠ حتى أفقر أنواع التربة تستطيع أن تغل محصولا ، لو انها شاءت ٠٠ أما علم البشر فلا يستطيع أن يحول شيئا عن طريقه المرسوم ، ولو كان نسمة من ريح ! »

ومرة أخرى ، وقفا صامتين فى ضوء الشمس المشرقة ٠ وكانت براعم الخلنج تتألق فى ساحة المزرعة بلونها الوردى ٠

وحلق طائر فى أجواز الفضاء ، عاليا ، وهو يرسل صيحات تنم عن ابتهاج • وما لبث « آلتونين » أن قال :

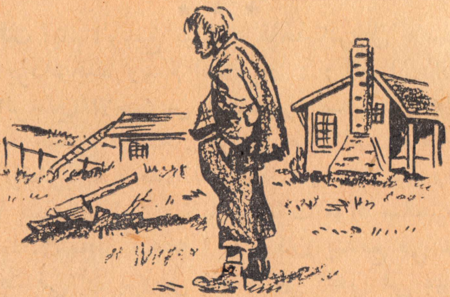
ـ لابد أنك عشت هنا عمرا طويلا يا « هيرمان »

فأجاب الشيخ وهو مستغرق فى التفكير : « هذا صحيح ، وان لم أكن قد قضيت هنا عمرى كله !•• اننى من أسرة مشتتة ، تفرق أبناؤها •• وأنا واحد من آخر من تبقى من الجيل المكتهل فيها ! أما بقية أفراد الاسرة ، فقد نزحوا الى المدينة • ولقد قمت فى صباى بكثير من الرحلات والاسفار ، وعملت حدادا فى مدينة (انجرمانلاند) ، كما عملت ملاحا • وما أن عدت الى هنا ، حتى مات عمى « جوس » وهو فى طريقه لاحضار جواده من المرعى ، وفى وسعى أن أريك البقعة التى عثرنا فيها على جثته • كان مجدا فى عمله ، ولكن قلبه لم يلبث أن ضعف فى النهاية ! »

ولم يقو « آلتونين » على كبح جماح سؤال قفز الى لسانه ، فقال وهو يهز رأسه فى ايماءة نحو البيت : «وهذا الرجل؟» •• واذا بسحابة غائمة تخيم على وجه الشيخ فتطرد الابتسامة عنه • وبدا عليه التردد ، ثم قال فى تؤدة ، وهو يزن كل كلمة يلفظها : « هذه ثالث سنوات اقامتهما هنا • وكان يملك المزرعة قبلهما رجل آخر •• لم يكن من أهل هذه البطاح • كلهم سواء لدى ، فليس يعنينى من الذى يمتلك المزرعة ،طالما كنت أحصل على عيشى ، وعلى تلك الحجرة التى فى نهاية الردهة ، حيث أنام !•• على اننى لم أعد أقوى الآن على العمل الشاق ، اذ لا ألبث أن أجدنى مضطرا الى الكف عن الحرث ، ولما ينتصف النهار ، وأروح أعانى آلاما مبرحة فى صدرى ! »

وعاد « آلتونين » الى الموضوع الذى كان يهمه ، فقال : « هل هما من أهل المدينة أصلا ؟ » •• ولكن الشيخ لم يجب عن السؤال مباشرة ، وانما قال :

ـ ان الرجل ـ واسمه « الفريد » ـ يرتبط بالاسرة التى



كانت تمتلك المزرعة،من ناحية أمه٠وهم يقولون انه مهندس٠٠ لست أدرى ، لعله كذلك ! ٠٠ اننى مازلت أذكر تماما قصة عن جدته لامه ٠٠ فقد فرت من دار زوجها ، ولاذت بدار أبويها ـ هنا ـ مصطحبة طفلها ٠٠ وماتت هنا !٠٠ وجاء زوجها ، وكان رجلا سكيرا ، ليشيع جثمانها ٠ وكان التابوت قد ترك مفتوحا فى سقيفة البقر (أى المكان المسقوف الذى تأوى اليه البقر محتمية من الشمس) ، بعض الوقت ، ففاجأت أمى الرجل وهو يحاول أن ينتزع خاتم الزواج من أصبع زوجته الميتة ٠ وما لبث أن اختفى فى مكان ما فى روسيا ، فلم يسمع أحد عنه نبأ بعد ذلك ٠ ولكن نسله بقى ، وانتقل دمه الى عروق ذاك الرجل ٠٠ الفريد !

وكان « هيرمان » يسرح بصره نحو البحيرة ، وهو يتكلم ٠ كان ذلك الرجل كهلا شديد التحفظ ، وقد حدس « آلتونين » انه ندم على تماديه فى الكلام الى هذا الحد ٠ وما لبث «آلتونين» أن قال وهو يتحول الى عنان الجواد : « حسنا ٠٠ لقد ارتفعت الشمس فى كبد السماء » ٠٠ ويمم « هيرمان » الى البيت ، حاملا سمكاته

* * *

◆ **وتوالت** أيام الربيع تباعا ، فأخذ الرجل « ساكن الغرفة الداخلية » يزداد قلقا وعدم استقرار . وكان اذ ذاك يخرج للعمل مع الرجلين الاخرين ، فينشر السماد على الارض ، ويجتث بقايا جذوع الاشجار من الارض المستصلحة حديثا ، والتى كان يفخربأنه وحده الذى أزال عنها الاشجاروالاعشاب! . وكان لايفتأ يسب ويلعن ، لانه لم يؤت مواد متفجرة تغنيه عن اجتثاث بقايا الاشجار بيديه !.. وكان يندفع فى عمله متعجلا، فلم يفلح قط فى أن يروض نفسه على المضى فى مهمته بالبطء والتأنى المعهودين في الفلاحين !

وكان ـ فى بداية ممارسته لمهمته هذه ـ يمضى فى جد وكد لبضع ساعات ، وقد غرق وجهه وعنقه فى فيض من العرق ، فلا يلبث أن ينضو عنه قميصه . ثم يلقى من يديه ـ فجأة ـ كل شىء ، ويستلقى متمددا على الارض !.. وكثيرا ما كان يبتدع علة تبرر توقفه عن العمل : فكان أحيانا يكسر يد « المعزقة » ، وأحيانا يوجه سن الفأس خلسة الى حجر ، وذلك ليلقى تبعة تعطله على الادوات ، ثم يشرع فى قذف الدواجن السارحة على السفح بالاحجار وقطع الخشب !

أما فى الامسيات فكان يتسكع متلكأ فى فناء مبنى المزرعة ، والبنايات الملحقة به ، وعيناه تومضان ببريق مستعر . ويروح يتردد على البئر مرارا ليشرب ، أو يجلس الى جوار مخزن الغلال ، ويسرح بصره نحو القرية يتأملها فى امعان .

واستيقظ « آلتونين » من نومه ذات ليلة على أصوات وطرقات على أحد الابواب . فرفع نفسه عن سريره مستندا على مرفقيه ، وقد توترت أعصابه ، وراح قلبه يدق فى عنف . ثم تبين أن الرجل كان يحاول الخروج من « قفصه » .. فقد حبسته المرأة في مخدعه ، مغلقة الباب المفضى الى مخدعها ، ومن ثم أخذ يدق الباب ويركله ، وهو يسب ويصخب ، وان جهد فى أن يخفض

من صوته ، كما لو كان حريصا على أن لايوقظ الآخرين !

وسمع « آلتونين » المـــرأة تنهض من سريرها ، فتتكلم الى الرجل الثائر خلال الباب،وان لم يستطع أن يستبين كلماتها • وفجأة ، انبعثت جلبة كقصف الرعد من الحجرة التى فى نهاية الردهة ، واذا « هيرمان » يدق جدار حجرته بقبضة قوية ، ويصرخ بصوت بلغ من ارتفاعه أن وصل الى حجرة آلتونين : « كفى ضجة ، والا أتيتك بهراوة ! » •• فساد السكون فجأة ! •• بيد ان « آلتونين » مكث فترة مستيقظا ، منتبها ، مصغيا • وحاول أن يقنع نفسه بأن الامر لايهمه وليس من شأنه ، وأن أحدا لم يستعن به ، بل لم تكن ثمة حاجة الى معونته •• ولكنه أحس مع ذلك بشعور مبهم ، غامض ، يوحى اليه بأن الامر يهمه ، بل هو من أوثق شئونه !•• وكاد يخامره الخوف من أفكاره ، اذ أن خفقان قلبه •• ذلك الخفقان العنيف المرتاع ، كان يؤكد له ان الامر من صميم شئونه !

* * *

◆ **وفى** الايام التالية ، بدت المرأة شديدة القلق والانفعال ، وقد وشى بذلك ما انتاب حركات يديها من اضطراب ، وماتبدى فى نظرات عينيها من توجس ، ومن استغاثة صامتة !•• بيد انه لم تكن ثمة من وسيلة للتفاهم معها،وبالتالى ، لم تكن ثمة سبيل لاى غريب كى يساعدها • كانت الكلمة الواحدة خليقة بأن تجعلها تشد أعصابها ، وتلوذ بالتحفظ والجمود !

وغشيت فؤاد « آلتونين » عاطفة دافئة مثيرة للشجن ، وهو يرقب ـ من طرف خفى ـ مخدومته العجيبة الاطوار ، من المجلس الذى اختاره لنفسه على المقعد الطويل المجاور للجدار ، بعد العشاء • فلقد عرف « آلتونين » الالم والعذاب ، وان تعلم على مر الزمن كيف يحول فكره عنهما • وعرف السهاد كذلك، فقضى الليالى مستيقظا ، وقضى النهار حزينا آسيا • وكان

العذاب يوحي اليه أحيانا بالعنف ، بل وبالقتل !.. وكانت هذه الخبرة كفيلة بأن تمكنه من أن يساعد المرأة ، لو أنه وجد الى تلك المساعدة سبيلا .. ولكنها كانت تؤثر العذاب وحيدة، وترغب فى وحدتها هذه !

ولقد بحث معها أهم اللوازم التى تمس حاجة المزرعة اليها ، وكانت الحقول قد حرثت ، وقلبت تربتها ، وجثمت فى انتظار التقاوى .. ولكم كانت هذه الحقول الضعيفة ، المنهوكة القوى، صابرة فى انتظارها !.. كانت الارض العتيقة تترقب الحبوب، والمطر ، والريح !.. ولكن تقاوى الجودار كانت هزيلة، لاتقوى على الانبات . وكان لابد من زراعة بعض الاعشاب لمساعدة المرعى الفقير ، والا فلن يكون ثمة لبن فى ضروع البقر فى الصيف . كذلك كانت الحاجة تدعو الى استنبات المحصولات الدرنية لتغذية الماشية ، وللبيع أيضا ..

كل هذه الامور بحثها « آلتونين » مع المرأة ، ولكنها كانت تكتفى بأن تهز رأسها . وبالرغم من كل المظاهر التى كانت تنم عن شممها وكبريائها ، فقد كان يحيط بها جو يوحى بأنها عاجزة ، مستضعفة ، قانطة !.. وأدرك « آلتونين » فى النهاية حقيقة الموقف ، فقال وهو يحاول أن يبث صوته رنة أمل لم يكن يستشعره : « حسنا ، لعلنا نستطيع رغم كل شىء . ان نفعل كل ما نبتغي فعله ! »

وتطلعت اليه المرأة اذ ذاك ، فاستطاع أن يلمح شيئا من اللين يغزو أسارير وجهها . ولكنها لم تبتسم .. بل انه لم يرها - منذ وفد على المكان - تبتسم !.. كان المكان بأسره كئيبا ، متجهما : البحيرة بمياهها القاتمة ، والسفح، والمرتفعات الصخرية ، والحقول العتيقة المترامية تحتها ، والفرس البيضاء العجوز فى الحظيرة . . كان ثمة شىء فى كل هذه يخنق الابتسامة ، ويخيم على اشراق أيام الربيع . ومع ذلك ، فما زالت السماء تبدو خلال باب الدار عالية .. بل أكثر ارتفاعا

مما تبدو فى القرية ٠٠ وأكثر ارتفاعا مما تبدو فى المدينه ٠٠ وأكثر ارتفاعا مما تبدو فى البقاع المنبسطة التى تنمو فيها أشجار الصنوبر ، وتقوم بيوت العمال محيطة بالمصنع !٠٠ ولم يدر « آلتونين » كيف تسللت هذه الصورة الاخيرة الى ذهنه، فما كان راغبا فى أن يتذكرها ٠٠ على أنها لم تعد تثير الالم فى نفسه ، وكأنما مات جزء من هذه النفس فأصبح لايحس بالالم !٠٠ كان يدرك أن هذه الذكرى لاتزال قابعة فى أعماقه، ولكنها كانت ميتة ، ولن تلبث ــ على مر الزمن ــ أن تهوى من مجثمها ، وان تضيع فى ادراج النسيان الى الابد ٠٠ وكان فى هذا كل الخير !

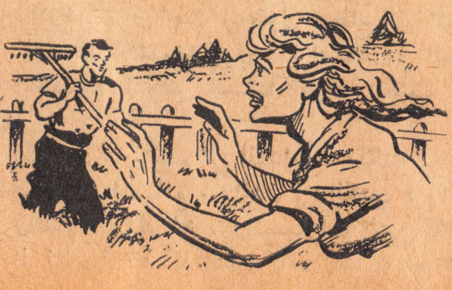
★ ★ ★

◆ على أن الاحوال كانت قد بدأت تتحسن بعض الشىء فى المزرعة ، رغم ذلك : فأقبل القصاب يسعى لشراء العجل الصغير، وأصبح ثمن اللبن يزيد فى كل شهر عما كان يتكلفه غذاؤهم منه ، وابتيعت التقاوى التى كانوا فى حاجة ماسة اليها ، وراح « هيرمان » يقلب صفحات التقويم الصفراء البالية ، ليدرس مواعيد تطورات القمر ، ويستنتج منها خير الاوقات مناسبة للبذر ٠ وكان يقول كلما اشتد ملل آلتونين : « لم يؤن الوقت بعد ! » ٠٠ وكانت الايام شديدة الحر ، وقد أخذت الخضرة تكسو وجه الارض ، وراحت الحقول تتطلع الى البذور ٠٠ ومع ذلك ، فقد ظل الشيخ يقول : « أعتمد على القمر ، فانه يعرف عن المحصولات أكثر مما تعرف الكتب ٠٠ ويعرف الخبراء ! »

وكان « آلتونين » يبتسم فى البداية ، ولكنه لم يلبث بدوره أن أخذ يحس بأن المصانع ، والمدن ، والكتب ، والجامعة ، والتعليم ، والعلم ، والمذياع ، والسيارات التى كانت تتسابق على الطرق الرئيسية ٠٠ كل هذه كانت أشياء غير حقيقية ٠٠

بل أشياء فانية،اذا قورنت بالارض !.. وكان الشيخ الطاعن ، المتغضن الوجه ، يلوح له ـ وهو يقلب صفحات التقويم العتيق ـ مليئا بحكمة خفية .. حكمة غامضة مستمدة من الارض، والقمر، والشمس .. حكمـه يجب أن تغيض ازاءها كل الابتسامات الساخرة ، المستهزئة !.. والا ، فما الذى حدد مجارى الميـاه المختفيه فى أحشاء الارض ؟.. وما الذى بث الحياة فى الحبة الجامدة فجعلها تنبت ؟.. لم يكن « آلتونين » يدرى . ولـكن « هيرمان » لاح وكأنه يمتلك ناصية السر ، فقد كان أقرب منه الى الارض !!

وما لبث الرجل الذى كان يقيم فى الغـرفة الداخليـة أن اختفى ، ذات يوم !.. وعندما عاد « آلتونين » من الحقـول ، حوالى الغروب ، هرعت المرأة الى لقائه فى فناء الدار ، ويداها نصف مبسوطتين ، وصوتها مختلف عن طبيعته ، اذ بدا حادا ، جزعا .. فقد انزاح الحاجز الذى كانت تخفى وراءه نفسها ، ففقدت سيطرتها على هذه النفس لحظة ، وهتفت ملهوفـة : « آلتونين ، هل رأيته ؟ » .. ولم تكن تذكر الرجل باسمه على الاطلاق، بل تشير اليه بضمير الغائب : « هو » ، أو « ذاك » ، مع ايماءة من رأسها نحو غرفته !



وكانت قد عادت منذ قليل من القرية ، حيث قضت ساعتين في شراء بعض الحاجيات . وأجابها « آلتونين » وهو يرمقها في اشفاق حزين : « انني لم أره طيلة اليوم »

وأحس أن في الامر شيئا .. شيئا يبعث على القلق ، ولكنه لم يشأ أن يوجه أسئلة لاحاجة به الى توجيهها !.. وأقبل الشيخ من مخزن الخشب وبلطته لاتزال في يده . ولم يوجه بدوره أى سؤال ، وانما اتجه مباشرة الى الدار ، فتبعه « آلتونين » بعد تردد قصير ، تاركا المرأة في الفناء

واتخذ الشيخ طريقه الى مخدع المرأة ، فاذا باب الغرفة الداخلية مفتوح ، وقد انتزعت اللوحة المعدنية التي تغطي لسان القفل من الداخل ، فبدا الخشب تحتها أبيض بغير طلاء . وكان الدرج العلوى من الصوان القائم في مخدع المرأة قد اغتصب بالطريقة ذاتها ، وترك نصف مفتوح .. وكانت الاوراق التي يضمها باقية على حالها ، ولكن الصندوق المعدني الذي كانت النقود تدخر فيه خلا من محتوياته .. وكانت آخر مرة أخرج فيها هذا الصندوق من مكانه ، يوم جاء القصاب الى المزرعة لابتياع العجل

وبدا وجه هيرمان الشيخ صارما ، قاسيا .. وقال في لهجة من يقرر أمرا واقعا : « لابد انه أخفى المطرقة والازميل في غرفته ، وتربص حتى سنحت الفرصة ليفعل هذا . لقد كنت في دهشة أمس من اختفاء مطرقتي ، وحسبتك قد استعرتها . على أية حال ، ليس ثمة مانستطيع أن نفعله الآن ! »

على أنه كان يتكلم في هدوء ، دون أن تعترى وجهه اختلاجة واحدة ، وان راحت يده تهتز وهي قابضة على البلطة . ولعله ما أحضر هذه البلطة الا متعمدا ، ولغرض !.. فمن بواعث التسرية والعزاء ، أن تشتد قبضة المرء على شيء صلب ، مألوف ، عندما يكون ذهنه يعاني ثورة أو حيرة ! .. ومرة أخرى ، أحس « آلتونين » بوجيب قلبه يتتابع في عنف وشدة .

وتساءل فى صوت خفيض ، وكأنه يأمل أن يكون النحس الخفى قد فك قبضته - بهذا الحادث - عن الدار : « أتراه سيعود ؟ »

فأجاب الشيخ في اقتضاب وهو يعود الى حجرة الجلوس : « ان الدراهم الرديئة تعود دائما ! » .. فليس هناك من يحرص على ادخار العملة الرديئة ، ومن ثم فهى ترتد دائما الى التداول! (وتلك قاعدة مقررة فى علم الاقتصاد !)

* * *

• **وذهب** « آلتونين » لينظف حظيرة البقر ، فمر فى طريقه بالمرأة - فى فناء الدار - دون أن يوجه بصره نحـوها . ولكنه سمع أنفاسها تتتابع فى شدة ، وبغير انتظام . وكان ذلك أسوأ من أى أنواع البكاء .. اذ كان ألمها أقسى من أى الم تخفف الدموع من وطأته !.. وأحس « آلتونين » بأن هـذه الانسانة تناضل - في الفناء الساكن - لتصون روحهـا من الانهيار !.. كانت الكبرياء ، والكراهية ، والشـعور الحى النبيل بالواجب ... كانت هذه الاحاسيس كلها تتصارع مع ماتبقى فى كيانها من ضعف الانوثة ورقتها !.. لذلك كان خليقا بأى غريب أن يبتعد ، وأن يظل فى الحظيرة بعيدا عنها ، وسط الابقار الدافئة ، المتهدجة الانفاس !.. وحز فى نفس «آلتونين» أن شهد هذه اللحظة من لحظات الضعف والهوان !

وفكر « آلتونين » - للحظة وجيزة - فى أن يندفع الى محطة سكة الحديد ، مجتازا أوعر الصخور ، ليبلغ المحطة من أقصر طريق .. أو أن يهرع الى أقرب طريق رئيسية تجرى فيهـا الحافلات (سيارات الاتوبيس) . ولكنه ما لبث أن ادرك ان هذا لن يجديه فتيلا . **وداخلته رغبة طاغية فى أن يقوم بعمـل ما .. لم يكن فى الوجود ماهو أقسى على قلبه من تلكما اليدين - يديها - وقد تخاذلتا الى جانبيها .. ولا من تلك الهـزة**

اليائسة التى انتابت رأسها ٠٠ ولا من تلكما العينين اللتين أغمضتهما لتخفى لوعتها !

وتلكأ « آلتونين » فى الحظيرة الى أن هبط المساء ، واشتدت الظلمة ، دون أن يوقد المصباح ٠ ثم ثاب الى وعيه ، واذ ذاك فقط ، مضى الى الدار بخطى متثاقلة ٠ وكان النور ينبعث من النافذة ، والغذاء « البائس » قد وضع على المائدة ٠ وعاد كل شىء الى مجراه المألوف ، فجلس ثلاثتهم يتناولون عشاءهم فى صمت وسكون

وفى اليوم التالى أصلح « هيرمان » باب الحجرة الداخلية ، وثبت قفلا جديدا متينا فى مكان القفل التالف٠وأقبل القصاب فى اليوم الثالث ، فتسلم العجل الذى كان قد ابتاعه ، وأوثق قرنيه بحبل ربطه خلف عربته ٠٠ واقتيد العجل الى خارج المزرعة ، وهو يقاوم ، ويخور فى أنين حزين !٠٠ وكان لابد من دفع ثمن التقاوى ، ولكن ٠٠ أين المال وقد ذهب ما كان مدخرا فى الصندوق ؟٠٠ وما العمل ولم يكن من المألوف اقراض التقاوى لاهل المزرعة ، على الحساب ، كما تبين « آلتونين » ؟٠ لذلك لم يكن ثمة بد من صم الآذان عن خوار العجل!٠٠وقالت المرأة وهى ترمق « آلتونين » فى جأش رابض : « لم يكن منتظرا أن يغدو عجلا قويا ، نافعا ! »

وكان كل منهما يدرك مجافاة هذا القول للحق ، ولكن « آلتونين » لم يعقب عليه بشىء ، وانما فك السلسلة التى كانت تشد العجل الى مذوده ، والتى لم يعد لها أى نفع ، ثم غادر الحظيرة

وتتابعت الايام حتى بلغ الاسبوع نهايته ٠ وتم بذر تقاوى القمح الربيعى والجودار ٠ ولم تكن هناك آلة للبذر ، ومن ثم كان « هيرمان » يروح ويغدو ــ خلال الحقول ــ حاملا سلة بالية يغترف منها الحبوب لينثرها على الأرض المحروثة ٠ ولم تبد على أحدهم أية رغبة فى الكلام ، فى تلك الايام ٠ كانت

كل مباهج الموسم والآمال السعيدة التي اكتنفته،قد تبخرت ! على أن ثمة نوعا آخر من الاحداث المرتقبة شغل بالهم ، وان لم يقل أحد منهم شيئا عنه !

★ ★ ★

◆ **وما** لبثت أن أقبلت المرأة يوما تستدعى « آلتونين » من الحقول . وكان الجو باردا ، اذ هبت ريح قوية من الشمال ، فاثارت الاضطراب فى ماء البحيرة الاسود

وسارت المرأة فى تؤدة عبر الحقل المحروث ، فكف «آلتونين» عن الحرث في انتظارها . وغاص قلبه بين جنبيه فى توجس ، اذ لم يسبق أن سعت اليه أثناء الحرث !

ووقفا وجها لوجه ، وسط الحقل الذى كانت الريح تهب عليه في قوة . وراح كل منهما يحدق فى عينى الآخر . وظلت المرأة رافعة الرأس ، لاتحول عينيها عنه ، رغم ماكانت تفيض به نظراتها من شعور بالهوان ! .. ونسى « آلتونين » ـ وهو يتأملها ـ الحرث ، والحقل ، بل وماضيه ! .. كانت تقف أمامه منتصبة القامة ، وشعرها الجميل يندفع الى الخلف مع الريح التى أخذت ترطب وجهها بلمستها الباردة . وكان قميصها مفتوحا عند نحرها ، فكشف عن لمحة من البشرة الناصعة البياض ، تحت رقبتها التى أكسبتها الشمس لونا أسمر ! .. كانت قوية ، مستقيمة الظهر . ولاحت لعينى « آلتونين » جميلة فى أساها ، وكبريائها ، وشجاعتها ! .. **وكان يسمع ، فى نظراتها ، نداءها له ، فاذ برجولته ـ بكل مارافقها من انكار للنفس ، ووفاء ـ تستجيب للنداء دون ماتفكر في جزاء .. بل دون ماطمع فى صداقة ، أو .. حتى فى كلمة رقيقة ، فى مقابل هذه الاستجابة !**

وتكلمت أخيراً ، فقالت : « هل لك فى أن تذهب مع العم

هيرمان الى القرية ياآلتونين لتحضرا زوجى ؟ ٠٠ لقد أبلغونى أنه هناك ٠ و ٠٠ مهما يكن من شىء ، فانه زوجى ! »

وكان « هيرمان » فى انتظاره فى الفناء ، متأهبا للانطلاق الى القرية ، وقد ارتدى ثياب النزهة ـ التى اعتاد ارتداءها فى أيام الآحاد ـ وقبعة سوداء من طراز عتيق ٠ ولما عادت المرأة الى البيت ، قال الشيخ لآلتونين : « لقد أرسلوا فتاة من القرية لتقول ان الرجال ظلوا عاكفين على الشراب فى مزرعة (يلاتالو) طيلة الليل ، وكان لدى « الفريد » قدر من البراندى حصل عليه من المدينة ٠ ان بينهم اثنين من قاطعى الاخشاب،وصاحب المزرعة ، وزوجته التى تريد ابعاد « الفريد » عن المكان ٠ ومن أجل هذا بعثوا بتلك الفتاة ٠ على أننا قد نلاقى منهم عناء،لاننى سمعت انهم فى حالة سكر صاخب ! »

وتحسس « آلتونين » حزامه ، ولكن الشيخ قال له : « دع سكينك هنا ٠٠ ولكن قد يكون من الافضل أن تتخذ لك عصا من أغصان السياج أثناء سيرنا ٠ أما أنا ، فسوف أدس هذا فى جيبى زيادة فى الحيطة ! » ٠٠ وفك أزرار سترة النزهة ، وسحب من صدره مسدسا من طراز عتيق ٠ وتراقصت على وجهه الجامد الاسارير إبتسامة واهنة ، وهو يمضى فى حديثه قائلا : « لقد تعلمت كيف أستخدم هذا عندما كنت أعمل فى البحر ٠ وعلى الرغم من شيخوختى ، فلن يستطيع أى رجل أن يصرعنى بمفرده ! »

وانطلقا جنبا الى جنب فى الطريق المفضية الى القرية ٠ وعندما تواريا عن مرمى البصر من دار المزرعة ، وسعا من خطواتهما فى انسياق طبيعى لم يتعمداه ٠ وما لبثت أنفاس الشيخ أن تهدجت ، واحمر وجهه قليلا ، وارتد الى عينيه قبس من حمية أيام الشباب الاولى٠فلقد انقضت فترة الانتظار التى كانت تثقل على نفسه ، وحان أوان العمل! ٠٠ **كذلك خامر « آلتونين » شعور جعله يمد قامته ، ويبسط صدره ٠٠ بل**

جعل كل كيانه يمتد ويتضخم ، وقد آن له أخيرا – بعد أن قبع طويلا في ظلمات الريب والهواجس غير المجدية – ان يبرز الى أضواء العمل !.. الآن اتضح له كل ما ينبغى أن يفعل .. يجب ان يعود بالزوج ، لان الزوجه سألته أن يعيده .. وان سؤالها لأمر لن يتردد فى أن يصرع كل من يقف فى سبيل تنفيذه !

* * *

• **وهكذا** سار الرجلان ، جنبا الى جنب ، حتى وصلا الى الطريق الرئيسية ، فمضيا فى خطوات ثابتة ، متزنة ، وهما صامتان .. وقد نم انتفاخ صدريهما ، وانبساط كتفيهما ، عن عزم وتحد قويين !.. ولمحتهما وجوه غريبة عنهما ، خلال نوافذ المكان الذى يقصدانه ، ثم أسرعت ترتد عن تلك النوافذ . وتراءت لهما المزرعة أخيرا ، والى جانب مخزن الغلال ، ظهرت عجوزان تتحدثان وتطلان داخل المخزن ، ولكنهما لاذتا فجأة بدار المزرعة فتواريتا فيها ، حين اقترب « آلتونين » و « هيرمان » !

واستطاعا – اذ اقتربا – أن يسمعا الصخب والصياح . كان السكارى يلعبون الورق داخل المخزن ، ويغنون، ويشربون، على طريقة الحطابين اذا ماخلوا الى أنفسهم فى الغاب !.. وتقدم « هيرمان » من الباب المنخفض ، وأطل الى الداخل متلفتا يمنة ويسرة ، ثم صاح فى غضب : « اخرج من هنا يا ألفريد ! »

وسكتت الاصوات فجأة ، فلم يسمع شىء للحظة . وعاد الشيخ يقول : «هيا اسرع .. انطلق الى البيت !» .. وكانت فى صوته رنة جعلت الكلمات تبدو كاللكمات ، فود «آلتونين» هو الآخر أن يلكم شيئا !.. لقد ظلت هذه الرغبة تتضاعف فى نفسه منذ أيام طويلة وأسابيع .. فان المرء يجتاز أحيانا فترات ، يكون من الخير له – خلالها – ان يكيل اللطمات ..

وأن يكيلها فى قسوة وقوة !٠٠ ولا يهم اد ذاك شخص غريمه ٠ ليكن حطابا ، أو فلاحا ثملا ٠٠ او فأرا يطيب لامرأة معينة أن تصفه بأنه زوجها !

وانبعث من الداخل صوت يصيح : « من ذا الذى يصرخ هناك ؟ »

وظهر فى فراغ الباب شخص قذر الشكل ، مشعث الشعر، محتقن العينين ، فارتد « هيرمان » الشيخ حتى صار بجوار آلتونين » ، اذ كان من الغباء أن يدخل المخزن فى حين ان العراك فى الفضاء أيسر !٠٠ وصاح واحد من قاطعى الاخشاب: « ألا انظروا يا أولاد ما أنا فاعل ! » ٠٠ ودلف فى خطى مترنحة نحو الباب ، ثم انفلت الى الخارج ٠٠ ولاح كأن صاحب المزرعة يحاول أن يستبقي الآخرين فى الداخل ، ولكن السكارى الاربعة لم يلبثوا أن اجتمعوا فى الخارج ٠ وتصلبت أطراف « آلتونين » فى غضب مكظوم ، حين رأى بينهم الرجل ذا الوجه اللين ، وقد ازرق لونه حتى شفتيه ، ولمع فى عينيه وميض مجنون ، بينما أخذت عضلات خديه فى الاختلاج ٠ وكان بغير قبعة ، ولا سترة ، كما كان حافى القدمين ، قذرهما ، وقد أصاب أحد كمى قميصه قطع ، وبدت أطراف الكمين سوداء لفرط ماتراكم عليها من بقع الشراب ٠ ٠ كان كل مايحيط به يوحى بالقذارة ، والتقزز ، والعفن ٠ ٠ وكأنه رمة تعيث فيها الديدان !

وعاد « هيرمان » يستحثه قائلا : « هيا الى البيت ياألفريد! »

ولاح عليه ـ للحظة ـ وكأنما سنوات الاستخذاء والخنوع تحثه على الطاعة والانصياع ، فنكس رأسه كالكلب ، وشحب وجهه وانحسر عنه لونه الازرق ، ثم خطا الى الامام ٠ ولكن واحدا من قاطعى الاخشاب ألصق راحته بوجهه ودفعه الى الخلف ، فارتطم بالجدار ٠٠ وصاح قاطع الاخشاب :

– ما الذى يستحثك على التعجل ؟.. لاداعى للعجلة .. لابد من تسوية الحساب أولا !

وهنا تقدم صاحب المزرعة نحو « آلتونين » وقد احتقن وجهه بتأثير الشراب والغيظ ، وصاح : « ما الذى أوحى اليكما بأن تقتحما مزرعتى ؟ » .. وكان يعرف « هيرمان » ، ولكنه تجاهله ووجه الخطاب الى « آلتونين » . ولكن هذا التجاهل لم يحرج الشيخ ، فتقدم فى تجهم ، وهو يفك أزرار سترته ، وقال : « جئنا لنأخذ ألفريد الىالبيت .. وانت تعرف كيف نأخذه !». فاعتدل قاطع الاخشاب الثانى ، وشد من قامته ، ثم خطا الى الامام ، قائلا : « فى وسع الرجل أن يتولى شأن نفسه .. أليس كذلك يا ألفريد ؟ »

وكأنما شجع هذا القول « ألفريد » ، فحاول بدوره ان يشد من قامته ، وصاح : « أجل ، سأتولى شأن نفسى . . وليذهب الاجيران فى مزرعتى الى الجحيم ! » .. وهتف قاطع الاخشاب الذى كان قد خرج من المخزن فى البداية : « اذن فالزوجة الطيبة مشوقة الى من يدفىء لها فراشها . . ه ؟! » ..وراح يقهقه

وعند هذا الحد ، بدأ « آلتونين » مهمته . فوجه لكمة



بيسراه الى مابين صدر الرجل وبطنه ، وبينما انثنى الرجل الى الامام شاحب الوجه ، سدد « آلتونين » يمناه الى حافـة الفك ـ عند الذقن ـ فارتد العنق الى الوراء فى عنف ، وطار الرجل بأكمله فى الهواء حتى ارتطم بجدار المخزن ٠٠ ثم ارتمى على الارض وهو يتنفس فى عناء ٠ واذ ذاك بادر صاحب المزرعة الى العودة لفناء داره فى عجلة ، وهو يكبح نفســـه عن الجرى ٠ وتبدى الجبن والخوف على « ألفريد » ، ولكن قاطع الاخشاب الثانى راح يصرخ ويصخب ، وقد وقف متحفزا للانقضاض ، مشهرا سكينه ٠ واذ هم بأن يغيبهـا فى جسم « آلتـونين » ـ فى غفلة من هذا ـ اذا بهيرمان يهوى بهراوة على اليد الممسكة بالسكين ، فسقط السلاح ، وهوى الرجل الثمـل الى الارض متدحرجا ٠ وفى رباطة جأش ، مد « آلتونين » قدمـــه فداس السكين ، ووقف ساكنا ، ينتظر

وفجأة ، أخذ الرجل المدعو « ألفريد » يطـوح بذراعيـــه ، ويصرخ ، فى صوت كالعواء ، ذى رنة طويلة ٠ كان الفزع قد طاش برشده ، فمضى يصرخ ويضرب كل ما كان حوله ، وهـو يرتعد ، وقد سال اللعاب من بين شفتيه الزرقاوين ٠٠ وتحول كل امرىء ينظر اليه ، ونهض قاطع الخشب فى بطء فاستوى على قدميه وقد نسى ألم يده ، والسكين ، وهتف فى دهشـة : « ما الذى دهاه بحق الشيطان ؟ »

وزمجر « هيرمان » ثم صاح فى صوت قاصف ، وقد احتقن وجهه ، اذ شعر بالخزى أمام أهل القرية لعواء ذلك الرجل : « كف عن هذا العواء ، وهيا الى البيت ! » ٠٠ ولكن الجلبـة ظلت منبعثة ، ففقد الشيخ رزانته ، وارسل هراوته فى الفضاء ، فمرقت الى جوار أذن الرجـل الذى كان يعـوى ، واذ ذاك ، تهالكت تلك الفضلة الآدمية المهلهلة على الارض ٠ وازداد عواء المسكين حيوانية ، وأخذ يركل ، ويناضل ، والزبد ينســاب من فمه ٠ وما لبث أن أخذ يصرخ دون توقف ، بصوت حاد ،

نافذ ، كعويل المرأة اذا دهمها خوف قاتل !

وصاح قاطع الاخشاب مبهوتا : « رحماك يارب ! » ٠٠ كان قد أفاق بعض الشيء من سطوة الخمر ، فثقل ذلك الصراخ على أعصابه ٠ وتقدم « هيرمان » فقلب الرجل التعس على وجهه ، وثنى ذراعيه خلف ظهره ، وقال لآلتونين : « ادفع بقطعة من القماش في فمه ٠٠ وانت (موجها خطابه لقاطع الاخشاب) ٠ اذهب فاحضر دلوا مليئا بالماء ، واسكبه عليه ، لعله يكف عن هذا الصراخ ! »

وتردد قاطع الاخشاب ، ثم انطلق هابطا سفح التل ، بينما انتزع « آلتونين » قطعة قماش قذرة ، بالية ـ كانت تسد ميزاب مخزن الغلال ـ فدفعها في الفم الفاغر ، وهو مشمئز ، متقزز ٠ وهز الرجل رأسه ، ثم مد فمه الى الامام محاولا ان يعض يد « آلتونين » ٠ وراحت عيناه المحتقنتان تجولان في محجريهما ، في حركة مجنونة ، والعويل مايزال ـ برغم السدادة ـ ينبعث قويا من حلقه بطريقة غريبة ، وقد تحول الى صراخ رهيب ، خشن ، غير طبيعي !٠٠ وان هي الا لحظة ،حتى ازرق وجهه ، فقال « آلتونين » متوجسا ، خائفا : « ربماكانت السدادة تحبس أنفاسه ! »

وواتاه الرد من « هيرمان » هادئا ، وهو يثني ذراعي أسيره مرة أخرى : « انه لن يلبث أن يكف سريعا ! » ٠٠ وفي تلك اللحظة أقبل قاطع الاخشاب عائدا بدلو ملأه ماء من البئر ٠ وكان زميله ـ الذي فقد وعيه اثر وقوعه بجوار مخزن الغلال ـ قد أفاق وجاهد حتى استوى جالسا ، ونهض على قدميه،فحك رأسه ، ثم عاد الى داخل المخزن في خطى مترنحة٠ وكان الرجل الذي في قبضة « هيرمان » ـ أي « ألفريد » ـ قد بدأ يفقد وعيه ، فأطلقه الشيخ من قبضته ، وجذب السدادة القذرة من فمه ، ثم أجلسه ، وألقى بمحتويات الدلو على وجهه الازرق اللون ، المختلج الاعصاب

وأعقب ذلك صمت شامل ٠ ثم رفع الرجل يديه والماء يقطر منهما ، وحاول فى اعياء أن يمسح وجهه ٠ وكان قاطع الاخشاب الذى صرعه «آلتونين» فى البداية قد زحف الى خارج مخزن الغلال ثانية ، وجلس على قمة الدرجات المفضية الى المخزن ، وراح يهز ساقيه ، وفى يده زجاجة ملأت الخمر نصفها ٠ ولوح بالزجاجة الى آلتونين قائلا فى احترام وتملق : « تعال فخذ جرعة !٠٠ انها خمر قوية ! » ٠ ولكن « آلتونين » هز رأسه دون أن يجيب

ولم يعثر على أثر لقبعة « ألفريد » ولا لسترته ! ٠٠ أما الحذاءان ، فكان أحد قاطعى الاخشاب قد دسهما فى كيس متاعه ، مصرا على ان « ألفريد » خسرهما فى لعب الورق ٠ بيد انه لم يلبث أن ردهما فى النهاية ، وهو مغلوب على أمره !

★ ★ ★

• **وأخيرا** ، شرعوا فى العودة:هيرمان ، وآلتونين ، والرجل العارى الرأس ، المترنح الخطى ٠ ولم يلتفتوا فى طريقهم يمنة ولا يسرة ، ولا نبسوا ببنت شفة ٠ وكانت وجنتا الشيخ لاتزالان مضرجتين من أثر الخزى ، ولكنه مضى فى طريقه رافع الرأس ، مشدود القامة٠حتى اذا بلغوا البقعة التى يبدأ عندها الدرب المفضى الى المزرعة ، تهالك الرجل الثمل ، وراح يئن ويشكو من أنه لن يقوى على أن يسير خطوة بعد ذلك ، لان ساقيه تأبيان أن تحملاه ٠ **ولكن « هيرمان » جره ، واجبره على أن يقف على قدميه ، ثم أمسك به من قفاه ، ودفعه الى الامام ، فانكفأ على وجهه ، وجرح أنفه !٠٠ وشرع يبكى ، فجرى دمعه مختلطا بدمه على وجهه الذى ظل لونه ضاربا للزرقة ٠ وأشاح « آلتونين » بوجهه اذ أخذ « هيرمان » يلكز الرجل بهراوته ، حتى اضطره فى النهاية الى الاستواء على قدميه ، والسير !**

ولاحت المزرعة وكأنها خلت من الاحياء ، حين وصلوا اليها٠

وكان التعب قد برح بالشيخ ، فتهدجت أنفاسه ، وأخذ يلهث بشدة . ولكنه ساق أسيره الى مبنى الحمام مباشرة ، حيث كان ثمه وعاء من الماء الساخن قائما على نار موقدة ، وحيث كانت هناك ثياب نظيفة ، منشورة على مقعد خشبى ملاصق للجدار . وألقى « هيرمان » بثياب الرجل الملطخة فى أحد الاركان ، ودفعه فألقى به على الارض ، وراح يحك جسده ذا اللحم المترهل ، الطرى ، بفرشاة ، متجاهلا عويله ودموعه . ثم دفع به أخيرا تحت ماء بارد ، منساب من الارذيذ (الدش) ، وأمره بعد ذلك بأن يجفف جسمه ، ثم جلس على حجر خارج المبنى ، وأمره بأن يرتدى الثياب النظيفة

واشتد تهدج أنفاس الشيخ ، حتى ان «آلتونين» كان يسمع صوتا أشبه بالازيز يصدر من رئتيه العجوزين ، المنهوكتى القوى !.. ولم يتبادل الرجلان كلمة واحدة !.. وما لبث الرجل الذى كان فى الحمام أن خرج وهو ينتحب ويرتعد ، فاتخذ سبيله الى البيت .. وتبعه الآخران !

وكان الطعام معدآ على المائدة ، فجلس الرجل ليأكل . وكان يشهق بين آن وآخر من أثر البكاء ، ويتحسس أنفه بطريقة تدعو الى الاشفاق . وأخذ فكاه يطحنان الخبز اليابس ، بيد انه لم يكن يقوى على ابتلاعه . **وكانت المرأة ترقبه من الركن الذى اعتادت الجلوس فيه - بجوار الفرن - بنظرات ثابتة ، وقد جمدت مقلتاها ، فكأنهما حجران أزرقان براقان !.. وما لبث الرجل ان كف عن محاولة الاكل ، ونهض فى النهاية فسار الى حجرته . وعندما تبعته المرأة ، حدق « آلتونين » فى عينيها ، ولكنهما كانتا خاليتين من أى تعبير ، اللهم الا اليأس والقنوط !**

وشعر « آلتونين » بالدماء تتدافع الى وجهه،وبيديه تتحولان الى كتلتين متحفزتين للكم والضرب.وآلمه انضمام راحتيه هكذا ، اذ كانت ثمة تسلخات عند مواقع العظام من احداهما .. ولكنه

حين فطن الى نفسه ، لم يجد من يوجه اليه لكماته ٠٠ اذ كان الرجل قد توارى ، وخلفه المرأة !

وقال « هيرمان » فى صوت خفيض : « لقـد قضى عاما فى مستشفى الامراض العقلية ، ثم اطلقـوا سراحه ، وقالوا انه شفى ٠٠ وكان لهذين الاثنين بيت بديع فى المدينه ، به معزف (بيانو) ، ومقاعد مكسوة بالحرير ، وما الى ذلك ! ٠٠ لقـد شهدت هذا البيت مرة ، وان مكثت اذ ذاك فى مطبخه ٠ وعندما جاءا الى هنا ، لم يكن قد تبقى لهما شىء ! ٠٠ وكانت المرأة قد ورثت مبلغا كبيرا من المال ، عند زواجها ، فبقى لها منه ما كان كافيا لشراء هذه المزرعة ، عندما قال لها الاطباء ان الحياة فى الريف تساعد على تحسن صحة « ألفريد » ٠٠ ولكن ، كيف يقدر لرجل أن يتحسن بعد ان عرف سموم المدينة ؟ ٠٠ وها أنت ذا ترى بنفسك كل شىء ! »

فقال آلتونين : « لابد أن المـرأة تنحدر من أصل طيب ، والا مافعلت معه ماتفعله ! » ٠٠ وكانت تلك الكلمـات مغتصبـة ، مختنقة ، انتزعت من حلق جف وتيبس لفـرط الانفعـال ٠ واذ ذاك ، انطلق هيرمان يقول فى لطف :

ـ انها لم تكن ، حين قدما الى هنا ، قد حلبت يوما بقرة ، ولا عرفت فى حياتها مذراة ٠ وقد استأجرا فى البـداية خادما لتحلب البقر ، ولكن هذا التصرف لم يكن مجديا ، كما تستطيع أن تدرك بنفسك ٠ ومن ثم أخذت المرأة تدير المزرعة بنفسها ، منذ ذلك الحين ٠ وانى لاشهد بأنها غامضة ، حتى اننى لا أدرك شيئا مما يجول بذهنها ، رغم اننا عشنا تحت سقف واحدزهاء ثلاث سنوات ٠٠ ورغم آنها تدعونى عمها ! ٠٠ ان اى امرىء غيرها كان خليقا بأن يستولى عليه اليأس منذ أمد طويل !

وكان الظلام قد ران على الغرفة ، وآن موعد سقاية الجواد وتنظيف الحظيرة كالعادة فى كل مسـاء ٠ وهم « آلتـونين » بالانصراف ليؤدى هذه المهمة ، ولكنه توقف لدى البـاب ،

والعتمة تكسو وجهه ، وانطلق على لسانه السؤال الذى بدا صدوره من عامل أجير أمرا غريبا :

- لابد ان كلا منهما يحب الآخر .. حبا شديدا ؟!

فحدق الشيخ فى الفضاء المعتم ، وقد تراءت على وجهه آثار الارهاق الذى أصابه فى يومه ، ثم قال فى صوت خافت :

- لقد قال لى يوما عمى « جوز » رحمة الله عليه ، انوشائج الكراهية أقوى وأوثق من روابط الحب !

وكان « آلتونين » قد نفذ خلال الباب ، فأسرع يجتازالفناء، ساعيا الى الحظيرة . وكانت الريح قد ركـدت ، وبزغت بين السحب نجمة شاحبة . وتناهى الى أنفـه ، خلال الظلام الذى كان يزحف فى سكون ، عبير الارض التى قلبت تربتها حديثا !



الفصل الرابع

• **تلت** ذلك الحادث بضعة أيام مليئة بالاسى والالم ، بينما كان ذلك التعس ، الذى أغرق نفســه فى الخمر ، معتكفا فى الغرفة الداخلية ، يحاول جاهدا ان يسترد حواسه المخدرة ، وان يعود الى الحياة العادية ٠ واستغرق فى البداية ـ لاربع وعشرين ساعة ـ فى نوم مضطرب ، محموم ٠ وظل بعد ذلك ، أياما ، مستلقيا على فراشه ، يحملق فى الفضاء بعينين تتألقان بشكل غريب ٠ وكان ـ أحيانا ـ يستغرق فى قرض أظافره ، وهو شارد البـال ، حتى يدمى أنامله ، أو يضـغط صدره براحتيه ، تحت القلب ، ويئن ويزأر ، زاعما انه يحتضر !٠٠ ثم أخذ بعد ذلك يقضى وقته جالسا على حافة فراشه ، بثيابه الداخلية ، وقد غشيه خوف داهم ٠٠ خوف من الجدران ، ومن النافذة ، ومن الارض المحيطة بالنـافذة ٠ وكانت تتردد فى أذنيه أصـوات كثيرة ، منها الحقيقى ومنهـا ما كان الوهم يصوره له !

وكانت المرأة تعنى به ، وتحمـل اليه الطعـام ، وتقضى الساعات الطويلة جالسة بجواره ، تستمع فى صبر لتوسلاته

الذليلة ، وتتحمل فى جلد منظر وجهه المتهدل ، المختلج العضلات . وكان يهز جسمه ، ويحاول أن يقف ، فتتخاذل ساقاه عن حمله ، حتى اذا استطاع ان يستوى أخيرا على قدميه ، أخذ يتظاهر بالسعى الى النافذة ليطل منها ، أو الى الرف ليتناول منه كتابا ، متخذا من هذا حجة ووسيلة لمحاولة التقرب الى المرأة !.. وكان يحبو – فى بعض الاحيان – على أربع ، ليضرع اليها ويتوسل . كانت صحته قد بدأت تتحسن ، فأحس بوقدة تسرى فى جسمه : كل شريان فى جسده تحول الى أتون ملتهب .. وكل عصب فى كيانه كان يرتعش شهوة وحنينا !

وما نبثت الابتسامة الضارعة – التى كانت شفتاه الغليظتان تنفرجان عنها – ان تحولت الى سباب .. كان يسب ويلعن بصوت خافت !.. وكانت الكلمات البذيئة تنساب من فمه ، وقد تجلت على أسارير وجهه مظاهر العته . كانت شهوته هى جحيمه !.. وما أفظع جحيم الشهوة التى كانت تستعر فى جوانحه – دون أن تجد اطفاء – فتلفح ريحها كل من يقترب منه !

وكانت المرأة – فى هذه الظروف – تعود الى مخدعها ، وتوصد الباب القائم بين الغرفتين ، وتظل واقفة وهى مستندة اليه بكل جسمها ، تخشى ان يقوى الرجل على فتحه . وتأخذ عيناها – هى الاخرى – تومضان ببريق جنونى .. ثم لا تلبث ان تتنهد فى أسى عميق ، وتعود الى حجرة الجلوس بأنفاس متهجة ، وعلى وجنتيها بقع حمراء تبدو كآثار الحمى !.. كانت توقن ان وراء الباب الموصد – في الداخل – وحشا يثير التقزز فى النفس .. وكانت تدرك انها تخوض معركة ، ولكنها كانت معركتها وحدها ، فليست تملك أن تنشد العون من أحد .. من أى أحد !

وكانت تروح وتغدو في الحجرة ، وقد سهم بصرها ، وشرد

بالها . كان وعيها وحسها مركزين فى يديها ، فكانت لا تفتأ تشغل هاتين اليدين بأشياء تمسكها : فكانت تحمل الدلاء الثقيلة ، وتغذى الخنازير ، وتنقل كميات العلف الى الابقار .. وجسدها يمضى معها أينما اتجهت ، باردا ، ولكنه ينضح بالحياة تحت ثيابها الخشنة !.. وهكذا اعتادت ان تنصرف الى العمل الشاق ، وان تنسى نفسها فيه .. اعتادت ان ترهق جسدها بأعمال غريبة عنها ، ولا عهد لها بها !.. **وكانت تحاول ان تستبقى جسدها بمنأى عن كل ما يذله !.. ولقد أصبحت توقن أنها لن تتورع عن ان ترتكب جريمة ، اذا هى غفلت عن جسدها هذا ، وتركت نفسها تستدرج الى التفريط فيه مرة أخرى .. أو بالاحرى ، اذا هى انصاعت ثانية للخزى الذى كان يكوى كبرياءها .. بعد استسلامها في الماضى !**

وكانت أرض فناء المزرعة قد اكتست بالحشائش الخضراء ، عندما نفذت اليه ذات يوم . وكان ثمة طائر من نوع « الزرزور » ، ذو منقار ملون ، يصدح فى الحقل القريب بصوت خشن . وكان للسماء الباهتة الزرقة ــ الممتدة فوق رأسها ، وفوق المزرعة العتيقة ، والفناء الذى وطئت أرضه أقدام لا حصر لها ــ دفء ورهبه !.. ودار بخلدها ان المرعى الغنى لن يلبث ان يتوفر للماشية ، وان التعب الطويل والجهود الشاقة التى بذلت فى الشتاء ، لن تلبث ان تؤتى ثمارها . وهناك ، عند الحافة القصوى للحقل ، رأت العريب منهمكا فى العمل . كان « آلتونين » عاكفا على ازالة الاتربة والاوساخ التى سدت أحد المصارف بمجرفة ، وظهره يرتفع وينخفض مع الحركات التى يتطلبها العمل . كان لحن الارض .. ذلك اللحن الخافت المنبعث عن دورة الأيام والفصول التى لا تنتهى .. كان لحن الارض يتمثل فى هذه الحركات النشيطة ، القوية !

ووقفت المرأة فى الفناء ، والدلو فى يدها ، وظلت تنظر

طويلا نحو المصرف .. **وخيل اليها ان حركات المجرفة المنتظمة، المتزنة ، تسكب فى روحها المعذبة آمنا وسكينة لا عهد لها بهما من قبل !..** وما لبثت ان سارت فى تؤدة الى البئر ، فملأت دلوها . وأطلت خلال فوهة البئر ، فخيل اليها ان سطح الماء - ذلك المربع الاسود - قد استحال الى مرآة سحرية عكست صورة السماء ، وصورة وجهها . ورأت وجهها يتطلع اليها من الاعماق ، فتلاشت رؤى الوسط المحيط بها لحظة ، وكأنما ذاب كل شىء خارج كيانها .. وذابت معه تجاربها ، والكلمات التى وعتها من الكتب ، فأخذ النسيان يعدو عنيها.. وخيل اليها ان الوجه المنعكس على الماء يجتذبها الى نفسه .. الى الاعماق !!

* * *

• **وعندما** رفعت رأسها أخيرا ، وتفقدت المنظر المألوف لديها ، بعينين غريبتين كما لو كانت تراه لاول مرة ، ودت أن تبكى ، بل ان تصرخ كطيور الغابة ، بصوت خشن ، عميق .. أو كالحصان المشدود الى عربة ، اذا مارأى الطريق أمامه طويلة !.. فلقد ذهب الجو السحرى الذى أحاط بها وهى تنظر الى صفحة ماء البئر ، وآن لها أن تثوب الى نفسها .. أن تصبح المرأة التى أرادت نفسها أن تكونها ! .. ان ترتد الى ما اختارت - فى أفكارها الدائرة كالطاحونة دون توقف - أن تجعله «نفسها» !.. **« النفس » التى تتصل بها روح معذبة تعيش مشدودة الى جسد مستعر ، فاسد ، محبوس فى غرفة بالمزرعة العتيقة !.. كانت هى التى اختارت هذا الجسد ، ولا انكار !.. اختارته ، فأصبح هو العبء الذ يحنى كيانها الى الارض ، والقيد الذى يحز فى عظامها .. بل أصبح مرضا فتاكا لاسبيل الى كبحه .. بل عارا لاخلاص لها منه ولو بالموت !.. كان هذا حظها.. نصيبها الذى لصق بها دون ما اشفاق ولا رحمة !**

وعادت الى الدار • وتنقلت بينها وبين حظيرة البقر ، رائحة غادية . وقد تيبس بدنها فكأنما صيغ من خشب تسرى فيه برودة قارسة !

وحلبت الابقار ــ بحركة آلية ، دون وعى أو ارادة ــ وقدمت لها غذاءها ، الذى لم يعد شحيحا كما كان أيام الفقر والفاقة! •• وما لبثت أفكارها ان تبددت رويدا •• ورويدا أخذت الحياة السارية فى كيانها تتخدر وتستنيم !

وبدت لها الامسية ــ يومذاك ــ طويلة ، زاخرة بما يعذبها ويضنيها • وكانت النظرات التى راح « آلتونين » والشيخ يوجهانها خلسة اليها ، أثناء العشاء ، تشعرها بالخزى والعار ، وتنكأ آلامها ! •• وانتهت ساعة السمر والعشاء ــ فى تلك الامسية الهادئة ــ وسار « هيرمان » بخطواته الهرمة ، مجتازا الردهة الى غرفته •• وما لبثت المرأة أن آوت الى مخدعها

وعندما سمعت ــ وهى فى سريرها الضيق ــ حركة « آلتونين » وهو يطفىء النور ، ويستلقى على فراشه ، نهضت وهى تضغط صدرها براحتيها ، ووقفت عند النافذة وقد توترت أسارير وجهها ، وبدت عليها مخايل التفكير العميق! •• وكان الظلام يسود المنظر الذى تراءى خلال النافذة ، ولكن سطح البحيرة كان يلمع وسط هذا الظلام • ثم اشرق القمر ، قوسا نحيلا ، مائلا الى الزرقة ، وأخذ يرتفع من خلف الهضبة فى دأب واصرار • وبدت الاصوات التى كانت الفرس العجوز تحدثها ــ وهى تضرب الارض بسنابكها ــ كئيبة فى غمرة السكون الساجى • ثم لم تلبث الاصوات أن تلاشت •• كل الاصوات •• وغرقت المزرعة فى نوم ، وراحة ، ودعة •• الا هى •• الا المرأة •• فقد مكثت تنتظر !

وظلت واقفة فى مكانها ، فى ثوب النوم الخشن ، وحيدة فى الظلام ، وآثار عمل النهار عالقة بها • وضغطت صدرها

بيديها ، وقد خيل اليها انه ميت .. عديم الحيـاة !.. كان جسدها لايزال لينا ، لدنا ، ولكنه أصبح غريبا عنها ، بعد ان سلط عقلها عليه ارادته فجعله جامدا .. هكذا كانت ـ بالنسبة الى نفسها ـ شيئا جامدا .. ميتا !

وسمعت حركة يد تعبث فى الباب الموصد ، أعقبها صوت هامس ، مرتعش ، متهدج .. صوت كان حبيبـا اليهـا يوما ، ولكنه أصبح يقتل ببطء كل عاطفة انسانية ، وكل شـعور طيب فى نفسها !.. وأخـذ الصـوت ينبعث من وراء البـاب الموصد ، مرتجفا ، لاهثا .. وأظافر يدى صاحبه تجـرى على الخشب الصلب فى حركات مختلسة ، كى لاتوقظ النائمين . كان هذا الصوت وقفا عليها وحدها ، وقد امتزج بأحلامهـا ، فجعل أيامها كابوسا !

ولم تتنهد المرأة ، ولا توسلت ـ فلقد ظلت سـنين طويلة لاتجد من تتوسل اليه ـ **وانما تناولت المفتاح من أحد الادراج ـ دون ماتردد ـ ثم فتحت الباب ، ودخلت . وأمسكت بذراعيها فى الظلام يدان جشعتان ، طريتان !.. وانبعث صـوت فى أعماقها يقول فى صوت كالفحيح ، أو كالضحكة الصامتـة : أحقا أنت متزوجة ؟.. أأنتما زوج وزوجـة أمام الله ، وأمام الناس ؟.. وتبددت من كيانها ـ ازاء هذا الصوت ـ آخر بقايا الحرارة التى كانت متخلفة فيه !**

★ ★ ★

◆ **كانت** قد حاولت فى أشد ساعات الهـوان مرارة ـ فى المـاضى ـ أن تخدع نفسهـا ، فانتزعت من ذلك الفم اللاهث وعودا ، وتأكيدات بحياة جديدة ، وايمانا وأقساما كان كل منها يجرد جزءا من أجزاء جسمها مما يستره ! .. لقد حاولت عشر مـرات ، بل مائة مـرة ، ان تؤمن بأن كل شىء لن يلبث أن يتحسن ، وبذلك كانت تسمح للامل الغادر بأن يشل ارادتها .

ولما لم يبق لها ، حتى هذا الامل الغادر ٠٠ وعندما تكشف كل وعد عن أكذوبة ، وتبين ان كل كلمة معسولة كانت خطوة للامعان في اذلالها وخداعها ٠٠ وعندما تحققت ـ فى النهاية ـ من أن عزيمة زوجها « أطرى من البالوظه » ، وأكثر تهدلا من لحم ذقنه وجسده ٠٠ حتى اذ ذاك ، حاولت ان تخدع نفسها لتصدق أن الكلمات التى كانت تنطلق لاهثة من فمه ، كانت صدقا !٠٠ كانت تود ان تؤمن بأن فى إطواء وثنايا كل هذا ، حبا ٠٠حبا متأهبا لان يصدق ، ولان يأمل ، ولان يصفح ،وبهذا كانت تستطيع أن تستقبل العناق بالغفران الحنون ! ٠٠ بل انها كانت تتوهم فى مثل هذه اللحظات ـ التى اعتادت أن تخدع نفسها فيها ـ انها قادرة بلطفها على أن تجتلب قبسا من السماء ، لينير عالما خاويا ، مفسودا ٠٠ ولكن هذا الوهم كان أكذوبة ، هو الآخر !٠٠ بل كان آخر قطرة فى كأس خيبة الامل ، وبالتالى ، كان أكثر قطرات هذه الكأس مرارة !٠٠ فقد تبينت أن كلمات زوجها لم تكن تصدر الا لتدمر عزيمتها ٠ ٠ لتحطم مقاومتها ٠٠ وكان بفجوره القاسى العنيف يلين من صلابتها ، ويفوز باستجابتها للشهوة التى تعربد فى جسده المشبع بالخمر !

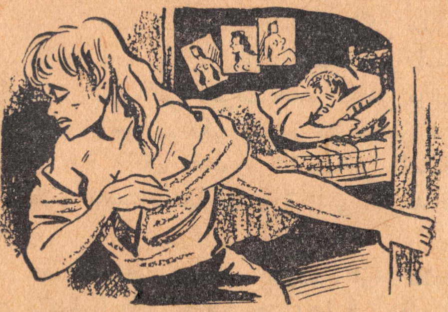
أما الآن ، فقد أصبحت صماء ، باردة ، ازاء كلامه ! ٠٠ لقد ظلت لمسات تلكما اليدين تقتلان جسدها في بطء ، حتى مات هذا الجسد فى النهاية ، دون أن يصعد زفرة ، أو يكشف ـ فى شهقة باكية ـ عن شعورها بالذلة والهوان !٠٠ وقد كانت ترى ان فى الشهقة والزفرة مايرضى ذلك البدن المرتجف الذى يسعى اليها متعطشا ، فشاءت أن تحرمه هذا الرضى !٠٠ كانت وحيدة ٠٠ وليس من يشفق عليها سوى الظلام !!

وهكذا جعلت من جسدها ثمنا تشترى به بضعة أيام وأسابيع من السلام الظاهرى للمزرعة ٠ وعاد الرجل يهمس

بأقسامه وأيمانه التعسة فى أذنيها اللتين أصمتهما !.. لا ، لن تخدع بهذه الايمان مرة أخرى ، ما عاشت !.. ولعله كان يؤمن بعهوده ، ولكنه كان رخو الاخلاق ، كما كان رخو الجسم ، فلم يعد أحد يصدقه !.. وان كان لابد لمن حوله ان يتظاهروا بأنهم يصدقوه .. فبهذا نصحهم الاطباء الكاذبون !

★ ★ ★

◆ **وعادت** المرأة الى مخدعها وهى ترتعد ، وتركت الباب مفتوحا .. فلقد جادت بكل ما كان عندها ، ومن ثم لم يعد



هناك ماتخشى ان يسرقه الرجل !.. ولقد ابتاعت بالخزى المرير نوما لذلك الشقى المريض الذى كان يكتوى بسعير الشهوة .. وكان هذا النوم خليقا بأن يستمر - كما قدرت وهى تتأمل وجه الرجل النائم ، على ضوء القمر المنساب من النافذة - الى أن تنبعث منه صرخة رهيبة ، وأنين وحشى بغيض !

والمريض لا يسأل عادة عن أعماله وتصرفاته ، لاسيما اذا

كان مرضه يتصل بالعقل ، ومن ثم فعلى المرء أن يتلطف اليه .. بل كان المرتقب منها – هي بالذات – ان تجود بكل تضحية تساعد على شفائه . هكذا كانت عقيدة المدن الجاحدة ، وهذا هو المبدأ الذى ينشأ عليه أبناء المدن ! .. كذلك كان الشر ، والخداع ، والكذب ، وعدم الشعور بالمسئولية ، أنواعا من المرض ، كما قال الاطباء .. وكانت « الشخصية النفاسية » – أى المصابة باضطراب نفسى أو عقلى – و « الكحوليه الحادة » ، من المصطلحات العلمية التى يستند اليها الاطباء وهم مطمئنون ، فآمنت بها المرأة المحطمة ، يوما . **ولكنها لم تعد تؤمن بهـــا ، فان الرفق واللطف أصبحا كالخشونة والعنف ، لا يجديان فى علاجه . ولم تعد العقاقير المخـــدرة تختلف فى تأثيرها عن اليقظة والوعى .. أو بالاحرى ، لم يكن تخدير أعصـــابه ، باطفاء شهوته ، ليختلف كثيرا ، عما لو تركت هـــذه الشهوة يقظة ، متوترة ، مستعرة !**

وانتقلت المرأة من مخـدعها الى حجرة الجلوس ، وركبتاها لا تزالان ترتجفان . وتحرك الرجل النائم فى سريره – فى هذه الحجرة الأخيرة – وأنفاسه الوادعة ، المنتظمة ، لا يكاد يكون لها صوت مسموع . وخفق قلب المرأة أسى وحزنا .. لعل هذا الرجل شاهد جديد على خزيها وعارها .. ولكن ، ما أهمية ذلك ؟.. بل ما أهمية أى شىء فى الدنيا ، بعد ان قضت قضاء مبرما على البقية الباقية من كرامتها وكبريائها ، وشربت كأس المرارة والكراهية ، حتى ثمالتها ؟

وانفلتت من الدار ، الى .. الظلام الرحيم !

ولفها ليل الربيع فى غلالة ناعمـــة من السكينة . وكانت الارض باردة تحت قدميها .. ومن أقصى القرية ، انبعث نباح كلب . وكان القمر الشاحب يبدو – كمنجل الموت ! – معلقا فوق التل والبحيرة السوداء .. ومع ذلك كانت هذه الاشياء

طيبة ، تسرى عنها !.. أما وقد فقدت كل شيء - بعد ان فرطت فى البقية الباقية من كبريائها - وأما وقد أصبحت بلا أمل فى المستقبل .. وأما وقد صارت محرومة من كل شيء تستطيع ان تقول انه ملك لها ، فقد انحنت المرأة على الارض الرطبة ، وأخفت وجهها فى الظلام الشفوق !.. وبعد وقت طويل ، انبثقت المرارة من ينابيع الخيبة والقنوط ، فتمثلت فى نحيب صامت !.. كان الحقد شيئا ضئيلا .. بل كانت كل المشاعر الآدمية ضئيلة بجانب هذا النحيب الصامت ، الذى ضمه الليل والارض الرطبة الى صدريهما !

ولكن الارض كانت واسعه .. كانت تمتد - حول المزرعة الهادئة - الى ما لا نهاية ، تعلوها قبة سماء الليل وقد خلت الا من آخر نجومها الشاحبة ، ومن القمر الذى بدا كالمنجل المشحوذ الرهيب !.. كانت الارض واسعة .. وزاخرة ، تنبت الفاكهة ، وتنشق تربتها عن البراعم والزهور ، وتصب فى كأس الحياة : الاسى ، والقنوط ، وألم الولادة ، وهناءة الموت ، دون أن يستنزف ما تجود به شيئا مما تكتنز !

على ان المرأة شعرت - فى ساعة الاسى المرير - بأن فى حياتها شيئا واحدا يخلق بها ان تحمد السماء عليه .. ذلك هو أنها لم ترزق بولد !.. من أجل هذا ، على الاقل ، كانت تكبح من شهوة زوجها ، وذلك حتى لا تضطر قط الى ان تعاني فظاعة وبشاعة ان تحمل فى احشائها حياة نفثها ذلك البدن الرخو ، الناضح بالخمر !.. وان تشهد الطفل ينمو ويكبر ، فترى فى عينيه تلك النظرة المعتوهة التى تلمع فى عيني زوجها ، وتلمس فى ملامحه ما فى ذلك الرجل من ضعف النفس ، ومن الغش والخداع ، ومن الشهوة البهيمية !..
ألا ما كان أفظع وأرهب تلك القوة غير المنظورة التى أحست بها تحت القمر البادى كالمنجل القاسى .. تلك القوة التى

سمحت حتى للقبح أو المسخ بأن يفرض ذاته على البدن الفاسد فيجعله يرتعش فى نوبات من الصرع الوحشى !

واعتدلت المرأة بعد انحناءتها الحزينة الطويلة فى الظلام ، فاذا البرد يلسع قدميها العاريتين ، واذا قميص النوم الذى تشبع برطوبة الليل يلف جسداً مثلوجا !٠٠ وكانت قد كفت عن النحيب ، وانقطعت شهقاتها الصامتة ، بعد اذ أحست أنها قد أفرغت كل ما كان يملأ نفسها ، وان العزيمة الجاثمة فى أعمق أغوار نفسها قد استقامت مرة أخرى واشتدت ، كقوس من الفولاذ المرن !

لقد عرفت الآن ٠٠ نفثت تربة الربيع ، المنداة بالرطوبة ، معرفة فى نفسها ٠٠ عرفت أن هذه كانت آخر مرة تسمح فيها بما حدث !٠٠ أما وقد أدركت تمام الادراك انها لن تتورع عن ان تخنق أى طفل يولدها اياه هذا الرجل ، فقد غدت موقنة من ان النهاية قد اقتربت !٠٠ ولم يكن ثمة ما يعلل هذا اليقين ، فلقد سرق زوجها وكذب من قبل ، ثم عاد الى الدار عندما أغلقت جميع الابواب فى وجهه !٠٠ وما كان اغتصابه الدرج الذى كانت تدخر فيه النقود سوى حلقة ضئيلة فى السلسلة ٠٠ لقد مرت بهذا ، وبأسوأ من هذا ، من قبل ٠ **لقد أذلت نفسها عشرات المرات ، وتركت جسمها « يغتال » قربانا لشهواته ! ٠٠ لم يكن هذا بالشىء الجديد عليها ، حتى يقال انه هو الذى بث فى نفسها هذا اليقين ٠٠ ومع ذلك ، فقد كانت واثقة من هذا الذى عرفته ٠٠ كل شىء كان ينبئها به : الارض ، والقمر ، وسماء الليل المنبسطة !**

★ ★ ★

◆ **ولكن** ٠٠ هل كان فى هذا خير لها ، أو كان فيه شر ؟!

وعقدت راحتيها ، وشدت بكل منهما على الأخرى وهى تصعد الدرجات المهدمة ، غير المتناسقة ، التى تفضى الى داخل

الدار . انها ماكانت لترجو.. بل ماكانت لتجسر على أن ترجو أى خير لنفسها .. وما كان ثمة شر ينتظر ، فوق ذاك الذى عرفته حتى اليوم !.. ووقفت ويدها على مقبض الباب ، ثم سرحت بصرها نحو البئر .. هناك ، فى العتمة المتراكمة تحت الاطار الخشبى القائم فوق فوهة البئر .. هناك يقبع سطح الماء ، ساكنا ، مسود اللون ، كأنه مرآة سحرية .. المرآة التى نظرت اليها فى النهار ، فرأت وجهها منعكسا عليها .. وسيظل ينعكس طالما نظرت اليها !

وما ان اجتازت غرفة الجلوس فى هدوء ، ودلفت الى مخدعها ، فأوصدت بابه خلفها ، حتى نهض « آلتونين » من فراشه فى رفق ، محاذراً ان يحدث أى صوت . واجتاز الغرفة الى الدلو الموضوع فى ركنها الاقصى ، دون ان يسمح للارض الخشبية بأن تصدر أى صوت تحت قدميه ، فاغترف — بكوز صدىء — ماء باردا ، وراح يشرب .. راح يشرب طويلا ، ليروى ظمأه ، وفى جرعات كبيرة ، فى سكون وصمت !

كان النوم قد فر من عينيه .. وكان رأسه كالاتون المتأجج .. وكان حلقه قد جف ، تحت تأثير ما تناهى الى أذنيه من أصوات !.. فلقد سمع — عن غير قصد أو ارادة — كل صوت ، بل كل اختلاجة ونأمة ، خلال الابواب والجدران . وكان جسده القوى — الذى أنهكه تعب العمل فى النهار — قد استمد من نومه راحة كافية ، فاستيقظ .. وها هو ذا قد نهض ، وأخذ يشرب فى ظمأ ملهوف ، من ماء البئر البارد الذى احتواه الدلو الخشبى .. كان يشرب ويعب وكأنما كان يجترع النسيان من ينابيع سحرية !.. وكان الماء — من ناحيته — ينساب الى حلقه بارداً ، زلالا ، فى جرعات كبيرة ، صامتة ، كأنه نعمة مشتهاة !

وما لبث ان عاد ثانية الى سريره ، والحذر يقيد كل خطوة

من خطواته ، حتى لا يحدث صـوتا ٠ **فما ينبغى مطلقا ان تعرف المرأة ـ التى كانت فى الحجرة المجاورة ـ انه كان مستيقظا ، وانه سمع ما ليس من حق أى مخلوق ان يسمعه !٠ وغاص فى فراشه وكأنه يغوص فى قبر ، فى جـوف الارض الرحيمة ٠٠ ثم استغرق فى النعاس !**

وظلت المرأة مستيقظة فى سريرها الضيق ، وقد عقـدت يديها القويتين ، المتناسقتى الشكل ، فوق الاغطيه ٠٠ فلقـد سمعت تلك الخطوات رغم حذرها ، اذ ما كان من شىء يخفى عن سمعها فى تلك الليلة !٠٠ تناهت الى أذنيها ـ خلال الباب والجدار ـ كل خطوة ، وكل حركة من ذلك الجسد النحيل ، القوى ٠٠ لقد شرب الرجل فى نهم من بئر سحرية فى تلك الليلة ! فليكن ٠٠ ولعل فى هذا الخير كلّ الخير !

وظلت مستلقية على سريرها فى يقظة ، وقد ضمت يديهـا الى صدرها ، وراحت تتنفس فى بطء ٠٠ بطء شديد !

ومضت فترة كأنها الابدية فى طولهـا ، ثم سكب الفجر ضوءه الرطب المنعش ، فى الحجرة !



الفصل الخامس

• **تألقت** السحب ـ ذات الحواف الفضية ـ فى صفحة السماء ، ولمعت أعواد الاعشاب النامية حول مجرى الجدول ـ على السفوح ـ كأنها ألسنة من اللهب الاصفر . وكانت الارض العتيقة ، التى تناثرت على صفحتها ظلال السحب ، تعب الريح وضوء الشمس فى انتشاء .. وتربة الحقل ـ الذى كسته الاعشاب الفطرية ـ تنشق وتنطوى على الجانبين أمام سن المحراث اللامعة . كان موسم زراعة البطاطس قد حان . فأخذت الفرس العجوز القوية تجر المحراث ، وقد نفرت عروقها وبرزت تحت جلدها الابيض الناعم الشعر !

كان السير فوق التربة المحروثة ، واحدى اليدين على المحراث ، شيئا بديعا .. فان مرأى التربة السمراء الغنية كان يبهج العيون التى أرهقتها رؤية الحقول الجرداء ، الخاوية ، وقد ترامت على السفوح فى فصل الراحة والتوقف عن الانتاج . وكانت ظلال السحب تطفو على سطح الارض ، وحوافها تلمع كالفضة ، والنسيم يرطب الجباه الساخنة ، ونبات العرعر ذو اللون الازرق الذى تشيع فيه الخضرة ، يتألق الى جوار بوابة

المزرعة ، وكأنه من النباتات التى كان الاقدمون يخلعون عليها قداسة !

وأفعمت نفس « آلتونين » بغبطة كانت تزداد بمرور كل لحظة ، وهو يشق بمحراثه الارض ، محدثا أخاديد ، كانت المرأة — السائرة خلفه — تلقى فيها بتقاوى البطاطس من سلة كانت تحملها

كانت تتبعه بخطى لاتكل ، وهى لاتنفك تنحنى تغترف من التربة بيديها ، والريح تعبث بشعرها الاشقر . وكان الاثنان يعملان وحيدين فى ذلك اليوم — اذ لم يكن ثمة بد من زراعة البطاطس — وكان الشيخ مريضا وليس بوسعه أن يعمل . وكان وجه « هيرمان » المتغضن ، المعروق ، قد اكتسب خلال الربيع صفرة متزايدة ، وكان كل يوم من الايام المعتدلة الجو يكشف عن مزيد من ضعفه ووهنه .. فأصبحت أنفاسه تنبعث لاهثة ، يصحبها أزيز كان يدل على أن رئتيه — وليس هو — فى اضمحلال وتهالك !.. لقد طالما أدى عمله ، وادخر قواه للاوقات الحافلة به ، عندما تدعو الضرورة الى اعداد الارض للبذر . لم يكن يهمه فى شىء أن الارض لم تكن أرضه .. كل الذى كان يهمه هو أن تعد هذه الارض للانتاج ! .. اذ لم يكن بين المناظر مايحزنه ويكربه ، أكثر من منظر الارض المهملة . وكان يهيم فى بعض الامسيات ، حتى تقوده قدماه الى أرض غير معدة للزرع ، فيقف يتأملها بوجه مربد ، حتى اذا لحق به « آلتونين » ، قال له وهو يتنفس فى عناء : « كأنى بموسم الحرث قد انتهى دون أن يمر بهذه الارض » !

وقال له « آلتونين » ذات مساء ، حين رأى الجهد الذى كان الشيخ يتكبده ليصل الى مائدة العشاء : « يجب أن تعرض نفسك على طبيب ! » .. واكتفى « هيرمان » بأن ابتسم .. تلك الابتسامة الواهنة ، الكليلة .. ابتسامة الشيخوخة ! .. وكأنما

أراد أن يقول : ماجدوى الطبيب ؟ .. بل أى خير يستطيع علم المدينة أن يتيحه لى ؟! .. وارتجفت يده المغضنة ، المعروقة ، وهو يتناول السكين ليقطع الخبز !

على أن الشيخ أقبل على حجرة الجلوس مبكرا فى ذلك اليوم ، وقد ارتدى ثياب النزهه ـ التى اعتاد أن يرتديهـا فى أيام الآحاد فقط ـ وحمل حقيبة سفر قديمة ، متسخة ، لف حولها خيطا من « الدوبار » عدة مرات ، لان قفلها كان تالفا . وأعدت له المرأة لفافة أودعتها بعض الطعام ، ثم انطلق بخطى بطيئـة فى الدرب المفضى الى القرية . وود « آلتـونين » أن يقـله فى العربة ، ولكن الشيخ أبى أن يستجيب لدعوته الملحة ، قائلا : « انك فى حاجة الى الفرس لتعمل فى حقل البطاطس اليوم . لقد سارت قدماى فى الدنيا طويلا ، فلن تتعبهما هذه المسافة القصيرة ! »

وهكذا بقى « آلتونين » والمرأة وحيدين ، ليعملا معا !

★ ★ ★

• وكان الرجل المقيم فى الحجرة الداخلية قد اجتاز فترة القلق وعـدم الاسـتقرار ، الى نوع من الاسى والوجـوم الكئيب ! .. فلم يبد رغبة فى العمل ، ولا دعاه أحد اليه .. كان يلوح وكأن وجوده فى الحقل يذهب بخصوبة الارض ! .. **بل ان « آلتونين » كان يحس بأن كل مايمسه الرجل مسوق الى الخراب ، وكأنما كانت اليد الناعمة ، الخاملة ، لاتقوى الا على التدمير ، ومن ثم كان من الواجب أن يحال بينها وبين أن تمس الارض ، والا .. ماتت الارض !!**

ولم يكن يغادر حجرته الا لماما ، ليتسكع فى فناء المزرعة ، متحاشـيا نظـرات الآخرين ، منصرفا الى قرض أظافـره ، ثم لايلبث أن يرتد عائدا الى غرفته ، غير مبال بما اذا كان الباب يوصد خلفه أو يترك دون غلق . وكانت المرأة تمزج قدرا من

« الصودا » بالطعام الذى تحمله اليه ، اذ لم يعد يتناول وجباته مع الآخرين ، أو يجلس مع أحد !٠٠ وأدى هذا الانطواء منه الى نوع من الطمأنينة غير عادى ، هبط على المزرعة ، وكأنما لم يعد له أى وجود ٠٠ بل ان كل ذكرى له تبددت من ذهن « آلتونين » فى ذلك اليوم ، وهو ماض فى العمل مع المرأة ، فى الحقل !

ولم يكن ثمة سبيل الى أطعمة ساخنة ، اذ انصرفت المرأة عن الطهو الى المشاركة فى العمل بالحقل ٠ لذلك حملت معها بعض الاغذية الجافة فى ذلك اليوم ، حتى اذا بلغت الشمس ذروتها ، فى كبد السماء ، جلس الاثنان على حافة الغابة ليأكلا ، بعد ان أطلق « آلتونين » الفرس من عقالها ، وقدم اليها حفنة أو اثنتين من الجودار ، جمعهما من قاع صندوق خشبى فى المخزن . ثم تركها تهيم على سجيتها فى الغابة ٠ وغسلت المرأة يديها فى عين ماء قريبة، ثم جففتهما بأن مسحتهما فى العشب، واقتطعت بعض الخبز فقدمته لآلتونين ٠وشعر هو بنشوة !٠٠ لقد قطعت له الخبز ، هاتان اليدان القويتان ، الجميلتان !٠٠ وراح يحدق فى تلكما اليدين اللتين أصابهما العمل ببعض الخدوش ، وأضفت التربة عليهما بعض الخشونة ٠٠ وكانت نظراته صريحة ، مؤدبة ، متتابعة ، بينما كان منصرفا الى قضم الخبز بعد أن يبلله بشىء من البيرة المتخمرة ، الخفيفة ، بدلا من اللبن ٠٠ فقد كان من الضرورى أن يباع كل اللبن للمعمل، لانه كان المورد الوحيد للمال فى هذا الوقت من السنة !

وهكذا ، كانا وحيدين ٠٠ معا ! ٠٠ كانا يعملان فى الارض معا ، وهاهما يستريحان معا ٠٠ هاهما يستمتعان معا بفترة الراحة القصيرة ، فى الظهيرة ، كأى عاملين زراعيين !٠٠ وانبثقت فى نفس « آلتونين » غبطة ناعمة ، دافئة ، فيها نفحة من الحياة ٠٠ غبطة لاقبل له بها قط !٠٠ ولم يحاول ان يعرف

مأتاها ، أو يبحث عن سببها ، بل انه تجنب كل تفكير فى الواقع ، فقد أراد أن يعيش ذلك اليوم طوله ، وان يستمرىء العيش الى أقصى مايستطيع ، وكأنه يوم عيد أتى فى أعقاب اسبوع كئيب امتد دهرا كاملا ! .. أو كأنه يوم عطلة .. يوم قدسى ، مبارك ، فى نظره !

واذ فرغ من طعامه ، استلقى على العشب وبسط أطرافه . كانت الشمس قد أمدت الارض بالدفء ، بينما تولت الريح تجفيفها ، اذ ساقت أمامها الرطوبة التى عملت الحرارة على تبخيرها !.. ورقدت المرأة بدورها ، وقد أسلمت رأسها الى ذراعيها ، وراحت تحملق فى السماء والسحب ذات اللون الفضى . وكان وجهها دافئا ، من أثر العمل ، وقد انبعث من شعرها المتناثر وهج لطيف !.. ولانت نظرات عينيها وهى مستلقية تتأمل السماء فى استغراق وتفكير !

لم يكونا قد تبادلا أى حديث وهما يعملان فى ذلك الصباح ، لا ولا أثناء تناول الغداء . على أن « آلتونين » أحس الآن بحاجة الى الكلام .. بحاجة الى أن يعبر عن ذلك الشىء الرائع ، المبهم ، الذى كان يسكب الغبطة فى أعماقه .. فلم يلبث أن قال فى استحياء ، دون أن ينظر نحو المرأة : « ترى ما الذى سيكون من أمر الشيخ هيرمان فى المدينة ؟ »

ولم يكونا قد تحدثا فى غير مسائل الزراعة ، منذ وفد « آلتونين » على المزرعة . أما الآن ، فان المرأة لم تر بأسا فى أن تقول ، دون أن تجيب مباشرة على السؤال : « لقد انقضى عامان تقريبا على آخر مرة كنت فيها فى المدينة » . واستطردت وهى تتطلع الى السماء ، وكأنها تخاطب نفسها : « كنت أظن - فى باكورة الشباب - اننى لن أقوى قط على الحياة فى الريف ! »

ومسحت وجهها بيدها ، فى حركة واهنة ، وكأنها تمحو

عنه كل ما تبقى من آثار الماضى الذى لارجعة له، ثم عادت تقول : « ما أظن الا ان قدمى المرء لن تلبثا أن تتعبا من السير فى الطرقات المرصوفة ، الآن .. ولا بد ان الضوء هناك يبهر عينى أمثالى ويعشيهما .. **ان المدينة مكان موبوء .. مكان مفعم بالكذب ، يشيع القلق فى الناس ، ويجعلهم مجرد هياكل نخرة ، خاوية .. يجعلهم صورا زائفة ! »**

★ ★ ★

• **وعادت** الى الصمت ثانية ، وهى تحملق فى السحب . وأحس « آلتونين » بأن التعبير عما كان يعتمل فى نفسه أمر عسير ، فقال فى صوت خافت : « ان المصنع مكان موبوء كذلك .. آنك اذا ماقضيت ساعات العمل الثمانى فيه ، ثم غادرته ، لم تتمالكى أن تحدقى فى راحتيك ، وان تتساءلى فى عجب : أحقا انى قد أديت عملا ما ؟! »

وسادهما السكون فترة . وكانت الارض دافئة ، جففتها الريح . وتناهت اليهما ، فى مرقديهما عند حافة الغابة ، رائحة الارض التى قلبها المحراث .. ذلك العبير الثقيل ، الذى يبعث فى النفس راحة .. عبير التربة !

وعادت المرأة تقول : « لقد عنى أبى بتربيتى ، وأرسلنى الى المدرسة . كان صاحب مخبز ، غير متعلم ، ولكنه كان شديد الحزم قوى الارادة ، فاستطاع أن يشق طريقه صعدا ، وان يجمع ثروة . وكان من عادتى أن أدعو زميلات الدراسة الى البيت ، فيتناولن من فطائره ويبتسمن ، ولكنهن كن يسخرن منه - اذا ما أولاهن ظهره - ويهزأن ، حتى أصبحت أشعر بالخجل لانتسابى اليه . وما لبثت أن انكببت على قراءة الكتب ، فكنت أصدق كل ما يرد فيها . وبدأت أشعر بالخيلاء !.. وكان أبى يمتلك سيارة .. وكنت رعناء ، مغرورة ، أبدد نقوده فى شراء الثياب لنفسى ، وأتردد على الحفلات ... »

ومرت بيدها على وجهها مرة أخرى ، فراقبها « آلتونين » وهى « تمحو » كل تلك الذكريات التافهة !.. ونظر الى ساعدها العارى .. والى الجسد المتين البنيان ، المسترخى على الاعشاب فى ثياب العمل القذرة .. والى عرقوبيها العاريين ، وقد لطخهما الوحل ، وبانت عروقهما زرقاء تحت البشرة المخشوشنة .. ثم انتقل بصره الى الحذاءين الباليين . وفجأة ، سألته المرأة : « هل قضيت أمدا طويلاً فى المصنع ياآلتونين؟ »

وأجفل الرجل فى مرقده ، وسرت فى وجهه الاسمر حمرة داكنة ، ولكنه رد على نظرة المرأة المتسائلة ، بنظرة صريحة ، صادقة ، وأجاب : « ثمانى سنوات » .. ثم أشاح بوجهه ، وأضاف بصوت مرتجف بعض الشىء : « **ان اسمى ليس آلتونين، فى الواقع !** »

وتسللت الشمس تطل من ثنايا السحب ، فتحركت المرأة لترفع راحتها وكأنها تقى عينيها وهج الشمس . واستطرد « آلتونين » وقد استرد هدوءه وزمام نفسه : « **كذلك كذبت حين قلت اننى أعزب . فان لى زوجة وطفلا - فى السابعة من عمره - هناك .. فى شرق فنلندا !** »

وكان صوته ثابتا ، ولكنه ضم قبضتيه الضخمتين - فى حركة لاشعورية - وسرح بصره عبر الحقل الى أفق بعيد . وظلت المرأة تحجب عينيها براحتها ، وكأنها لم تسمع ماقاله الرجل . بل قالت ، وكأنها تترجم ما كان يدور بخاطرها من أفكار ، مستأنفة حديثها الاول :

- ولقد تظاهر « هو » بأنه من أسرة كريمة .. وكان يتكلم عن أعمال وصفقات كبيرة ، وينادى رؤساء الخدم - فى الاماكن العامة الراقية - بأسمائهم الاولى ! .. وأحسن معاملتى الى الدرجة التى جعلتنى أخدع بمظهره ، فأثثنا بيتا بديعا .. بأموال أبى !.. لقد خدع كل من لم يكن يعرفه ، وابتهج

معارفه بهذا ، بطبيعة الحال ، وآزروه دائما ، فلم تصدر عنهم أية اشارة تنبهني • ورغم انه كان اذ ذاك قد قضى فترة في مصح للامراض العقلية – وهي حقيقة مخزية في واقعها – الا أنهم حجبوها عني ! •• وكنت اذ ذاك طفلة رعناء • • بل انني كنت مزهوة به ، وكنت أضحك مما كان يصدر منه عندما تتوتر أعصابه •• ثم انني كنت في ذلك الحين أحتسي الخمر !

واستوت جالسة ، على حين غرة ، وبدأت تجمع بقايا الطعام • ونهض « آلتونين » ، فاستند الى جذع أحمر من جذوع أشجار الصنوبر ، وراح يتأملها بنظرات صريحة ، ويتأمل استدارة ردفيها الرشيقين ، تحت ثوبها الرخيص القذر • وأفعم صدره بألم مستعذب ، وهو يصور لنفسه ما كان خليقا بأن تكون عليه صورة هذه المرأة ، لو أن الصلابة التى تأخذ بها نفسها وبدنها ، لانت وتلاشت ! •• تصورها تقبل مبتسمة عبر الحقل المحروث حديثا ، وقد أمسكت بيد طفل •• طفلهما •• ويقتربان ، سائرين خلال الحقل العتيق ! •• كانت قوية وفي وسعها أن تعمل بيديها •• وكانت تسير على الارض التى قلب المحراث سطحها ، بخطوات ثابتة ، مطمئنة • وقال « آلتونين » ويده على جذع الصنوبر :

– ماحظيت يوما بمال سوى ما كسبته بعرقي • ومع ذلك فقد كنت أمتلك الدار التى أسكنها ، اذ منحوني قرضا للبناء • وكانت لي حديقة أجتث منها الاعشاب وأرويها بيدي ، وسقيفة تضم منضدة كمناضد الورش ، وبعض الادوات ، وكنت أقضي فيها سويعات المساء ، أصنع السلع الخزفية !

وكف عن الكلام بغتة ، وأرسل من بين شفتيه صفيرا يدعو به الفرس ، فأقبلت نحوه مندفعة خلال الاحراش ، وأخذ يربت عرفها ، بينما عاد يتحدث الى المرأة مسترسلا في روايته ، وقد أولته ظهرها ، وأخذت تعيد القدحين – اللذين شربا الجعة

فيهما - الى السلة : « وفى احدى أمسيات الخريف الماضى ، تناولت قبعتى ، ورحلت .. هكذا ، دون مقدمات . غادرت الدار عندما وجدت اننى لم أعد أحتمل ! .. ولم أودع أحدا .. كل ماهنالك هو اننى تناولت قبعتى عن المشجب ، وخرجت ! »

وقاد الفرس الى الحقل ، فشدها الى المحراث ، بينما ملأت المرأة سلتها بتقاوى البطاطس التى كانت فى كيس قريب . وواصلا العمل ، حتى جنحت الشمس نحو المغيب ، و «آلتونين» فى المقدمة يقلب سطح الحقل الذى كانت الاعشاب البرية قد نبتت فيه ، والمرأة خلفه تلقى البذور فى الشقوق التى يحدثها المحراث .. ثم تستوى وتعدل من استقامة ظهرها الذى أرهقه طول الانحناء ، بينما يهيل « آلتونين » التربة على البطاطس ، فيغطى الشقوق من جديد . وكان الحقل طويلا ، فلم يفرغا من مهمتهما هذه قبل أن تشيع حمرة الشمس الغاربة فى السماء ، ويستلقى ظل الفرس على الارض طويلا ، وكأنه يريد أن يمتد الى مالا نهاية !

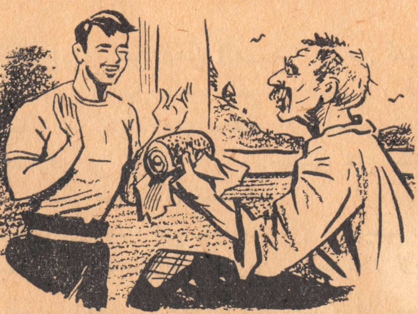
وعادا الى بيت المزرعة فى صمت ، وقد حملت المرأة سلتها وأكياس التقاوى الفارغة ، والرجل خلفها يقود الفرس البيضاء المكدودة

★ ★ ★

◆ **وعاد** « هيرمان » فى اليوم التالى . وكان يسير فى الدرب بخطى الشيخ المترنحة ، وقد حمل حقيبته البالية المربوطة بالخيط . كان وجهه أصفر ، مغبرا ، وقد أرهقه التعب . وما أن حياهما ، حتى أوى الى فراشه مباشرة . ولكن « آلتونين » وجده -حين عاد الى المنزل فى المساء- جالسا فى مكانه المعهود ، بجوار النافذة . وعندما رآه الشيخ ، قدم اليه رغيفا صغيرا مصنوعا من دقيق القمح ، وهو يقول فى ابتسامة حزينة : « هاك هدية من المدينة ! »

وتلقاها « آلتونين » وقد غمر فؤاده عرفان دافىء ٠٠ لقد انقضى عشرون عاما مذ حفل أحد بأن يحضر له هدية ، مهما يصغر شأنها ! ٠٠ وكان يعرف مدى بخل الشيخ وتقتيره ، فزاد هذا من قدر الهدية فى نظره ٠ وقال وهو يقلبها بين يديه فى ارتباك :

ـ ما الذى قاله الطبيب لك ؟



ـ وماذا تراه يملك أن يقول ؟ ٠٠ لقد أمرنى فى البداية بأن انضو ثيابى ، ثم أخذ يدق صدرى وينصت وهو يأمرنى بأن أتنفس بعمق ، ثم بأن أحبس أنفاسى ٠٠ وقال أخيرا اننى أشكو من ضيق التنفس ٠٠ من الربو ! ٠٠ فقلت له : « **كان بوسعى أن أنبئك بهذا ، فما كانت معرفته تتطلب أن أطلع على كتب الأطباء !** » ٠٠ قال : « والقلب ضعيف ! » ، فقلت : « **ولم لا ، وقد ظل يعمل سبعا وستين سنة ؟ ٠٠ ان أقل من هذا العمر يكفى لاضعافه !** » ٠٠ فقال وهو يدفع الى بشىء يشبه العلبة الصغيرة : « ابصق هنا ! » ٠٠ ولم أجد مجالا للجدال ، فبصقت له بصقة كبيرة ٠ ثم أراد أن يدخلنى المستشفى ، وسألنى عن مقدار ما أحمل من نقود ٠ ٠ **فهم يبنون مستشفيات ينفقون عليها اموالا طائلة ، ومن ثم فلا**

بد لهم أن يرسلوا اليها من يملكون نقودا يدفعونها ، بطبيعة الحال . اما أنا فقد قلت له : « لا داعى لهذا .. سأموت حيث عشت ! » ..وعلى هذا ، فقد كتب لى دواء..وشد ما كان غاليا! .. **فلم أكد أسمع ثمنه ، حتى خيل الى اننى لن أقبل شراءه ، ولكننى راجعت نفسى قائلا : « من حق الذين يبيعونه أن يرتزقوا ، كما يفعل أى مخلوق آخر ! » .. ولهذا لم أساوم على الاطلاق !**

ولاح كأنما قد انزاح عن ذهن الشيخ كابوس ثقيل ، بمجرد عودته الى الدار التى ألفها وألف العيش فيها ، فاذا بسروره وارتياحه ينسيانه ما اعتاد من تحفظ . وأحس « آلتونين » بغبطة تنبعث مشرقة فى فؤاده ، وهو جالس على المقعد الخشبى ممسكا بالهدية ، فلم يلبث أن تساءل :

ـ وهل وجدت أى عناء فى البحث عن الطبيب ؟

ـ لقد ذهبت من المحطه الى أقاربى مباشرة ، لأبيت عندهم ليلتى ، وهم الذين أعطونى عنوان الطبيب ، فالتمست طريقى اليه بسؤال الناس الذين كانوا يصادفوننى . وعندما وصلت، دققت الجرس ، فأقبلت احدى الخادمات المتأنقات ، المتحذلقات، وقالت اننى لن استطيع أن أقابل الطبيب قبل مضى ساعتين أخريين . ووجدت أن الوقت متسع أمامى ، فجلست على درجات الدار ، وتناولت لقمة للغداء . وبعد أكثر من ساعة من جلوسى هناك ، أقبل أناس آخرون ودقوا الجرس ، فأدخلتهم الخادم الى الدار . وما لبثت أن أنبأتنى بأن فى وسعى أن أدخل أنا الآخر، فدخلت ، وانتظرت حتى يحين دورى . وفى تلك الاثناء ، شعرت بالجوع ، فأكلت لقمة أخرى .. وهكذا ترى أن الامر لم يكن متعبا فى شىء !

عاد « التونين » يسأله : « وهل الدواء جيد ؟ »

فابتسم الشيخ قائلا : « كان غاليا ... غاليا الى درجة

فظيعة !٠٠ ولكنه قوى ٠ لقد دار رأسى حين شربت ملء قدح منه لتجربته ٠٠ بل انه أوشك أن يخنق أنفاسى ! »

فقال آلتونين : « لعلك تناولت أكثر من الجرعة التى ينبغى تناولها فى المرة الواحدة ! »

ـ لقد قالوا اننى يجب أن أتناول ملء ملعقة كبيرة ، ولكننى رأيت أن أجربه ٠٠ مجرد تجربة لاتبين ما اذا كان قويا ٠٠على انه دواء جيد ، فقد أحسست بعده بنشاط وخفة حركة !

ولاح لآلتونين أن الغرفة قد تبدلت عما ألفها عليه ، فأفعمت بالدفء والحياة ٠ وكان آلشفق الباهت يطول ويمتد ـ فى هذا الفصل من السنة ـ الى أن يحين موعد النوم ، ومن ثم لم تكن هناك حاجة الى انارة الضوء الكهربائي ٠ **وبدا كأنما كانت الامسية الهادئة ، الناعمة ، تقرب مابين الثلاثة : المرأة ، والشيخ ، و « آلتونين » !٠٠ وتقلص الرجل «المنوام» ـ الذى كان فى الغرفة الداخلية ـ حتى لم يعد يتجاوز فى أذهانهم مجرد اختلاجة تقزز على هامش وعيهم !٠٠** وانصت « آلتونين » فى صمت الى قصص الشيخ ، بينما كانت المرأة تغسل الصحاف الى جوار الفرن ٠ وكأنما أعار الدواء جسد « هيرمان » قوة ، فاذا به ينتعش ويسترجع ذكريات حياته الماضية ٠٠ أو لعله أحس فى الواقع بوهنه وضعفه ، وشعر بأن عمره يجرى نحو نهايته ، فأطلق الذكريات من عقالها ، لترد عقرب الزمن عن سيره !

وراح الشيخ يقول فى صوت خافت ، وهو يلقى نحو الفرن نظرة ماكرة : « تصور اننى فى شبابى كنت أذهب للرقص فى جميع القرى المحيطة بنا ٠٠ كنت راقصا ممتازا ٠ ٠ أستاذا فى الرقص !٠٠وكانت قدماى فى تلك الايام خفيفتى الحركة!٠٠ بل اننى ـ لشدة ولعى بالرقص اذ ذاك ـ ابتعت مرة زوجا من الاحذية الخفيفة ، حتى تزداد قدماى رشاقة ٠وكنت اذا اجتزت

أرضا موحلة ، أحملهما فى يدى حتى لاتتسخا ، ولم أكن ألبسهما الا عند الرقص. لقد أثارا ضجة فى أول ليلة وضعتهما فى رجلى ! »

وابتسم « آلتونين » . ما أطول الزمن الذى مر دون أن يبتسم بكل هذا الانطلاق ! .. ومع ذلك ، فقد سرت فى الحجرة رعشة من الاسى ، وبدا أن الحنين الى الاشياء التى ولت يمتزج بضوء الشفق الباهت الذى كانت السمرة تدب فيه

وعاد الشيخ يقول فى صوت خافت ، تتخلل عباراته فترات طويلة من الصمت :

ـ هكذا كنت فى شبابى أعبث وألهو . أما الآن ، فقد ولت أيام اللهو والرقص .. ولكننى لا أريد أن أثقل طويلا على الغير ، وما أرانى خائفا من أن انتقل الى « دار » لايتجاوز طولها مترين فى جوف الارض ! .. ان عدم الايمان بالنار هو « الموضة » المتفشية فى هذه الأيام ، ولو انه ينطوى على الاعتقاد بأنه ليست هناك جنة أيضا .. جنة من ذلك النوع الذى كانت أمى تصفه لى ! .. ولهذا لم أحفل بالذهاب الى الكنيسة منذ سنوات عديدة .. ولكننى سأذهب فى أول فرصة يقام فيها قداس ومناولة .. فلست أظنهم قد غيروا من عادة تناول القربان المقدس والنبيذ على كل حال .. وقد وعدت أمى العزيزة بأن أتناول القربان المقدس اذا ماشعرت بأن منيتى تقترب !

فهتف آلتونين : « لاتتحدث عن الموت يا هيرمان » .. ولكنه سمع صوته ينطلق بالزيف ، والمجاملة الكاذبة .. فلماذا لايتكلم المرء عن الموت اذا كان فى ذلك راحة لنفسه وباله ؟ .. ما كان لهؤلاء الثلاثة ـ الذين ضمتهم الحجرة فى ذلك المساء ـ ان يخففوا من وقع الكلمة الضخمة بالاشفاق والكذب ! .. قد يليق هذا بمن يعيشون فى جماعات كبيرة ، يتوارى كل منهم فيها وراء الآخر .. أما هؤلاء الثلاثة ، فقد فقدت عادات الجماعة

معناها لديهم !

وفكر « آلتونين » فى الموت المقدر عليه ٠٠ لقد طلق الماضى بمحض اختياره ورغبته ، فتناول قبعته ، وانطلق في الطريق التى اسبغ عليها الخريف جفافه ، مبتعدا عن مداخن المصنع التى كانت تنتصب سوداء ، تخيم عليها سماء خلعت عليها شمس الغروب حمرة قانية !٠٠ ولم يكن يفكر فى العودة ٠٠ لقد انقضى كل عهد له بذلك الماضى ٠٠ وكان يوقن من انه سيكون يوم وفاته ٠٠ وحيدا !

لقد كان دائما صامتا منطويا ، لم يعتمد على أحد سوى نفسه ، مذ كان طفلا صغيرا يعيره الاطفال الآخرون بعناده وصلابة رأيه ٠ ثم ، من له في الدنيا ، يؤثره بعاطفة سوى العطف العادى العابر الذى يستشعره الانسان نحو زميل له في الانسانية ؟!

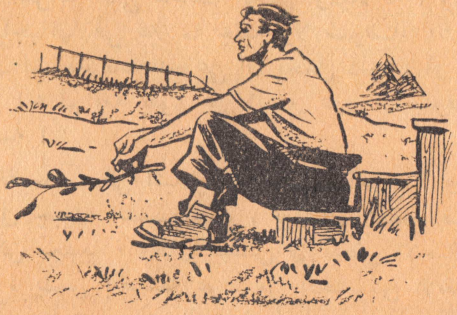
وكان مدركا لما أوتى من جسد قوى ، وعضلات مفتولة ، وقلب قوى ، ورئتين سليمتين ٠٠ كلها تبشر – حسب مقاييس البشر – بحياة طويلة ، وقد تبشر أيضا بصراع طويل مع الموت !٠٠ صراع على غير ارادة ٠٠ صراع فطرى مع العدم !٠٠ ولقد تمر أسابيع ، وتنتظم الشهور فى أعوام ، وتجىء أيام طيبة ، كما تجىء أيام سوء ٠٠ وتتلاشى صور الماضى وذكرياته من ذهنه !٠٠ كانت أمامه طريق طويلة ، لا أنيس فيها ولا رفيق ٠٠ ومع ذلك ، فما كان يطمع – وهو جالس على مقعده الخشبى فى تلك الحجرة – ولا كان يتصور حياة أسعد من تلك التى أصبح يحياها !

ولقد كاد يذهل عندما تبين أن حياته كانت – بوضعها الراهن – حياة طيبة ، وأنه أصبح الآن أكثر طمأنينة ، وأوفر رضى وغبطة مما كان فى أى وقت مضى !٠٠ بل انه أحس بسعادة كاملة ، غامرة ، فى تلك اللحظة ، وقد تحولت المرأة

عن مكانها بجوار الموقد ، والتفتت اليه ووجهها يتألق رغم شحوبه ، وغامت بوادر الظلام فحجبت عينيها الزرقاوين الصارمتى النظرات .. بينما مال الشيخ على المقعد المجاور للنافذة ، وأخذ يتحدث فى صوت خفيض عن الموت والقربان المقدس !

ألا ما أبسط الحياة وأضألها !.. وما أقل ما يحتاج اليه الانسان ليكون سعيدا : حجرة معتمة ، وحركات مألوفة من امرأة غريبة عنه تقف الى جوار الفرن ، وود ناعم لطيف يبديه له شيخ يقترب من القبر !.. ما أقل ما كان بحاجة اليه !.. وخفق قلبه ، وكأنما صحا ليستشعر السعادة العابرة التى أقبلت عليه ، بينما كان النهار يحتضر !

وتمتمت شفتاه بكلمات .. بدعاء كى لا يحرم من هذه الغبطة الناعمة !.. **فقد كان يعرف جشع الحياة ، وكيف يمضي الخوف من المستقبل في ملاحقة السعادة كالشبح !.. ما أغلى الثمن الذى دفعه لأهنأ ساعاته تلك !.. كان ثمنا باهظا جدا .. ومع ذلك فقد كان مستعدا لان يدفع - من أجل هذه الساعة الراهنة - أى ثمن يطلب اليه دفعه !..** وأخذ يدعو بشفتين مرتجفتين كى لا تنتزع منه هذه الهناءة .. كما انتزع منه الكثير مما كان يطمئن اليه ، ويأمل فيه، ويحلم به !



الفصل السادس

• **وتلاشى** الربيع فى الصيف ، فى ذلك الريف الساكن • وازدادت المحصولات اليافعة خضرة ونموا • وكانت الاجراس المعلقة فى رقاب البقر تصلصل فى الامسيات ، وهى مارة ببوابة المزرعه متجهة صوب الغابة ، اذ أخليت الحظيرة وطليت جدرانها بالجير

وكان الحر يشتد فى غرفة الجلوس أثناء الليل ، فانتقل « آلتونين » الى سقيفة الغلال التى كان يشيع فى جوها عبير الثياب المغسولة ، فيسرى الى الرئتين رطبا عليلا • وكان يجلس على الدرجات المفضية الى داخل الدار ، يرقب الاعشاب النامية فى الفناء ، ويسرح بصره نحو القرية النائية ، والسماء العالية ، ويستلقى على ملاءة خشنة نشرت على القش الجاف

وكان المزارع الشيخ مريضا •• وان لم يشك قط ، ولا بدد الكلمات جزافا فى وصف حاله • ولكن أتفه الاعمال كان يرهقه ويقطع أنفاسه • كان جسده يسعى الى الموت ، ومن ثم أصبح عصيا ، متمردا عليه • وتبين - فى دهشة

محنقة ـ أن أطرافه التى عاشت كخدم أوفياء له ، والتى طالما اضطلعت بواجباتها فى غير ما جلبة ولا ضوضاء .. تبين ان هذه الاطراف لم تعد تساعده على أن يحمل دلوا ، أو حزمة من وقود .. بل انه لم يعد يقوى على السير دون ان يتوقف مرارا ليلتقط أنفاسه !

وأفعمت نفسه ـ فى البداية ـ بغضب أهوج ، وتدافع الدم حاميا الى جبينه الشاحب ، بيد ان الكفاح ضد هذا التطور لم يكن مجديا . وكان يجلس فى بعض الاحيان على حافة الحقل ، يمس بأصبعه عودا من الحشيش الاخضر ، أو يتحسس فى وهن احدى الزهور الفطرية . كما كان ـ فى أحيان أخرى ـ يراقب « آلتونين » وهو يعمل ، ويبادله بضع كلمات متثاقلة ، خالية من المعانى .. وكأنما كان ينشد ان يحس بأن شخصا من جنسه على مقربة منه ، فكان وجود « آلتونين » الى جانبه يبث فى نفسه قوة !

وكان يجلس القرفصاء على درجات بيت المزرعة ، يتأمل شمس الصيف ، وتتابع الضوء والظلال ، وهو يثبت نصل منجل فى يد خشبية ، أو يشحذ أسنان مجرفة زراعية .. وقد يعلق بصره المضمحل بآلتونين وهو يعمل . كان «آلتونين» فى صدر شبابه .. فى عنفوان قواه وفتوته .. وكان شديد العزم ، مفتول العضل ، عريض المنكبين ، نحيل الخصر ، متسق الاطراف . وكان الشيخ يرتشف شيئا من الحيوية والنشاط من هذا النبع الفياض دون ان يفطن ، فلا يلبث أن يشعر بأن الضغط ينزاح عن كاهليه تدريجا ، والنور يبدد ظلمة عينيه ، واذا خطواته تستعيد خفتها ، وكأنما تولدت فى أعماقه قوة غير منظورة !

كذلك كان يحب الجلوس على مقربة من الابقار ، أثناء حلبها ، يربت ظهورها ، ويتأمل المرأة التى تحلبها . كانت

ثمة غريزة ـ أقوى من العقـل والادراك ـ تجتذبه نحو كل ماهو قوى ، موفور الدفء والحياة !٠٠ ولو انه عاش فى وقت غير تلك الاوقات ، وقد أوتى ثروة ومزرعة كبيرة ، لما تردد فى أن يستأجر امرأة شابة قوية لتنام فى أحضانه بالليل ، فتبث من حرارتها فى جسده المقرور ٠٠ ولعل عمره كان يمتد اذ ذاك ويطول !٠٠ لقـد عاش عمـره وثيق الصلة بالارض ، وعرف كيف تسرى القوة والحيـاة من جسم الى جسم ، فلم يكن فى هذا الفعـل ما يضيره أو يضره ٠٠ ولكنه لم يعـد يستشعر آية رغبة فى آن يعيش أطول ممـا عاش ٠٠ كانت أيامه تنصرم ، وقد ولى عهده ، ولم تعد له من أمنية سوى ان يرى الصيف حتى نهايته ، ويرى محصـولا وفيرا طيبا للمرة الاخيرة !

وكان ـ كغيره من الشيوخ الطاعنين ـ يحس بعذوبة وراحة اذا ما فكر فى الموت !٠٠ وكان يعتز بالارض التى توشك أن تضمه اليها !٠٠ لم يكن ثمة ما أشاع المرارة فى نفسه ـ خلال حياته ـ سوى قسوة الاقدار ، والاسى ، والخيبة ٠٠ خيبـة الآمال !٠٠ وكانت ذكريات المـاضى تتدفق فى سكينة على ذهنه وهو جالس على درجات دار المزرعة العتيقة ، فلا يزداد الا اقتناعا بأن الموت لن يفد ـ اذا ما أقبل ـ كعدو !

أما « آلتونين » ، فكان كثيرا ما يرقب الشيخ فى اشـفاق دافق

* * *

• **وتوالت** أيام الصيف الذهبيـة ، ولياليه البيضـاء ، والعصافير تغرد صداحة فوق المحصول الغنى ، الوفير ، الذى كان يستكمل نموه ، وجسد الشيخ الضـامر يزداد نحولا ، حتى أصبحت ثيابه مهدلة على هيكله ، وشفت بشرته الشاحبة ، فظهرت عظام وجهه ، وبرز أنفه ، وتراخى شارباه الاشيبان

على شفتيه الرفيعتين اللتين غاض لونهما . كان هو الموت ، ممثلا فى شكل شيخ طاعن ، يجلس الى جانب « آلتونين » ساكنا ، ودودا ، لا يعتوره أى خوف أو جزع !.. بينما كان جسد « آلتونين » يقوم عاليا ، ضخما ، الى جواره ، وكأن شعور هذا الجسد القوى بحياته وحيويته قد تضاعف !.. كانت قبضته الضخمة تبدو وكأنها تمسك بالحياة ، حين ينتزع حزمة من الاعشاب ليمسح بها حذاءيه ، أو حين ينحنى على الفرن فى الامسيات ليتناول حجر المسن من فوق الرف القائم خلفه ، فيميل - فى آنحناءته - على المرأة الواقفة لدى الفرن .. اذ ذاك كان كل منهما ينظر الى الآخر فى وقار وصمت ووجوم .. وقد جلس الموت بقربهما ممثلا فى شكل « هيرمان » المكدود ، الهادىء ، المألوف !

كانت المرأة تحدق - فى رصانة ، وسكون - فى عينى هذا الرجل الغريب .. الذى لم يعد غريبا !.. **كان وجوده يبث فيها الشعور بالامن والطمأنينة ، اذ كانت يداه الكبيرتان تقبضان على الاشياء بقوة وثبات . كان مقبض الفأس يستكين لقبضته .. وكانت الفرس ترفع حافرها فتسنده الى ركبته دون تمنع أو مقاومة .. فمن أين لها هذه الطمأنينة ، ومن أين له هذا الاعتداد ؟!**

وحاولت المرأة ان تتصوره فى المدينة بين البنائين الذين تعفرهم الاتربة ، ويكسب العمل أطرافهم خشونة .. أو بين جحافل المتعلقين بالترام ، وقوفا على سلمه فى سويعات الزحام !.. حاولت ان تتمثله فى خيالها وهو يعمل وسط ضجيج الآلات المسترسل ، الرتيب ، فى مصنع كبير ، وضوء الشمس يتسلل خلال نوافذ متربة ليغمره ، الى أن يرتفع الصفير العالى الاجش المؤذن بانتهاء ساعات العمل ، فيفرق جموع العمال ويبعثرهم فى طرق كئيبة .. طرق تحف بها

منازل صغيرة ، بنيت كلها على طراز واحد ، بين أشجار وحدائق متشابهة ، على نسق واحد !

لعله كان يصلح فى مصنع المدينة ، كما هو صالح فى المزرعة الريفية .. لعله كان يملك - بنفس الاعتداد الذى أوتيه - أن يدير آلة معقدة ، أو أن يفتح باب كوخ حديث الطلاء ، بين أشجار الصنوبر ، عندما تنبعث صافرة بخارية تسمح له بمغادرة المصنع . ولكنه - على ما خطر لها - كان فى ذلك الوسط بلا معنى أو أهمية ، سواء لنفسه أو لغيره.. مجرد فرد بين مئات ، يتشابهون جميعا فى الوجوه ، والايدى، والعيون .. ويتشابهون فى تمنى الحصول على زيادة في الاجر .. ويتشابهون فى الحاجة الى الغذاء والمأوى !.. هناك كان ينمو ويعمل دون ما حياة خاصة به ، أما هنا ، فقد كان حرا .. كان يفلح الارض .. كان شخصا لا غنى عنه ، فبدونه تظل الحقول مهملة ، ويتخمر اللبن فى دلائه ويتخثر ، دون ان ينقل الى المعمل !.. **لم يكن هنا من يشبهه فى شىء ، ولا من يقاس اليه أو يقارن به !.. هناك ، كان ثمة من يحل محله اذا هو ترك المصنع .. أما هنا ، فلو انه ترك هذا المكان، لما كان ثمة من يخلفه أو يحل محله !**

* * *

• **وخفق** قلب المرأة فى صدرها مختلجا ، وتقلصت راحتاها بشدة ، وقد أفزعها التفكير فى انه قد يتلاشى يوما من حياتها . فقد كشف هذا التفكير عن شىء ما كانت راغبة فى أن تشعر به أو ان تقره .. **كشف عن عاطفة دافئة انبثقت من أعماقها فملأت قلبها حتى أترعته !.. آه لو قدر لهذا الرجل يوما ان يحمل كيس متاعه من سقيفة اختزان الغلال ، وان يتناول قبعته عن المشجب ، ويرحل ، لخلف وراءه فراغا أشد قسوة وألما من أى شىء عرفته فى حياتها !**

ومع ذلك فانه لم يكن سوى أجير .. عامل فى المزرعة ، يرتدى حذاءين باليين ، ولا يستخدم من أدوات المائدة ـ اذا أكل ـ سوى السكين ، ولا يحمل دائما منديلا !.. وكانت فى يوم الاثنين من كل أسبوع تغسل قميصه على ضفه الجدول ، وتنظفه من عرق جسده القوى .. وهى التى نشأت فى المدينة ، وحضرت مآدب العشاء فى أثواب تكشف عن كتفيها تحت أضواء الثريات البلوريه ، وقرأت الكتب ، واجتازت الامتحانات ، وألمت بكثير مما كان يبدو ذا قيمة تحت قبة المكتبة فى مدرستها !.. ولقد خلعت نفسها على رجل غير جدير بها .. وبالرغم من ذلك ، فانها عاشت تحاول ان تقنع نفسها بأنها قد ظفرت بما يكفيها ويرضيها ، مع ان جسدها كان كالحوض الجاف ، الذى لم تجر الحياة فيه من قبل !

لقد رأت من قبل البيوت الحجرية تتطاول الى عنان السماء ، والمصابيح الكاشفة للسيارات التى تنساب على الطرق المكسوة بالاسفلت ، واشارات المرور الكهربائية ، وراضت نفسها على أن ترى هذه الاشياء فاتنة ، رائعة .. لانها قرأت عنها ، ولأنها سمعت عنها انها كذلك !.. ولكن ، ماقيمة كل هذا لديها الآن بالقياس الى الفراغ القاتل الذى قد يخلفه رحيل هذا الرجل .. الرجل الجاد ، الصامت ، الذى يعمل فى مزرعتها ، والذى يثبت عليها بصره فى سويعات المساء الهادئة ، وكأنه يجد فى تأملها راحة ؟.. ما الذى أصبح يعنيها مما قد يجول بأفكار أولئك الناس الذين يعيشون فى تلك الدنيا النائية ، حيث كل كلمة أكذوبة ، وكل لمسة أكذوبة ، وحيث الاجسام واهنة ، وحيث تعتبر سرعة البديهة وحضور الذهن أهم لدى القوم من الصحة واللطف وكرم المعاملة ؟!

لقد تعلمت ـ وما كان أقساه من درس ! ـ ان تلك الدنيا

الاخرى ليست ، بالنسبة اليها ، سوى زيف خاو !٠٠ لم تعد لشيء قيمة لديها ، فيما عدا تلك الاشياء التى كانت تشعر انها من حقها بالفعل ، وانها ملك لها في الواقع !٠٠ وكان هذا الادراك يفوق – في اعتبارها – كل السنوات المضيعة ٠٠ السنوات التى فقدتها ، بكل ما كان يملأها من غرور ، واثم ، وعار !

★ ★ ★

• **وانحنت** يوما على الجدول تغسل ثيابا – بعد ان حلبت البقر – وهى تستعرض كل هذه الخواطر فى رأسها ٠ وأحست بالماء القاتم يرطب من حرارة يديها ومن أوجاعهما ٠ وانبعث صليل جرس صغير معلق فى عنق بقرة ، فسرى فى هواء الصباح العليل ، خلال الاشجار التى كانت تكسو سفح التل ٠٠ واذ ذاك ، اشرقت على وجهها – للمرة الاولى – ابتسامة !٠٠ لقد ظلت سنين عدة تعتقد ان الابتسام لن يصدر عنها مرة أخرى ، قط ٠٠ فاذا الابتسامة تشرق الآن ، خلال هذا الصباح الوضاح ، دون ما سبب !٠٠ بل انها أحست بالابتسام ينبعث من كل كيانها ٠٠ كانت ذراعاها قويتين ، نشيطتين ، وكأنهما تبتسمان ٠٠ وجسدها ناعما ، لدنا ، دافئا ، يبتسم تحت ثوب العمل المتسخ ٠كان الابتسام ينبعث دافئا ، هانئا ، من كل كيانها ، فيسرى فى الصباح المشرق٠٠ وظل ينبعث حتى غشيت عينيها الدموع ، ودب دفء الصيف ونوره الى شيء ما فى أعماقها طال رقاده وتجمده ، فاستيقظ ، وبدأت أكمامه تتفتح !

واستيقظت نفسها ثانية ٠٠ تلك النفس التى كانت ذبيحة ، ممرغة فى الهوان ٠ وذاب جمودها ، وكبرياؤها التى لا تلين ، وعنادها ، ومرارة نفسها ، بينما كان الماء النمير ينساب بين أصابعها ٠٠ **واغرورقت عيناها بالبكاء ٠٠ تلكما العينان**



وجذب الرجل سرواله الى أعلى ، ثم حاول ان يمسك بالمرأة ،
فصاحت به : « لاتمسني ! » .. وتحولت تواجهه ..(ص ١١٧)

الصارمتان ، القاسيتان ، اللتان ذرفتا الدمع يوما فى حسرة أعتى وأقسى من الموت ذاته ، ثم نضب معينهما وادركهما الجفاف بعد ذلك . ورفعت كم ثوبها المتسخ الى وجهها ، وقد تضرج حياء وخجلا . وعادت الدموع تتساقط على يديها فى وقع كان يسرى عن نفسها . ومرة أخرى ، جففت عينيها ، وتلفتت حولها فى حذر غريزى ، لتطمئن الى أن أحدا لم يرها .. فقد كانت تؤثر ان يتعرى جسدها أمام الاغراب ، عن ان يلمح أحد دموعها وابتساماتها !!

وظلت وقتا طويلا لا تجرؤ على ولوج دارها ، ومن ثم عرجت على مبنى الحمام وتلكأت الى جواره برهة ، ثم وقفت وأخذت تفرك عودا من نبات « التنوب » بين أصابعها . وما لبثت أن سارت فى تؤدة نحو حظيرة الخنازير ، فتأملت الخنزيرين اللذين كانا فيها ، وهما يئنان ويزمجران وينطحان السياج ، او وهما ينبشان الارض بحوافرهما ، جائعين . وفغر الحيوانان فميهما فى دهشة حين شاهداها ، وتطلعا اليها بأعين صغيرة محوطة بالبياض ، فاتكأت بمرفقيها على السياج ، وأخذت تتأمل - فى خبث طارىء ! - جوعهما ، فتسللت الى أسارير وجهها ابتسامة خفيه !

وأخيرا ، ولجت الدار الخالية ، وعكفت على اعداد طعام للخنزيرين ، فهرست قدرا كبيرا من البطاطس المسلوقة التى كانت متبقيه لديها ، وأضافت اليها بعض الفضلات ، ثم خلطتها جيدا - رغم ان البطاطس كانت قد نفدت ، وما حصلت على هذه الكمية للقوت الا بعد بحث وعناء ، فى الصندوق الذى كانت تختزن فيه البطاطس ! - ثم ملأت دلوا بالخليط ، وسارت الى الحظيرة ، فأقصت الخنزيرين بركبتيها القويتين عن الصندوق الذى يوضع فيه الطعام لهما ، وصبت الخليط فيه ، ثم قالت : « الآن ، اقبلا على الطعام ! »

ولم تجد على الحيوانين النهمين بعد ذلك بنظرة ، بل حملت الدلو الفارغ فتركته بجوار حظيرة البقر ، وصعدت الى « الصندلة » التى تحت سطح الحظيرة مباشرة ، تتفقد البيض . فقد كان الدجاج يسرح طليقا فى المزرعة ، وكان يلجأ الى الاماكن المعتمة والمتواريه عن الانظار ، ليودع فيها بيضه !.. ولم تجد هناك سوى عود من الجودار !.. وكانت أشعة الشمس تتسلل خلال الفرجات والثغرات التى تملأ الجدران ، فتبدد عتمة المكان . ولم تكن ثمة دجاجات ، فركعت على ركبتيها ، ومالت بصدرها على ألواح السقف الخشبى ، وأرسلت بصرها خلال احدى الفرجات ، فرأت الفناء ، والدار ، وشجرة التفاح التى كستها النباتات الفطرية وهى تنفض عنها آخر أزهارها . وكان « آلتونين » مقبلا من مخزن الغلال ، يحمل سرج الفرس على كتفه العارية

كان يسير منتصب القامة ، فى خطوات ثابتة ، خفيفة .. خطوات الريفى القوى !.. وكانت الشمس قد لوحت ذراعيه وصدره بسمرة داكنة .. يا لهذا العامل الزراعى الاجير ، الذى اشتغل فى مصنع ثمانى سنوات ، والذى كانت له هناك زوجة وطفل ، والذى قد يبدو ـ لهذا ! ـ وغدا ، فى عينى العالم !

وعلق بصر المرأة به ، وبه وحده ، فراحت ترقبه فى وضح نهار الصيف ، محوطا باطار الثغرة التى كانت ترسل البصر خلالها . **وألصقت صدرها بألواح السقف الخشبية ، بشدة ، بينما ضرجت وجهها حمرة عميقة . ولم يكن ثمة بأس من ان تسلس العنان لمشاعرها ، فما كان فى وسع أى امرىء أن يراها اذ ذاك . ومن ثم ابتسمت لنفسها فى العتمة ، وتركت جسدها يستسلم لاسترخاء بدا عذبا ، ناعما ، بعد الصلابة وكبح الاعصاب اللذين راضت عليهما كل عضلة فى ذلك الجسد**

خلال السنوات الطوال !

★ ★ ★

◆ **ورجعت** الى الدار بعد ذلك بوقت طويل ، فشرعت تكنس الارض بمكنسة مصنوعة من ألياف شجر « التامول » ٠ وأقبل « ألفريد » ـ الرجل الذى كان زوجها ! ـ فوقف فى فراغ الباب ، ممسكا حمالة سرواله بيديه ، وقد انتفخ وجهه لفرط الندم ، وبدا شعره غير منسق ٠ وسألها فى تملق أن تأتيه بقدح من القهوة ، وهو يعض عظام احدى يديه ٠٠ ولكن المرأة تجاهلته ، واسترسلت فى الكنس ، فسار فى ذلة الى الموقد ، ليصب لنفسه بعض القهوة التى كان دفئها قد تبدد ، فأصبحت باردة ٠ حتى اذا فرغ من احتسائها ، نظر فى تبلد الى المرأة المنهمكة فى الكنس ، وجذب سرواله الى أعلى ، ثم حاول ان يمسك بالمرأة

وهتفت فى صوت خفيض : « لا تمسنى ! » ٠٠ ثم استقامت فى وقفتها ، وتحولت تواجهه ، فأجفل فى عنف ، اذ انه لم يسمع منها مثل هذه اللهجة من قبل ٠ وراح ينعم البصر فيها ، وقد فاضت عيناه الرماديتان بالخبث والشر ٠ وما لبث ان سار بخطى مترنحة ، عائدا الى الغرفة الداخلية ، وهو يتمتم لنفسه مرارا ـ وقد غشيه دوار مستعذب ارتاح اليه : « يا للمسيح !٠٠ أية حياة هذه !٠٠ انها الجحيم ٠٠ الجحيم ٠٠ الجحيم ! »

كان فى تلك الايام منبوذا ، مهملا ، مما كان يثير غيظه وحنقه ٠ فقد كان يهفو الى أن توجه اليه الاوامر ، وان تكال له التأنيبات ، اذ كان هذا يبعث فى نفسه ذلك الارتياح الواهن ٠٠ ارتياح الذى يرثى لنفسه ، ويشعر بأنه مظلوم ، وبأن أحدا لا يفهمه أو يقدره ، وبأن حياته قد تلفت وانهارت ! ٠٠ ولكن الفرصة لم تتح له قط كى يحظى بهذا الارتياح ،

بل كان دائما وحيدا ، عليلا ، تعسا ، لايبدى له أحد أى عطف أو رثاء . وكان - أثناء الليل - يحبس فى غرفته كوحش فى قفص . لما انه لم يستطع مرة ان يذهب الى القرية ، وقد مل التسكع فى الغابة ، ورمى السحالى والطيور بالاحجار ، بل انه لم يعد يجسر حتى على ضرب الخنزيرين بالعصا ، لان الشيخ فاجأه يوما وهو مقبل على ذلك ، فضربه !

لقد ظل أعواما طويلة دون أن تنفسح أمامه فرصة لعمل أى شىء ، رغم انه لم يكن يوما بالفلاح الجاهل ، الذى يقنع بالقليل .. فلقد خلق لحياة أفضل !.. ليته كان يمتلك خمسمائه فدان ، أو ما يقرب من هذه المساحة ، ومالا كافيا ! .. وكان يفكر - فى خموله - فيما كان يفعله لو انه امتلك هذه الافدنة والمال . . ولكن التفكير لا يلبث أن يضنيه ، فيلقى بنفسه على السرير ، ويروح يحملق فى الصور العارية المثبتة الى الجدار فوق وسادته . وينطلق خياله وراء الشراب ، والمال ، والغانيات .. وينساب اللعاب من ركنى فمه ، ثم يسيل على ذقنه منحدرا ، دون ان يفطن اليه مطلقا !.. ويمضى فى الرثاء لحاله .. ففى اللحظة التى أقبلت عليه الحياة ووالته فيها ، ساق اليه الحظ امرأة قضت على كل هناءته .. زوجة صلبة ، حازمة ، رزينة ، لاتعرف الحب ، أفسدت أبهى ساعاته بكلماتها القارسة ، وبنصب الشراك له ، وتجسس كل خطوة يخطوها !.. لقد كان من حقه ان يحظى بامرأة من نوع آخر .. من نوع يختلف عن نوع هذه المرأة .. امرأة تسمو به وتلهمه ، وتشد أزره فى الخصومات ، وتوطن نفسها على أن تبذل له العطف فى سخاء وكرم نفس !

ويروح يتمثل زوجته فى أحلام اليقظة ، ويتصور نفسه وقد ثنى ذراعيها خلف ظهرها ، لينال وطره منها عنوة واغتصابا !.. كانت أحلام اليقظة تعوضه وتعزيه عما يعجز

عن الظفر به فى الحياة الواقعية ٠٠ اذ كانت المرأة فى الواقع أقوى منه ، وكان مفطورا على الخوف من الالم ، ومن ثم فانه كان لا يقوى على نيلها بالقوة ، فيقنع بأن يستسلم للذةوهمية تثير فى جسده المستلقى على الفراش البارد رجفة شهوانية عارمة !

★ ★ ★

• على ان كل هذه لم تكن سوى أمور غير واقعية ، طارئة ، عابرة !٠٠ وكان خبث الحياة الانسانية وقبحها أمرين لا قيمة لهما ولا معنى ٠٠ تماما كالحياة الانسانية ذاتها !٠٠ فان الارض لم تكن تحفل بهذه الحياة ، ولا بقبحها ٠٠ لم يكن ثمة ما هو قبيح بغيض ، بالنسبة لها !٠٠ كانت أشجار الشربين تبسط أغصانها اللامعة فى الغابة ، كما ان العشب الذى نبت فى الربيع كان قد بلغ أبهى مراحل نموه وعنفوانه ٠ وكان فى الخندق ـ الذى يمتد على حافة الحقل ـ حيوان ميت ، دفن تحت أسراب من النمل الفارسى ، وقد تآكل لحمه وأوشك ان يتلاشى ، بينما اتحد جلده مع التربة التى حملته ٠ وأصبح النهار يرتبط بالنهار الذى يليه ، لا يفصل بينهما سوى ليل قصير معدود الساعات !٠٠ وبعد طول الغيم فى الشتاء ، وتنفس الربيع وما تخلله من زفرات الطبيعة ، أقبل اشراق الصيف وسطوع ضيائه ٠ وكانت أمسية يوم السبت مبعث غبطة للانسان المكدود ، بعد أسبوع حافل بالعمل ٠٠ فما أحلى أن يستسلم للنوم تحت سقيفة المخزن الرطبة ، بعد حمام ساخن ، وهو لا يزال يشعر بآثار أوراق شجر «البتولا» على بشرته ! (فالقوم فى فنلندا يستخدمون أوراق شجر البتولا ـ كما يستخدم اللوف فى الشرق ـ لازالة الاوساخ عن البشرة ، كى تتفتح مسام الجسم !)

وفى ساعة مبكرة من صباح الاحد ، استعار « هيرمان »

الفرس ، وانطلق الى الكنيسة ، صائما .. فما كان من اللائق ان يتناول شيئا من طعام الدنيا قبل ان يتناول القربان الربانى !.. ولم يتبادل مع « آلتونين » سوى الكلمات القلائل التى دعت اليها الضرورة ، بينما كان هذا يشد له الفرس الى العربة . بيد ان « آلتونين » احس بأن نفس الشيخ كانت مفعمة بالتقوى ، وبشعور أعمق من ان يكشف عنه للغير .. فقد كان الشيخ يرفل فى اشراقه روحية ، وهو يتأهب فى ذلك الصباح الزاهى - الذى زاده الصيف رواء - ليتناول خبز الحياة الابدية ، وليتذوق نبيذ الخلود !

وتجمدت الابتسامة على أسارير « آلتونين » وهو يفكر فى هذه الاشراقة الروحيه .. فى هذا اللغز الغامض ، الذى لم يكن يوليه أى اكتراث أو اهتمام . كل ما يذكره هو أنه بعد تعميده - وهو صبى - تناول قطعة من الخبز الجاف . وجرعة من النبيذ ، وبذلك أصبح معدودا من أولئك الذين يتحمل الواحد منهم أعباء نفسه ، ويتحتم عليه ان يعمل ليكسب عيشه ويبنى صرح حياته . على أن حياة المصنع لم تلبث ان جردته - فيما بعد - من آخر بقايا التقوى ، فلم يعد يوقر القساوسة أو يحترمهم ، وان لم ينضم الى زمرة المجدفين والزنادقة ، لما فطر عليه عقله من اعتدال !.. ولقد مر بعد ذلك بكثير من الاحداث والظروف التى نأت به حتى عن أبسط مبادىء الدين والايمان .. ومن ثم فلم يكن - فى لحظته هذه - يفكر فى الله .. ولكن الغريزة - أو بالاحرى ، ادراك جديد للحقيقة الواقعة ، أرهفه الاتصال بالارض - جعلته يطيل التفكير فى ذلك اللغز الغامض الذى تراءى له فى اشراقة الشيخ الروحية ، وهو يقف مستندا الى باب الحظيرة ، يرقب الفرس والعربة تنطلقان حتى تواريتا وراء منعرج الطريق المؤدية الى القرية

كان « الموت » يجلس فى العربة ممسكا بأعنة الفرس فى يديه النحيلتين .. **هكذا تمثلت الصورة لعينى « آلتونين » ، وقد شرد ذهنه نحو الخبز والنبيذ .. انهمــا يمثلان ــ فى المناوله ــ جسد المسيح ودمه .. الخبز والنبيــذ .. اللحم والدم ، و .. تلك الوحدة الغامضه التى تربط بين الانسان والارض .. كل هذه امور كانت تفوق نفسه عظمة وجــلالا وبقاء .. وما المعرفة والفكر ــ الى جوارها ــ ســوى أمرين تافهين . وفى لحظة خاطفـــة ، استطاع ان يلمح الحقيقــة الروحية الكامنة وراء القناع المضلل .. قناع المرئيات المادية !**

وعندما انتزع نفسه أخيرا من هذا الاستغراق ، وفرك عينيه كنائم يستيقظ ، خيل اليه ان شيئا ذاويا ، ميتا ، يسقط عن عينيه .. تماما كما تتفجر الحبة فى جوف الارض بقوة خفية ، فتنبعث منها سويقه وأوراق ينشق عنها وجه التربة .. بقوة غامضة أيضا !

* * *

• **وكانوا** يتناولون طعام الافطار ــ عادة ــ فى ساعة متأخرة من الصباح ، فى أيام الآحاد . فلما دلف « آلتونين » الى غرفة الجلوس أخيرا ، راى الارض قد كنست ومسحت . واستوت على المائدة آنية من الخزف تضم بعض الزهور مما ينبت فى المروج . وكانت هذه هى المرة الاولى التى تتوسل المرأة فيها بالزهور ، لاضفاء رونق بهيج على الحجرة !

وجلسا الى الفطور وحيدين حول المائدة الكبيرة .. المرأة ، و « آلتونين » .. فقط !.. وقطعت المرأة الخبز وأعطتــه قسطا منه ، فالتهمه وكأنه القربان المقدس !.. ثم وضعت فى طبقه بعض الطعام ، فأكله .. وملأت قدحــه بالبيرة ، فشرب . وعندما نهض عن المائدة أخيرا ، لم يشكر المرأة فى خجل ، على مألوف عادته ، ولم يمسح فمه بظهر راحته ..

وانما انحنى على المائدة وقد عقد راحتيه الكبيرتين فوق ركن منها ، كما اعتاد « هيرمان » ان يفعل قبل ان يجلس لتناول أية وجبة . وفى تلك اللحظه ، وقعت عينا المرأة عليه ، فاذا الحمرة تطغى على سمرة خديه .. وانطلق خارجا الى فنـــاء الدار ، حيث راح يحملق فى السماء دون وعى ، ثم جلس على احدى درجات عتبة مخزن الغلال ، فى أحضان أشعة الشمس الدافئة !

وخيل اليه انه لا يزال يرى عينى المرأة .. كانت صورتهما ماثلة أمامه .. تلكمـــا العينان اللتان كانتـــا يوما كحجرين أزرقين ، ثم تراءتا الآن لطيفتين ، رفيقتين .. جميلتين !.. **كانت صورتهما ماثلة أمامه كما رآهما منذ لحظات .. تنظران اليه ، فتثيران رعدة فى كيانه ، وتلهبان خـــديه !.. ومرق بالقرب من وجهه اذ ذاك عصفور ، فخيل اليه ان الهواء الذى حركه رفيف جناحيه ـ على ضآلته ـ قد خفف من وقدة الدماء المتصاعدة الى وجنتيه .. ولو للحظة !**

★ ★ ★

• **ومكث** طويلا فى جلسته هذه ، وقد طفحت كل مشاعره بالسعادة . وكانت يداه مستلقيتين على ركبتيه فى استرخاء ، بينما راحت عيناه تتبعان العصفور المحلق، وسحابة من سحب الصيف تشق عباب السماء !.. ثم لم تلبث أن سرت فى كيانه رعدة باردة ، اذ رأى الرجل المقيم فى الحجرة الداخلية يبرز من الدار ، فيقف على درجات سلمها وهو يتلفت حوله بنظرات شاردة ، خاوية . وكان يبدو انه أزمع ان يتمشى ـ كعادته فى يوم الأحد ـ اذ كان يرتدى حذاءيه . ورمق الرجل « آلتونين » شذرا ، من ركن عينيه ، ثم اتخذ خطوة فى اتجاهه ، فشعر « آلتونين » بأطرافه تتيبس ، وبعضـــلاته تشتد وتتوتر .. وراحت قبضتاه تنبسطان وتنضمان فى حركات لا ارادية !..

ولكن الرجل لم يلبث ان صد نفسه عن الذهاب اليه ، وانطلق يخطر - بخطى غير منتظمه - فى الدرب الذى تسلكه الماشية فى طريقها الى الغابه • والتقط فى سيره حجرا ، ثم أرسله فى عنف ضاربا به جدار الحظيرة • وراقبه « آلتونين » - وهو متوتر الاعصاب - فاذا به يمسك بسياج المزرعه يحاول ان يثنيه ليقفز من فوقه الى الجانب الآخر •• ولكنه سقط على أرض ذلك الجانب ، متدحرجا • ثم نهض مزمجرا ، لاعنا ، فنفض الغبار عن سترته ، وسار صاعدا الدرب الرملى المفضى الى الهضبة •• وابتلعته الغابه !

وفى اللحظة عينها ، برزت المرأة وهى تسير فى استحياء ، مجتازة باب الدار ، ثم وقفت على السلم • وتطلع « آلتونين » نحوها ، ثم شهق لاهثا ، اذ رأى منظرها غير المألوف • فقد كانت ترتدى ثوبا زاهيا ، موشى بالزهور ، يصل الى عرقوبها ، ولكنه ينحسر عن نحرها وذراعيها فيتركهـا عارية • وكان شعرها متهدلا على أحد جانبى وجهها كموجة ناعمة ، حنون !•• وكان فمها قد صبغ بالحمرة ، ونظرتها قد صفت من كل كدر أو فتور ، وهى تنحنى لتقتطف احدى زهور البرسيم

ثم أخذت تقترب من « آلتونين » بخطى خفيفة ، رشيقة ••

ولمح ابتسامتها •• وخفق قلبه بعنف وهو يرى هذه المرأة تبتسم له للمرة الاولى • ونظر الى يديه فى حيرة وارتباك ، ولكن المرأة ظلت متجهة اليه ، مقتربة منه ، وهى ترقب رأسه المنكس ، والابتسامة الغريبة مازالت متعلقة بشفتيها •• وما كان أغرب هذه الابتسامة وأشد غموضها !

وكان جسمها يبدو - تحت الثوب الانيق - رخصا ، لدنا ، ملتفا فى تناسق بديع ، بينما عقدت يديها المخشوشنتين من العمل وراء ظهرها • لقد دفعتها نزوة الى ان ترتدى ثوبا ظنت يوما أنها قد نبذته الى الابد !•• كانت تعبث بها - فى ذلك اليوم من أيام الاحد - نزوة مبتسمة ، عنيدة ، لم تقو على

كبحها . بل لم تشأ أن تصدها !.. وشعرت بألم عذب وهى تتأمل رأس الرجل المنكس ، وعنقه الذى أكسبته الشمس سمرة بدت ظاهرة الى حدود ياقة القميص الابيض النظيف !.. وأخذت يداها ترتعشان – خلف ظهرها – فى حنين جارف .. حنين الى ان تمس الرأس المنكس ، وان تربت – فى رفق – العنق القوى ، فتدلله !

ولكنها تصنعت الوقار ، وقطبت جبينها الناعم قليلا ، وقالت :

– ألم تذهب قط الى القريه يا آلتونين ؟.. ألا تحب ان تزورها ؟

كانت تخاطبه – للمرة الاولى – فى لهجة مجاملة .. لهجة الند للند !.. ورفع الشاب رأسه في اجفال ، وحدق فيها موجسا ، متشككا .. ولكن جفنيها لم يطرفا أو يختلجا ، بل ظلت تنظر اليه ، وان ازداد عبوسها بعض الشىء ، وكأنها تطلب منه ردا .. فقال وهو لا يزال يرمقها فى ارتياب من يأبى ان يصدق عينيه : « لا .. لم ... »

وشعر بارتباك الصبى الصغير وخجله اذا ما داعبته فتاة كبيرة لتستمرىء الشعور بتفوقها عليه ، ولتجعله يبدو في مظهر يثير الضحك !.. وتسلقت نظراته المتورعة قوامها ، على الرغم منه ، ثم راحت تحوم حول نحرها وذراعيها العاريتين . **وهزتها نظراته هذه ، وملأت صدرها وجدا ، ومع ذلك ، فقد شعرت باستحياء وهي تحس ان استدارة ثدييها تظهر خلال صدر الثوب المشدود حولهما ، وهي تعقد ذراعيها خلف ظهرها ، فيبرز صدرها الى الامام** . وأدركت ان دورها قد حان لتشعر بالارتباك ، كما شعر هو .. وفقدت اعتدادها ، فاذا بصرها يهيم بعيدا عن الرجل الماثل أمامها . واجتاحت النحر الابيض ، والخدين اللذين خلعت عليهما الشمس سمرة ،

موجة من حمرة وردية !

★ ★ ★

• **وأسرعت** تجلس على درجه السلم التى كان « آلتونين » يقتعدها ، وان تعمدت ان تفصل بينهما مسافة ·· مسافه بسيطة لا تحول دون ان تبلغه يدها اذا هى بسطتها !·· كانت امرأة ناضجة ـ كما كان هو رجلا ناضجا ـ اذ كانت قد تجاوزت الثلاثين من عمرها ، ولكنها أحست ـ فى بهاء شمس الصيف ، فى يوم الاحد ذاك ـ بما تشعر به أية فتاة يافعة حين تسعى للمرة الاولى الى رجل لتداعبه وتختبر سلطان سحرها عليه

وسألته وفى صوتها رجفة نمت عن مدى ما كان وجوده يثيره فى نفسها من انفعالات : « ألا تشعر أحيانا بوحشة ووحدة ؟ »

فتطلع « آلتونين » اليها ، وقد شحب وجهه الاسمر قليلا ، واشتد سواد عينيه وثبات نظراتهما وهما تتجهان الى عينيها : « لا ·· مطلقا ! » ·· كان صوته حازما ، رزينا ·· وكان يقصد بجوابه انه لن يشعر بوحدة بعد ذلك قط ، طالما كانت هى الى جواره ، وطالما كان فى وسعه ان يشتغل من أجلها ، وان يعيش فى دارها ، وان يكون أجيرا عندها ·· أو فى أى وضع تختاره هى وترتضيه له !

وذاب قلبها فى موجة ضافية من حنان لم تعد تقوى على كبحه ·· ورددت جوابه فى تساؤل : « مطلقا ؟ » ·· كانت كلمة غير ذات معنى ، ولكنها قالتها دون ان تفطن · ومدت فى الوقت ذاته يدها ، فأراحتها على ذراعه ·· أجل ، لقد وضعت يدها المخشوشنة ، العاملة ، على ذراع الرجل ، فى رفق وحذر ، فاذا بها تمس أعماق نفسه ، وتأسره ·· بل تستولى عليه !

ولم يتحرك أقلّ حركة ، ولا نمت اختلاجة واحدة عن

الاضطراب الذى ثار فى أعماقه . غير ان قلبه راح يدق جنبات صدره فى عنف ، متخبطا بين ضلوعه ، حتى لقد كان انتفاض عروقه بالنبض يبين خلال كمى قميصه الابيض !.. وكانت كل نبضة تسرى فى أصابع المرأة ، وتنتقل الى ذراعها ، ثم تنساب فى جسدها ، فأخذت تنتفض فى أعماقها مع كل خفقة من خفقات قلبه . واذا بجسمها الميت ، الذى لطخه الرجل الآخر ودنسه ، يتجدد ويسترد عذريته وبكارته !.. واذا بنفس جديدة ، مجهولة ، خفية ، تتفتح كالزهرة فى جوفها !

وجلسا فى هذا الوضع بعض الوقت ، ثم لم تلبث المرأة ان سحبت يدها فى رفق ناعم ، واذا بها تشعر بقواها تغيض ، وتترك كيانها خاويا !.. أجل ، غاضت القوة من كيانها بمجرد ان كفت عن الشعور بذراع الرجل تحت يدها !.. وفارقها كل ميل للمداعبة والمعابثة .. كانت امرأة ناضجة ، أثقلها الشر وأنهكها ، وتعرضت لكل ألوان الفظاظة والقسوة .. بيد انها أحست فى هذه اللحظة بأن كل ما اجتازته من تجارب لم يكن شيئا مذكورا .. كأنها لم تصب أية خبرة أو تمر بأية تجربة !.. وتاقت يداها فى حنين ملتاع الى أن تمسا هذا الغريب الحبيب ، ولكنها ألقت هاتين اليدين فى حجرها ، وقالت فى لهجة لم تش بأى انفعال فى أعماقها .. لهجة هادئة ، رصينة :

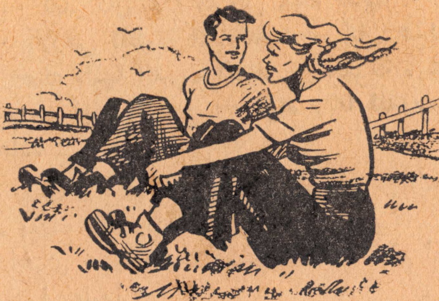
ـ لماذا هجرت بيتك وغادرت موطنك يا « آلتونين » ؟

وكان سؤالا طالما ألح عليها فى طلب الجواب . اذ كان لابد لها ان تعرف .. كان لابد لها ان تلم بماضيه ، وان تشعر باطمئنان الى أن شيئا لن يفرق بينهما ، فيبعده عنها ، ويدعوه الى الرحيل !

وراحت ترتقب جوابه وهى موجسة ، مشفقة . وغشيتها رغبة طاغية فى ان تمحو من حياته ماقد سبق ، وان تحرره وتحله مما جرى له من قبل ، و .. ان تستولى عليه بأكمله ،

لنفسها !٠٠ لقد كان هذا الرجل ملك يديها ٠٠ منحتها اياه الارض ٠٠ الارض الطيبة المباركة !٠٠ كان هذا الرجل ملك يديها ٠٠ حمله اليها الدرب الممتد من القرية ، عند غروب شمس يوم من أيام الربيع ٠٠ أواه ، يا للدرب السعيد ٠٠ درب السعادة !

وعادت تتساءل ، اذ طال تقاعس الرجل عن الجواب : « لماذا هجرت بيتك وغادرت موطنك يا آلتونين ؟ » ٠٠ وانتشت يدها مرة أخرى حين امتدت فمست ذراعه ، ثم أمسكت بها٠٠ وكأنها تستولى عليها !



الفصل السابع

• **أبطأ** « آلتونين » فى الرد ، لا لانه كان يرى ان الرد عسير ، وانما لان الماضى بدا له فى تلك اللحظة واضحا ، بسيطا ، الى درجة أذهلته ! ·· ومات كل الشر والمرارة اللذين كانا يعمران نفسه وفؤاده ، فلم يعودا يعذبانه ·· تماما كما يأخذ اللحم المحيط بالجرح فى الانضمام والالتئام – بعد الالم والحمى – منطويا على الجسم الغريب الذى قد يكون فى جوف الجرح ، فيعزله عن بقية الآنسجة المحيطة به ، ريثما تكف هذه الانسجة عن التنافر معه

وتطلع اليها ، فلما رأى عينيها المتألقتين ترنوان اليه ، ألفى الكلام سهلا ، ميسورا · وواتته الكلمات سلسة ، مطواعة ، مع آنه كان من قبل يجد عناء فى البحث عنها ! ·· فقد استقام كل شىء الآن وانبسط · وكانت الشمس الساطعة تفيض بنورها ودفئها على درجات سلم سقيفة المخزن ، والعشب الاخضر – المعد للتجفيف كى يصبح علفا للماشية – يتراكم لامعا خلف السياج ، و ·· يد امرأة رفيقة تمس ذراعه ·· أبدا ما كان يؤمن

بأن شيئا كهذا ممكن الحصول !٠٠ وشرع يقول :

« كنت أستعد فى البداية لان أصبح بستانيا ، فالتحقت بالعمل كصبى للبستانى الذى كان يعنى بحديقة المصنع ٠ ثم استدعيت للخدمة العسكرية ، وما أن عدت بعد عام ، حتى مات أبى ، ولم يخلف لى نقودا كى أتعلم ، ومن ثم عملت عامين كملاحظ للعمال فى قسم الفحص والاختبار بالمصنع ، وادخرت من المال مايكفى لالتحاقى بمدرسة أتعلم فيها فلاحة البساتين ٠ ولكننى كنت دائما فى معزل عن زملائى هناك ، اذ لم يكن بوسعى أن أجاريهم وأغدو على شاكلتهم !٠٠ وكانت ثمة امرأة تكبرنى فى السن، اعتدت أن أراها فى المراقص، فى مساء السبت من كل أسبوع ٠ **ولما نلت وطرى منها مرة ، شعرت أن من واجبى أن أتزوجها ٠ وأرادتنى هى على أن ألتحق بالعمل فى المصنع ، فقد كان الوقت وقت رخاء ، وكان المصنع فى اتساع مطرد ، ولم تكن امرأتى هذه راغبة فى حياة الريف ، حيث لاتسنح لها فرص اللهو ، وحيث لاتلتقى بمن يبادلها الحديث ويسرى عنها ٠ ثم أخبرتنى بأنها حامل، ومع ذلك فقد ظلت تسرف فى الاختلاط بالناس ، وفى اقامة الحفلات ٠ وما لبث المال الذى ادخرته ان بدأ يذوب ويتلاشى ٠٠ وكنت اذ ذاك قد بدأت أخشاها ، فرغبت فى الانفصال عنها ، ولكن الطفل كان يوشك أن يولد ، ولم يجل قط بخاطرى انه قد لايكون ابنى ٠٠**

« وهكذا التحقت بالمصنع ٠ ولم يكن ثمة مايتعبنى أو يدعونى للشكوى فى الواقع ، لان الرؤساء والمهندس كانوا راضين عنى ، وسرعان ما وصل أجرى الى مستوى طيب ٠ ثم منحتنى ادارة المصنع قطعة من الارض ، وقرضا لابنى بيتا ، اذ ما كان بوسعى أن أقيم فى حجرة مستأجرة فى ذلك المكان ، محروما من حديقة وأشجار ٠٠ وضجيج الحاكى والمذياع ينساب خلال النوافذ ، والنسوة دائمات الشجار فى فناء الدار ،

والدواجن تسرح فى كل مكان ...»

وصمت «آلتونين» وقد أخذت راحتاه الضخمتان تتحسسان ركبتيه صعودا وهبوطا ، وسرح بصره محدقا فى الفضاء ، وكأنما كان يرى على صفحته رؤى الماضى ، ويحس بتتابع الايام الكئيبة ، ويشم الهواء المشبع بالابخرة الكبريتية المتصاعدة من مداخن المصنع ..

وأرسلت المرأة الجالسة الى جواره زفرة قصيرة ردته الى الحاضر ، فقال مستأنفا حديثه :

« كان من الشاق أن اعتاد المصنع وعمله ، بعد أن قضيت عمرى أشتغل فى الفضاء ، وأزرع الارض . وكانت ساعات العمل قصيرة بطبيعة الحال ، ولم يكن العمل ذاته ثقيلا مرهقا ، بيد أننى لم أحبه . كان كعبء ثقيل جاثم على صدرى ، فلم أكن أقوى على التنفس بطلاقة . وبعد فترة من الزمن ، لم أعد احتمل تلك المرأة . فبعد أن أحسنت مسلكها وتصرفها فى العام الاول ، تملكها السأم ، وما لبثت فى النهاية أن أصبحت لاتقوى على أن تقضى السهرة فى الدار ، ليلة واحدة .. فهى تتعلل أحيانا باجتماع فى النادى ، وتذهب أحيانا أخرى الى السينما ، أو الى مرقص .. فاذا لم يكن من سبيل لشىء من هذا ، آثرت أن تذهب الى الجيران لتسمر معهم ، بدلا من أن تمكث فى البيت! .. وكانت تلح على كى أخرج معها ، ولكنى لم أكن أصلح للاوساط التى كانت تغشاها .. فما كنت أحسن الثرثرة كالآخرين ، ولا كان بوسعى أن أضحك من أشياء لا أراها مضحكة ! . . وكنت أوثر أن أقضى وقتى فى الحديقة ، أجتث الاعشاب الطفيلية . كما كنت ـ فى ساعات الفراغ أيام الشتاء ـ أعمل فى اصلاح الدراجات ، والاقفال ، والادوات الكهربائية ، اذ كنت أريد أن أدخر بعض المال أسدد به القرض ، وأطمئن الى أن البيت غدا ملكا لنا ..

« وكثيرا ما كانت تتأخر فى الخارج ، فلا تأتى الا بعد أن أكون قد نمت ٠ وفى بعض أمسيات السبت ، كانت تعود مع خيوط الفجر الاولى ، وقد صبغت شفتيها ، وانبعثت من فمها رائحة الكحول !٠٠ وكانت تصطحب أحيانا بعض اصدقاء ليلعبوا الورق ، فكان الرجال منهم يحضرون معهم « البراندى » ولا يحفلون بى أو يشعرون بوجودى !٠٠ وكان الاستهجان يذهب بى أحيانا الى درجة تدفعنى الى مبارحة الدار ، لاقف فى الظلام أسب وألعن ٠٠ واعتدت أن أرهق عقلى فى التفكير فى مخرج من كل هذا ، ولكن التفكير لم يجد فتيلا ٠٠

« وكانت تلك الحال قاسية على الطفل حين ولد،وجاء بنتا٠٠ فكانت زوجتى فى بعض الاحيان تسرف فى العناية بهاوتلبسها خير ثيابها لتعرضها على الاغراب ، وفى أوقات أخرى كانت لاتحفل حتى بتغذيتها !٠٠ وكانت الصغيرة تضطر الى اللعب فى أفنية دور الآخرين ، وتقضى الساعات تبكى فى طلب الغذاء، وتأوى الى فراشها قذرة ٠٠ اذا حدث وعادت الى الدار ٠٠ فقد كانت فى بعض الاحيان تمكث خارجها أياما بأكملها !٠٠ على ان الجميع تكتلوا ضدى عندما قدر للصغيرة أن تمشى وتتكلم ، فاذا أنا فى نظرهم رجل سىء ، لا يعرف فائدة الضحك أو اللعب !٠٠ وكانت زوجتى واصدقاؤها يسموننى بالرجل الكئيب الذى يفسد جو المرح ٠ وكانوا يسرفون فى معابثتى ، ويسفون فى استفزازى ، حتى تفور دمائى فى بعض الاحيان ، فأضربهم وأضربها !٠٠ ثم لم ألبث ان اعتصمت بالكوخ الذى كنت قد أقمته لامارس فيه أعمالى فى أوقات الفراغ ، فنقلت اليه سريرى ، وكنت ابتاع لنفسى غذاء بعد أن انفصلت تماما فى حياتى عن زوجتى ! »

★ ★ ★

◆ **وركن** « آلتونين » الى الصمت مرة اخرى ، فسألته المرأة

فى صوت خافت ، محتبس ، وقد أشاحت بوجهها : « وهل .. هل كانت .. هل كانت زوجتك جميلة ؟! »

وتريث الرجل ليزن كلماته . فقد مال الى أن ينصف تلك الزوجة ، بعد ان مات كل شيء - بالنسبة اليه - وبعدت شقته ، وغدا من السهل أن يتحدث عنه فى غير ماحرج . وما لبث ان قال :

« كانت لها عينان عسليتان ، مستديرتان ، وبشرة صافية . وكانت قصيرة .. أقصر منى بكثير .. ولدنة العود . **وكان الرجال يبتسمون لها ، افتتانا بها .. ولم تكن من النوع الذى يغلق الباب دونهم .. لم تكن تصدهم !.. ولقد عرفت فيما بعد ما كانت السذاجة تجعلنى فى غفلة عن تبينه .. عرفت انها لم تكن زوجة ، وانما كانت .. مومسا !.. كانت مومسا ، حتى فى علاقتها معى أنا الآخر ، اذ كانت تستغل جسدها فى حملى على أن أتيح لها ما كانت تبغيه منى ، حتى جعلتنى أكره نفسى !.. وبنفس الطريقة ، كانت تبتاع ما تحتاج اليه من الغير .. الاشياء التى لم أكن أمكنها من شرائها: الملابس ، والمجوهرات الرخيصة ، وتذاكر السينما ،والشراب، ونفقات التردد على المرقص ، وكل ماكانت تبتغيه فوق ذلك !.. كان على الرجل الذى يقبلها أن يدفع ثمن قبلته ، وما أحسبها كانت تجد أية غضاضة أو ضير فى ذلك ، فهى قد نشأت عليه!** ..على انها كتمت عنى حقيقة مسلكها هذا ثمانى سنوات ، لانها كانت ترهبنى وتخافنى .. وكان التكتم سهلا كل السهولة ، اذ لم يكن لى فى ذلك المكان بأسره صديق واحد يحتمل ان يفتح عينى على الحقيقة ..

« وكانت طيلة الوقت تنفث السم فى كل شيء ، ومع ذلك ، فقد ظللت أنا دائما موضع الاتهام .. المذنب الذى لايتيح لها كل ماترجو من لهو !.. ولقد تشبثت بهذا الرأى ، واذاكانت

قد خطرت لها يوما فكرة تبز الافكار التى تجول بخواطر المتبذلات ، فانما تمثلت هذه الفكرة فى اعتقادها بأنها كانت على حق فى أن تلحق بى العار ، وان تضاجع غيرى من الرجال فى دارى !٠٠ ولقد كانت غريبة عنى بعد العام الاول لزواجنا. فبعد هذا العام ، لم تعد زوجة لى على الاطلاق ٠٠ اذ كانت كما وصفتها من قبل !٠٠ ومع ذلك فقد كنت أقضى ليالى مسهدا ، لانها كانت تستبقى أصدقاءها فى مطبخ دارى الى مابعد منتصف الليل ، رغم انه كان لزاما على أن أذهب الى عملى فى الصباح التالى ٠ وكنت أسمعهم يضحكون ، ويلطمون المائدة بأوراق اللعب ، ثم ينقطع الضجيج ، وتنبعث فى الجو همسات ، وخطوات مسترقة ، متسللة ٠٠ ولا ألبث أن أسمع صرير ألواح أرض المخدع الخشبية ! »

وكان « آ لتونين » يحملق فى الفضاء الممتد أمامه وهويتكلم، وقد ألقي براحتيه على ركبتيه ٠ فلما سكت ، أدار رأسه ملتفتا نحو المرأة ٠٠ كانت تجلس الى جواره ، وقد نكست رأسها ، وتخلل ضوء الشمس شعرها فبدا كموجة منيرة ٠ وكانت ذراعاها عاريتين ، وبضتين ، ناصعتى البياض ٠٠ ونظراتها متشبثة بالارض لاتحيد عنها

وقال « آلتونين » متسائلا ، وكأنه تبين بغتة ان لاشأن لشىء مما كان يرويه بهذه الجلسة التى ضمتهما معا ،ولا بعلاقتهما معا : « هل أواصل القصة ؟ » ٠٠ كانت قصة دنيا زائفة ، مخادعة ، لم تعد تعنيهما فى شىء ٠٠ فقد ولت ،وماتت! ولكن المرأة قالت وهى تعبث بعود من العشب اللامع انبعث من بين قدميها :

ـ استمر ، حتى النهاية ٠٠ وبهذا تفضفض عن صدرك ، فتنسى كل شىء بعد ذلك !

ـ لابأس ٠٠ انها لم تلبث ان كرهتنى على مر السنين ٠ كنت

أثير نفورها . ولم تعد تحفل باخفاء زلاتها عني بعد ذلك ، اما لانهـا ظنتني غبيا أعمى ، أو لانها رغبت فى أن تستفزنى على عمل شيء يجعل لها اليد العليا على ، بل يجعلها سيدة الموقف اذا تطور الامر يوما الى الطلاق !.. ففى صباح أحـد الايام ، وجدتها - وانا أتأهب للذهاب الى العمل - مستلقية على أرض المطبخ ، مخمورة ، بين رجلين !.. ثم ما لبثت أن اكتشفت فى النهاية ان الطفلة لم تكن ابنتى ، وان واحدا من الرؤسـاء فى المصنع - وكان رجلا متزوجا - أعطاها قدرا من المـال لتتزوج منى ، وكان يمنحها فى كل شهر من شهور تلك الاعوام مبلغا من أجل « طفلته » ! ثم قدر لزوجة هذا الرجل أن تموت ، فلم يعد يخشى ان يفتضح سر عـلاقته بالمرأة والطفلة ، واذا به يسعى الى ذات يوم - فى فترة الغداء فى المصنع - ويقول لى أنه لم يعد ثمة داع يدعوه لأن يستمر فى الدفع !.. وكان اليوم من أيام الخريف ، وقد أثقلت ثمار التفاح أشجارها التى زرعتها فى حديقتى .. فقد كانت ثمارا كبيرة !.. **ولم أشعر ببغضاء أو حقد .. بل لم أشعر بشيء ما اللهم الا بأن عبئا ثقيلا قـد انزاح عن كاهلي !.. وسرت نحو الدار ، مارا بالمنازل التى كنت قد أصبحت أبغض مجرد منظرها . ولم ألتفت يمنة ولا يسرة ، ولا طلبت شيئا ، ولا تفوهت بكلمة ، وانما ارتديت الثيـاب التى كنت أدخرها لايام الآحاد ، وتناولت قبعتى عن المشجب ، وخرجت .. وهذه غاية القصة !**

* * *

• **وترامى** بينهما ظل ، مؤذنا بأن الشمس قـد تجـاوزت وسط السماء . ومرق العصفور مرة أخرى ، مارا بهما ، على جناحين أسـودين لامعين . وانسـاب كل شيء من ذهنيهما ، فخلفهما ساكنين ، فارغين !.. وظلا جالسـين جنبا الى جنب ، وكل منهما فى متناول الآخر ، وقد سادهما الصمت . وكان « آلتونين » - فى صمته - **يفكر فى انه كان من الافضـل أن**

لايفضى بشىء مما قال ، ولكنه لم يشأ أن يكتم شيئا عن هذه المرأة . على أن صمتها جعله يشعر بالحرج ، فالتفت اليها فى خجل ، واذا برأسها لايزال منكسا فى اصرار .. ولم يجسرعلى ان يمس ذلك الرأس !

وما لبثت أن قالت فجأة : « تعال ! »

ومست ذراعه ، ثم وقفت فسوت من ردائها وشدته عند الركبتين ، وسارت عبر الفناء فى خطى سريعة،فتبعها مترددا . وتجاوزا حظيرة الخنازير ، ومبنى الحمام ، وما لبثت المرأة أن انحنت فى خلال سيرها فاقتطفت زهرة زرقاء كانت نامية بجوار الجدول ، ثم واصلت المشى فى اتجاهها نحوالبحيرة .وكان « آلتونين » يسير وراءها بخطى متزنة ، ثابتة ، ولكنها لم تلتفت اليه قط . وكانت ثمة مسافات كثيفة من الطحالب ومن حشيش القطن على حافة الحقل .ومضت المرأة فى طريقها، حتى بدت البحيرة مستلقية أمامها . وكانت السماء عالية فوق رأسيهما ، واليوم حارا ، والشمس مشرقة . ولكن الرجل أحس بماء البحيرة ينفث فى كيانه برودة رهيبة ، كلما ازداد منه اقترابا

وتوقف عندما بدأت الطحالب الكثيفة تخف وتضمحل تحت قدميه . ولكن المرأة ظلت فى سيرها ، دون أن تتوقف ، حتى صافح قدميها الماء .. الماء الاسود الذى يخفى تحته وحلا لاقرار له !.. وجمدت فى المكان الذى وصلت اليه ، رغم ان الماء بلل حذاءيها . وأخذ جسدها ـ الجسد الذى ولد من جديد !ـ أخذ هذا الجسد الحى يترنح فى حركة بطيئة ، منتظمة ، فوق الوحل اللزج الذى لاقرار له ، وفوق الطحالب الغادرة التى تكسو سطحه . وكانت الشمس تتألق فى السماء ، وقد أومضت بين عيدان الاعشاب الكثيفة زهرات عباد الشمس ، تتوسطها نقاطها السوداء الدقيقة . وعلى الشاطىء الآخر ، بدت على البعد أشجار الشربين وهى تتطاول بجذوعها ، ومبنى

الحمام الذى شوهه الدخان بالسواد .. والمرأة فوق الوحل اللزج الذى لاقرار له ، تتأرجح وتتمايل ، وقد بدا شعرها كموجة وضاءة تعلو وجهها الاسمر

وفجأة ، توقفت عن ترنحها ، ورفعت راحتها تظلل بها عينيها ، ثم عادت الى « آلتونين » فى تؤدة وتثاقل ، وهى تتأنى فى كل خطوة وتستوثق من مواطىء قدميها . واذ ذاك، أمسكت بذراعه بكلتا يديها ، وأمالت رأسها الى الخلف قليلا ، وقالت : « هكذا استطيع أن أصور شعورى الآن ! »



وفهم « آلتونين » ما كانت تعنى .. هكذا كانت حياتهما . انهما الآن قد تحللا من كل شىء .. ولم تبق سوى السماء الزرقاء الصافية فوقهما ، بينما تراكم تحتهما شىء أسود لاقرار له . وما كان تأرجح المرأة على حافة الحمأة الا رمزا على انها لم تعد مدينة لاحد فى الدنيا بشىء ما ! .. واستقرت يداها ـ اليدان البديعتان ـ على ذراعه . وأشرق وجهها بابتسامة غريبة وهو يشرئب نحو وجهه .. ولكن الحنان الجامح الذى كان فى نزوتها هذه ردها الى نفسها ثانية ، فأفلتت ذراعه !

وفيما كانا عائدين ، على ضفة الجدول ، سمعا صوت ارتطام حجر من ناحية الدرب الذى يتخلل سفح التل . . واذا الرجل المقيم بالغرفة الداخلية يسير فى الدرب الضيق الذى مهدته

حوافر الماشية ، ساعيا الى بوابه المزرعة ، وقد أمسك بغصن من أشجار الحور ، نضا عنه أوراقه ، وراح يضرب به الاشجار التى كان يمر بها فى طريقه . وهو يترنح بخطى غير متزنة ، راكلا الحصى الذى كان يصادفه !

وتوترت عضلات المرأة التى كانت تسير بجانب « آلتونين » فى لمح البصر ، فاذا بوجهها يكتسى جمودا وحدة ، واذا بعينيها تتجمدان على شكل حجرين أزرقين · وغذت السير ، دون ان تلتفت اليه ، فاجتازت حظيرة البقر ، وعبرت الفناء ، ثم ولجت الدار · ووقف « آلتونين » جامدا ، على مقربة من مبنى الحمام ، فى ظل أشجار الشربين الوارفة · واحتبس أنفاسه وهو يراقب الرجل يمر به ، بخطواته المترنحة ·· وما لبث أن عاد الى سلم سقيفة المخزن ، حيث كان يجلس والمرأة من قبل ··

ومست وجهه نسمة رقيقة ، ولكنه لم يحس بها · وكان محصول الجودار الصغير يستوى خلف السياج ، فى خضرة مشوبة بالاحمرار ، ولكنه لم يكن يراه ، وكأنما عميت عنه عيناه · وأخذ يتحسس ذراعه ·· كانت ذراعا قوية تستطيع أن تعمل منذ الفجر حتى هبوط الظلام ! ·· وتحسس صدره ·· كان صدرا عريضا ، قويا ، تنضح قوته تحت القميص الابيض · اذن ، فمن أين جاءه هذا الضعف والخور ؟ ·· أتراه بلغ نهاية مشكلة أخرى عجز عن علاجها ، كما عجز عن علاج مشكلته الاولى ؟ ·· وأحس مرة أخرى بأنه مغلول بأصفاد حديدية قاسية ، وبأن على صدره عبئا يرزح تحته ، وان كان العبء فى هذه المرة عبء سواه ·· كما ان الظروف لم تكن غير الظروف التى أحاطت به فى المرة الاولى ، اذ أنه لم يعد يضنى نفسه ويرهقها بتفكير لاطائل من ورائه ! ·· كان الموقف فى هذه المرة واضحا ، جليا ·· ومع ذلك ، وبرغم ذلك الوضوح ، فانه لم يكن يرى أمامه مخرجا منه !

* * *

وفجأة ، انتصب واقفا ، وقد أظلمت الدنيا فى عينيه . فقد تناهت الى أذنيه صيحة معذبة من داخل الدار . وهرع نحو الدار وهو لايكاد يرى طريقه ، وقد غشيه تشاؤم ارتجف له قلبه . ودفع باب حجرة الجلوس فى عنف ، واذا به يرى المرأة جاثية على ركبتيها ، والرجل المقيم فى الحجرة الداخلية ينحنى فوقها ، يحاول أن يثنى ذراعها خلف ظهرها . ولم يبصر « ألفريد » القادم ، اذ كان وجهه ، بل كل كيانه ، يختلج بشهوة عاتية ، طاغية !.. كان الثوب الذى لم تعتد المرأة ارتداءه ، والذراعان البضتان العاريتان ، قد أثارتا الشبق فى كيانه ، فلم يعد يشغل فكره سوى الظفر بها ، واطفاء شهوته . ولم يعد يشعر بشىء .. لم يشعر حتى بالضربة التى هوت عليه ، ولا بالالم الذى أعقبها !

وأمسك « آلتونين » بالتعس من قفاه ، فرفعه ، ثم ألقى به أرضا . وعاد ينهضه من سقطته ، ثم صفعه بعرض راحته على وجنتيه بكل قواه . وترنح الرجل ـ وكأنه أوشك أن يسقط مغشيا عليه ـ ورفع ذراعيه يحمى وجهه فى تخاذل المستضعف العاجز . وأمسك « آلتونين » به مرة أخرى ، ثم أخذ يجره الى غرفته ، فدفع به الى داخلها ، وأغلق الباب بالقفل ، ووضع المفتاح فى تؤدة على المائدة . ثم وقف برهة مترددا ، وهو يرمق فى وجوم سرير المرأة الضيق ، الخشن ، والغرفه الكئيبة . وما لبث أن استرد سيطرته على أطرافه المرتجفة تحت فورة الانفعال ، فارتد عائدا الى حجرة الجلوس

وكانت المرأة لاتزال راكعة على ركبتيها هناك ، تفرك ذراعها الملتوية ، فى حركة لاشعورية . وكان ثوبها قد شق حتى منتصف الجزء الامامى ، فتعرى أحد ثدييها ، وبرز متهدلا ،

خاليا من الحياة ! ٠٠ ولم تحاول أن تستره حين أقبل «آلتونين» عليها فرفعها ، ووقف يلهث وهو يحتويها بين ذراعيه ٠ واستوت على قدميها وقد تيبست عضلات جسدها ، وغشيها جمود بارد ٠٠ واستسلمت لعناقه القوى وقد اكتسى وجهها صرامة ، وعادت عيناها تلمعان كحجرين أزرقين !

ثم تخاذلت ذراعاه ٠ ورفعت المرأة يدها فسوت شعرها فى حركه خائرة ، فاقدة الحياة ، ثم ضمت أطراف الثوب الممزق ، وقالت : « ألا انصرف الآن ! »

وعاد يتأملها وقد تلاشى عن أساريره كل انفعال عاطفى ، ثم تناول حجر المسن من فوق الرف القائم خلف الموقد ، وخرج

وعندما وفدت المرأة على الفناء بعد فترة من الوقت ، كانت ترتدى ثوب العمل الزرى ، الرخيص ٠ ورأت «آلتونين» يجلس على سلم سقيفة المخزن ، والى جانبه حجر المسن ، ووعاء به ماء ٠ وكان عاكفا على شحذ الفأس ٠ وجمدت أطرافها ٠٠ ثم سارت اليه فجلست بجانبه ، ولكنه لم يرفع عينيه عن عمله ، ولم ينظر اليها ٠ وما لبثت أن مست ركبته بيد متراخية وقالت :

ـ لماذا تعكف على شحذ الفأس فى يوم الاحد ؟

وتوقف « آلتونين » عن العمل ، وتطلع اليها ، ثم قال وهو يومىء برأسه نحو البيت : « لسوف أقتله ! »

وحملقت المرأة فى الفضاء ، وقد بدا وجهها ـ فى صرامته ـ قبيحا ، بينما استرخي « آلتونين » فى جلسته ، وراح يحدق فيها ، فى تساؤل حزين ٠ وأخيرا ، قالت فى قنوط : « لن يجدى هذا شيئا ! » ٠٠ وألقت أصابعها الرفيعة ، المتناسقة ، التى أكسبها العمل خشونة ، على راحة يده ، وأضافت : « لن يؤدى هذا الا الى أن أفقدك ! »

وكانت الارض تحتهما هى عين الارض التى كانت تحتهما من قبل ٠٠ وقبة السماء على نفس الارتفاع الذى كانت عليه ٠٠ وعيدان الجودار اليافعة لاتزال تتمايل ووهج الشمس ينعكس

عليها ، فتبدو كموجات متألقة . ولكن سعادتهما كانت قد تبددت ، وان لم تستشعر الارض فرحا ولا حزنا ! .. **ما كانت هذه الارض تتأبى أن تتلقى ـ ودون ما اعتراض ـ جثة الرجل العليل : لحمه المتهدل المثير للاشمئزاز ، وعظامه المكسوة بالدهن ، وكبده المتقلصة السوداء ، وقلبه المتخبط فى حمأة العواطف المخبولة ! .. كانت الارض على استعداد لان تتقبل هذه الجثة ، لو ان الفأس استأصلت الحياة من صاحبها .. وما كانت الارض لتلفظها بعد ذلك ، بل كانت خليقة بأن تبتلعها في جوفها ـ في صمت أبدى ـ بينما تتوالى الشهور والاعوام! .. ولكن هذا لم يكن ليجدى فتيلا .. لم يكن ثمة خير يرجى من وراء العنف والتمرد !**

* * *

• **وأرسلت** المرأة زفرة مكدودة ، مضناة ، وهى تسحب أصابعها عن يد « آلتونين » ، وقد غشيها شعور بارهاق شامل .. بتعب الشخص الذى أضناه الكفاح دون أى نفع ، فلم ير بدا من الاستسلام لليأس !

وقالت أخيرا : « هيا بنا الى الداخل ! »

ودون ان تنتظر جوابه ، نهضت فصعدت فى تؤدة درجات سلم السقيفة ، والخشب يئن تحت قدميها ، حتى بلغت بابها ففتحته ، ونفذت الى المكان المعتم ، الذى كان جوه مفعما بعبير كعبير الثياب الحديثة الغسل . وألقى « آلتونين » بالفأس والمسن جانبا ، وسكب ما كان فى الوعاء من ماء ، ثم تبعها الى الداخل . وعلى الملاءة الخشنة التى كانت مبسوطة على التبن ، والتى كان يتخذها الشاب فراشا فى كل مساء ، استلقى « آلتونين » الى جانب المرأة .. وألصقت وجهها بالملاءة ، بينما مدت يدها الى كتفه . وكانت نفس اليد التى أكسبها العمل خشونة ، ولكن ملمسها كان عذبا ، ناعما ..

ولم يعد أى منهما وحيدا !

وظلا راقدين جنبا الى جنب بلا حراك ، داخل المخزن المعتم ، الرطب ، حتى اللحظات الاخيرة فى عمر الاصيل ، حين تحول النور المنساب من النافذة الصغيرة الى حمـــرة وردية ، وحين تناهت الى سمعيهمـا جلبـة عجلات العـربة وهى تقترب ، فى الطريق

ورفع « آلتونين » جسده على أحد مرفقيه ، وأطل برأسـه . كانت الفرس البيضاء العجوز تتقدم منكسة الرأس تعبـا ، وهى تجر العربة القديمة التى جلس « هيرمان » على مقعدها ، ممسكا العنان بيد هزيلة . وبدا نحيلا ، كهيكل عظمى ، وقد خلعت عليه أشعة الشمس المحتقنة اللون ، المحتضرة ، رهبـة ينقبض لها الصدر . وكان ظلا الفرس والعربة يتراميان على أعواد الجودار القائمة على جانب الطريق

وهكذا دخل « الموت » فناء المزرعة ، تجره فرس بيضـــاء عجوز !



الفصل الثامن

• وعادت الايام تتابع سيرها وتواليها وكأن شيئا لم يحدث . وهبط المطر فألان من تيبس الارض ، وأخذت الاعشاب المبتلة ـ على مقربة من البئر ـ تعلق بالاقدام الحافية ، والضوء ينعكس على الشعيرات الزغبية التى تكسو هذه الحشائش ، فيرتد فى الجو الراكد بريقا . وكانت السحب المكفهرة تغيم على وجـه السماء ، والبرق يلمع فى ومضات منذرة خلال العتمة ، وهزيم الرعد يتردد من تل الى تل فى ضجيج مقبض . وتجمعت الابقار تحت الشجر الطويل ، محتمية من الطبيعة الغاضبة . وأخذت مياه المطر الدافق تتجمع فى سيول لاتلبث أن تتفرق ، متخذة لها مجارى على صفحة الطريق الحجرية المنحدرة

ثم أعقب ذلك أيام ساطعة الشمس، فدفعت النباتات الدرنية سيقانها الداكنة الخضرة الى مافوق سطح الارض ، ولمعت قمم ثمار البطاطس ، واصفرت عيدان الجودار وقـد انحنت تحت ثقل سنابلها فى الحقل المستلقى تحت أشعة الشمس ، على سفح التل . وكان الحشيش المعد للعلف قد جمع حول الاعمدة المخصصة لتجفيفه

وكان « آلتونين » ينام فى الليل نوما عميقا ، خاليـــا من الاحلام . ونسيت المرأة كثيرا مما كانت تكره التفكير فيه وهى تطهو طعام العشاء ، أو تحلب الابقار وتغذيها بيدين أنهكهمـا طول التفافهما على مقبض مذراة التبن . ودبت فى « هيرمان » ـ خلال أيام الحصاد الحافله بالعمل ـ حيـاة جديدة ، فراح يشترك فى العمل . حتى الرجل المقيم فى الحجرة الداخلية ، اضطر الى الخروج من معتكفه والمساهمة فى العمل بضعة أيام ، ليستحل لقمته ، ثم لاذ بمخدعه من جديد ، وهو يشكو آلاما فى رأسه ومعدته ، فلم يعد الى العمل بعد ذلك ثانية !

وجاءت أيام عاود الابتسام فيها المرأة من جديد ، وهى تبلل يديها فى مياه الجدول الداكنة ، أثناء النهار . وكانت تبتسم وهى تستند الى المذراة ، لتجفف عن جبينهـا قطـرات العرق المتفصدة التى توشك أن تنحدر الى عينيهـا . وكانت تسرح بصرها متأملة الاحمال الثقيلة من المحصول ، التى كانت الفرس العجوز ـ الصلبة العود ـ تجرها عبر الحقل ، وقد شـدت كل عضلة فى بدنها الضامر . وتظل المرأة فى الحقل ، وقد شمرت عن ساعديها ، وتركت صدر قميصهـا مفتـوحا ، حتى أحالت أشعة الشمس الساطعة لون بشرتها الى حمرة جميلة . **واستمدت من يقظة جسدها من خموله قوة ومرونة استعانت بهمـا على اداء هذه المهام الثقيلة . وكان ثدياها ينتفخان فيدفعان القميص المشدود ، والعرق ينساب منحدرا بينهما اذا ما اشتدت وقدة الشمس ووطأة الحر . وكانت تنتشى كل يوم بمرأى عنق ذلك الغريب الحبيب ومنكبيه العاريين !**

وحصد « آلتونين » محصول المروج النائيـة وحده ، فكان ينهض قبيل الفجر ، ليتمكن من أن ينقل الكميات الأخـيرة من التبن ، من شاطىء البحيرة ، قبل أن يحين موعد الغداء

* * *

• **وقالت** المرأة لهيرمان ذات صباح: « هل تستطيع ان تتولى حلب الابقار عند غروب هذا اليوم فقط ، لاعاون آلتونين على الفراغ من المروج المتطرفة ؟ » .. فتطلع اليها الفلاح المكتهل بعينيه الكليلتين ثم نظر الى « آلتونين » الذى لم يلبث أن أشاح بوجهه وقد تصاعد الدم دافقا الى خديه اللذين اشتدت سمرتهما، تخالطها حمرة من أثر الشمس

وقال الشيخ أخيرا : « قد أستطيع ! » .. وهم بأن يضيف عبارة أخرى ، ولكنه أسرع فعقل لسانه . وان هى الا هنيهة ، حتى غادر البيت . وعندما لحق به « آلتونين » فى الفناء ، قال الشيخ وهو يسرح بصره الكليل نحو القرية : « سأحلب البقر صباح غد أيضا ، وأنقل اللبن الى المعمل ، مادمتما لن تحتاجا الى الفرس .. فليس من داع لان ترهق نفسك ، وان تقتصد فى نومك لتقوم بهذه المهمة »

ولم يسعف الكلام « آلتونين » ، فسكت عن الجواب . كان من رأيه ان من الممكن ـ بمساعدة المرأة ـ نقل الاعشاب الى أعمدة التجفيف فى يوم واحد ، ولكنه تحت النظرة الخابية التى رمقه بها « هيرمان » ، شعر كما لو كان الشيخ يفاجئه متلبسا بسرقة ما .. فخفق قلبه فى عنفٍ !.. وكان كل ما استطاع ان يقول ، بعد ان غالب تردده: « انتبه الى سرج الفرس، واحرص على «الرشمة» أن تنكسر .. كان يجدر بى ان أصلحها، ولكنى لا أجد متسعا من الوقت فى غمرة انصرافى الى تجفيف الاعشاب واعداد الدريس »

ولم تكن الشمس قد غربت بعد ، عندما فرغ « آلتونين » والمرأة من تهوية آخر كمية من الاعشاب ، وربطها الى الاعمدة لتجف . وكانا فى المروج الممتدة عند أطراف الحقل ، التى كانت تبدأ عندها الاراضى التابعة لكنيسة القرية ، داخل الغابة . وكانت الغزلان والوعول لاتزال تعمر هذه الاراضى ، ولذلك

استأجرها من الكنيسة منتدى رياضى من المدينة المجـاورة ، فكان أعضاؤه يفدون فى الخريف ليقضوا فى أنحائها عطلات نهايات الاسابيع ، مزودين بالبنادق ، مصطحبين كلابهم .. وقد أنشىء لهم على حافة الاراضى المزروعه كوخ يشرف عـلى بركة ماء كانت تستلقى عند طرف الغابة

ولم يكن فى الارض زائر فى ذلك اليوم

وقالت المرأة لآلتونين : « سنقضى ليلتنا هناك ! »

ولم تكن المسافة بين الحقل وبركة الماء طويلة . وشاهدا زنابق الماء البيضاء تسبح عـلى سطح البركة الذى انعكست عليه صور الاشجار السامقة . ووجدا الكوخ الصغير غـير موصد . وفى كوة عند المدخل ، عثرا على ثقاب وملح ، كما ألفيا خشبا للوقود متراكمـا فى الخارج ، الى جـوار أحـد الجدران . وكان الزائرون يفدون فى الصيف أحيانا ، ولكن الشواهد دلت على ان أحدا لم يفد على المكان منذ أسابيع

وكانت الربوة القـائمة أمام المبنى لاتزال دافئة من أثر الشمس . ومع ان عمل اليوم كان قد انتهى ، الا ان جسدى الرجل والمرأة ظلا ملتهبين ، لطول ما تعرضت بشرتهما لاشعة الشمس الحامية . وزحف « آلتونين » الى البركة ، وأخـذ ينثر الماء على رأسه وكتفيه . وشد ما أدهشه أن ألفى المـاء باردا ، مما أوحى اليه بأنه ولابد ينبثق من عيون خفية تكمن تحت الصخور

وسألته المرأة التى كانت الى جواره وهى تبتسم : « هـل تعرف السباحة ؟ » .. وكانت ابتسامتها عين تلك الابتسامة الغريبة .. ابتسامة جنون الى درجة تدعو الى القلق ، اذ كانت تسـتل من « آلتونين » كل قواه ، وتتركه أمامهـا حائرا مستضعفا !

وهز رأسـه بالنفى ، وقد احس باسـتحياء لعجزه عن السباحة . وبدا الوجوم على المرأة فجأة ، و زوت مابين حاجبيها

مقطبة ، ثم عقدت ذراعيها خلف ظهرها ، وأخـذت ترمقه ، وهى تقول : « أما أنا ، فسأغتسل فى البركة ! »

ونضت عنها ثيابهـا خلف الكوخ ، ثم رآهـا « آلتونين » تخطر الى الماء عاريه ، بين أعواد من الخيزران على مسافة من مكانه . وحول عينيه عنها فى ارتباك ، محاولا ان يوجه بصره وجهة أخرى . وسمع صوت جسم يهبط الى الماء .. ثم سمع حفيفا بين أعواد الغاب بعد فترة ، وما لبثت المرأة ان عادت فارتدت ثيابها ، وتركت شعرها وعنقها مبتلين ، بينما راحت عيناها الزرقاوان تتألقان بوميض لامع . ثم ركعت الى جوار « آلتونين » ، وهزت شعرها وهى تطلق صيحة جزل خافتة . **وأرسلت يدها تمسح - بخفة - ظهر الرجل ، فكأنما بثت فى بشرته الملتهبة نارا استعرت بين قفاه وخاصرته !.. وارتعد ، ولكنه كبح يديه فلم تتحركا ، وراح يحدق ، بعينين اشـتد سواد مقلتيهما ، فى الرقعة الصغيرة الحمراء التى كانت بادية من السماء ، خلال أشجار الغابة . وما لبثت ان سرت فى كيانه غبطة لم يسبق له بها عهد من قبل ، ولا كان يتوقعها !**

وفجأة ، قفزت المرأة مستوية على قدميها ، وتناولت سلة الطعام ، وشرعت تخرج منها العشاء

وزحف الظلام بين الأشجار .. وتلاشت آخر فلول الشفق المنعكس عـلى سطح البركة ، فى الوقت الذى فرغا فيـه من العشاء .. أو بالاحرى الوجبة الضئيلة التى يعتمد عليها الفلاح ليعوض الجهد الذى يبدده فى الحصاد !.. وكانت الامسية حارة . وما ان نفضا أيديهما من الأكل ، حتى أسندا ظهريهما الى جدار الكوخ ، وراح كل منهما يستمتع بوجود صاحبه الى جانبه . وظلا جالسين ، متجاورين ، وقتا طويلا ، وقد نضب الحديث بينهما ، ورانت على المرأة سكينة تفوق كل هـدوء مألوف عنها . ثم غاضت ابتسامتها مخلفة وجهها مجردا من الاشراق ، يبدو شحوبه فى العتمة ، وان كان فمهـا الذى

اعتادت ان تزمه فى صلابة ، منفرجا فى غبطة وهناءة

وما لبث « آلتونين » ان نهض متثاقلا ، فتناول سكينه ، وقطع عدة حزم من فروع الخيزران الليفية ، ونشرها على أريكة خشبية مثبتة الى جدار الكوخ المظلم ، ثم بسط فوقها سترته ، وأعدها فراشا للمرأة

ووقفت فى فراغ الباب ، معتمدة بيدها على حافته ، مسرحة بصرها فى الفضاء الذى كان يبتعد عنها فى صمت وسكون بين أطواء الظلام ، حاملا معه هموم اليوم ، وآلام الماضى المضنية !٠٠ وكانت الارض ترقد تحت قدميها ، ساكنة ، هادئة !

★ ★ ★

• **واذ** رقدت فى الظلام على السترة القذرة ، التى كان يفوح منها عبير الارض والهواء الرطب ، توتر جسدها فى عنف ، وسرت فيه برودة قاسية ، وقد استولى عليها الجزع حين مسها الرجل !٠٠ وآلم التوتر والبرودة أطرافها ، وقتلا طربها ٠ وانبعثت من فمها شهقة باكية ، أطلقها شعور بحيرة يائسة موحشة ، فأسرع الرجل ينأى عنها لفوره !٠٠ وبعد صمت طويل ، كادا يحتبسان خلاله أنفاسهما ، مد يده فى



الظلام ، وربت شعرها وجبينهـــا فى رفق ناعم ٠ كانت يدا ضخمة ، خشنة ، ولكن لمســاتها كانت غاية فى اللطف !٠٠ كانت يدا رفيقة لرجل غريب عنها !٠٠ وراحت هذه اليـــد تربت ـ فى الظلام ـ خدها ٠٠ ثم عنقهـــا ٠٠ فكتفيها ٠٠ وكانت لمسات الاصابع الخشنة ، الصـــلبة ، متعة غامرة ٠٠ كانت نعمة أرسلت الحيـــاة فى خدها ، وفى عنقهـــا ، وفى كتفيها !

وازدادت منه قربا ، ثم ألقت يدهـــا الميتة عـــلى عنقها ، وتركتها حتى دبت فيها ـ هى الاخرى ـ الحياة ٠ وعندما لمست يده ثديها ٠٠ آلثدى الحزين ، المسكين ، صدرت منها شهقة باكية أخرى ٠٠ شهقة خافتة كأنما كانت تنفس بهـــا ضغط انفعالاتها !٠٠ وكان ثدياها كالزهرتين ، تفتحتا ـ عند أول لمسة ـ عن عواطف جياشة ، فأسرعت تتشبث بذراعه القوية ، لتحفظ يده من ان تنتزع بعيدا عنها !

وفى هدوء ولطف وحنان ، ارتد اليها ، وكأنه غبطة ناعمة لا عهد لها بها ، ولا كانت تخطر ببالها !٠٠ وكان ثقل جسمه مستعذبا ، وضغط فمه القوى على عنقها نعومة تبعث النشوة فى أوصالها !٠٠ ومرة أخرى ، اهتز مرقدها تحتها ، وتأرجحت فوق أغوار غامضة ، وسبح رأسها مع الانغـــام المنبعثة من جوف الارض !٠٠ **وأقبلّ عليها فى هدوء ، ورفق ٠٠ وحنـان لا حد له ، فافتر جسدها كله عن ابتسامة لمقدمه بعـــد طول عذاب ، وهوانّ ٠٠ بعد طول موت !٠٠ واتسعت مقلتاها فى الظلام ، وانفرجت شفتاها عن ضحكة كأنها انبثقت من نبـع خفى فى أعماقها ٠٠ ضحكة صافية ، عذبة ، شقت طريقهـــا خلال افتتانها الممتع ، بينمـــا كانت يداها تتشبثان بكتفى الرجل القويتين ، المتينتين**

وبعد هذه الضحكة الصادرة عن فرح أهوج ، عربيـــد ، أيقنت انها لن تخشى الموت اطلاقا ، ان جاءها !

وعندما استيقظت فى ساعة متأخرة من الصباح التالى ، ألفت ضوء النهار الساطع ينساب الى الكوخ الرطب ، وأحست انها عثرت على شىء لم تفز به الا قلة نادرة !·· **كانت الحياة البشرية هزيلة ، مفعمة بالأسى ، زاخرة بالهموم ·· ولا بد لها من مثل تلك الليلة كى تتخلص من آلامها !·· وشعرت - فى نشوة وعناد - بأن أى ثمن لايمكن ان يكون غاليا بالنسبة لتلك الفرحة الجامحة ·· وان ليس بين الحوائل التى بناها العرف الاجتماعى ، والانسانية ، حائل منيع يقوى على صدها عن هذه المتعة !**

★ ★ ★

◆ **وكان** الرجل نائما الى جوارها ، مريحا رأسه الى يده العريضة ، وقد نبتت فى ذقنه شعيرات قصيرة متناثرة كالحشائش الشوكية · وكان يغمض عينيه الساجيتين ، اللتين رسم الضوء فى أركانهما خطوطا حادة ·· وظهر صدره الاسمر خلال فتحة قميصه · ان هذا الرجل رجلها !·· انه ملك لها·· مألوف ، وغريب ، وحبيب ، وعامل لايملك شروى نقير ، وأجير يشتغل فى مزرعتها ليوفر للماشية علفا ، وللفرس «جودار» ، ولكى لا تصرخ الخنازير معولة لفرط الجوع !·· لقد حمله الدرب الصاعد من القرية الى المزرعة فى يوم من أيام الربيع ، عند الغروب ، فلا ينبغى - أبدا - أن يحمله هذا الدرب بعيدا ! ·· **ان الارض أصبحت أرضه ·· ظفر بها بالعمل الكادح الدائب ·· لا بالقوانين التى سنها البشر ، وانما بقانون الارض ذاتها !·· لا ، لا ينبغى أبدا أن يحمله ذاك الدرب بعيدا !**

ولم تكن المرأة تخشى العمل الشاق ·· لقد ظلت حتى اليوم تعمل كالرقيق ، فى جد وعناد ، لتغرق فى العمل يأسها وقنوطها ·· ولسوف تعمل ، ولكنها منذ اليوم ستقبل على عملها فى غبطة وابتهاج · لقد تذوقت السعادة بالفعل ، ولن يرهقها أو يؤلمها بعد اليوم شىء على الاطلاق !·· لقد أصبحت

متأهبة لان تواجه محصـولات أسـوأ ، ونكبات أفدح من كل ما صادفها من قبل !.. **ان الارض تجلب الشيخوخة المبكرة لمن يخدمونها ، وتستنفد أجسام النساء قبل الاوان ، ولكن هـذه المرأة لم تعد تخشى الشيخوخة ولا القبح ، طالما ظل هذا الرجل بجانبها .. بل انها لم تكن تخشى أن تحمل فى أحشائها ابنا له ، لو كان القدر يريد ذلك !**

هكذا راودتها الاحلام فى ذلك الصـبـاح ، وهى ترقد فى الكوخ الى جوار الغريب . ولكنهـا كانت تدرك ـ وما أقسى النظرات التى انبعثت من عينيها حين وصلت فى تفكيرها الى هذا الحد ! ـ كانت تدرك ان المستقبل ليس ملك يديهـا . لقـد أرسل القدر هذا الغريب الى المزرعة عند غروب شمس أحـد أيام الربيـع .. أما عواقب هذا الحدث ، فليست رهن رغباتهما !.. كانت الارض تهتز تحت أقدامهما ، والظلمات تدلهم منذرة بالشر !.. كانت المرأة توقن انها ستدفع ثمنـا غاليا لقاء كل ساعة من سـاعات الغبطة .. وان لم يكن أى ثمن ليعتبر غاليا ، مهما يرتفع ويبهظ !

لقد كانت تتحرق ظمأ ، وتكاد تهلك لفرط العطش ، وهاقد انسكب من أجلها سيل عليل ، نمير ، فأقبلت تعب منه ، وهى تخشى ان ينتزع منها !

لقد انفصلت عن الناس ، فكان نصيبها مغايرا كل المغايرة لانصبتهم . ولكم ثارت عـلى الحظ فى أسـاها وغيظها ، لان خيبتها وسوء حظها كانا أكثر مرارة مما أصاب سـواها .. ولكن ، ها هو ذا نصيبها من الغبطة يفوق ـ اليوم ـ نصيبهم بدرجة لا سبيل الى قياسها !.. فما حظى بمـا نعمت به من سعادة كاملة ، لا يشوبها وهم ولا خداع للنفس ، ولا يزاحمها فى القلب شعور آخر .. ما حظى بهذه السعادة سوى القلة !.. ومن ثم طردت الخوف من نفسها لكى تستمتع أكمل استمتاع بكل ساعات هذه الهناءة ، فلربما كانت أى من هذه الساعات

هى الساعة الاخيرة !

وراحت تتأمل الرجل النائم بجانبها ، وقد ارتسمت على شفتيها ـ المنفرجتين لفرط النشوة ـ ابتسامة ناعمة ٠ورفعت يدها ثم ألقتها فى رفق على صدره ، ودستها تحت قميصه على اللحم الناعم ، المتماسك ، لتتحسس قلبه الذى كان يخفق فى هدوء ، فاذا بالوجيب يتوقف للحظة ، ثم ينطلق عنيفا ، قويا٠ ورفعت بصرها الباسم الى وجهه ، فتبينت ان عينيه كانتا مفتوحتين ، وقد بدا فيهما اطمئنان الى أنها لم تنصرف ، وانما كانت لاتزال مستلقية الى جواره ٠٠ وردت على نظرته بابتسامة حنون !

وأخذ كل منهما يحدق فى عينى الآخر ، بينما كان الرجل يخرج من نعاسه العميق رويدا ، عائدا الى الحياة ٠وبينما كانت يدها تتلمس النبض العاتى ٠٠النبض القوى ـ المنبعث من قلبه ـ الذى يكاد يقفز من صدره الى حلقه ، فيخنق أنفاسه انفعالا !

* * *

• **وأخذ** الشيخ ـ خلال تلك الايام المشمسة من فصل الصيف ـ يطوف بالاماكن المألوفة فى هدوء ، وكأنه كان يودع الحقول الهزيلة ، والوهاد النامية الاعشاب ، التى عجز فى حياته عن أن يذلل طبيعتها ويستصلحها للزراعة ٠ وكان يلاحظ شيئا من التغير هنا أو هنـــاك ٠٠ فما كان لرجل واحـد ـ مثل التونين ـ ان يؤدى قدرا كبيرا من العمل فى فصلى الربيع والصيف القصيرين ، ولو عمل من الصباح الى المساء ٠ ومع ذلك ، فقد كانت المصارف مطهرة ، وألواح السقوف الخشبية قد رتقت ورثبت صدوعها ، ومحاور الابواب (المفصلات) قد أصلحت ٠٠ **وبدا كأنما شرعت التربة ـ فى ذهولها ازاء مجهود هذا الرجل ، الفرد ـ تغل محصولا وافرا !٠٠ وكان الشوفان ينمو سريعا ، على الارض التى سمدت بالجير ـ على مقربة من البحيرة ـ والتى لم تكن تنبت فيما مضى سوى اعشاب الحلفا**

.. ورؤوس البنجر الخضراء تبشر بغذاء طيب للماشية ، يدر لبنا وفيرا للشتاء ، كما ان حظيرة الخنازير وسعت لتضم الخنازير التى ستشترى فى الخريف !

وكانت عينا الشيخ الخاليتان من كل تعبير تطوفان بمعالم الارض المألوفة ، ثم تسرحان فى تلكؤ نحو السماء . ولا يلبث أن يتوقف ليلتقط أنفاسه،ويستند الى احدى الاشجارالضخمة، فيروح يربت جذعها فى استخفاء وتستر . وكان يتحسس المرتفع الكبير الذى يتوسط المرج ، ويسائل نفسه عما اذاكان سيحين وقت ينسف فيه هذا المرتفع بالمواد الناسفة ، وينقل ركامه وبقاياه ، ويسوى موقعه مع باقى الارض . وكان القلب المنهوك يخفق فى صدره بدقات لاتكاد تسمع ، وهو يودع الارض التى كانت يوما أرضه ، وان أعوزته القوة ليصلحها ويفلحها . ولكن الامر كان سواء لديه .. يستوى عنده من كان يملك الارض ، طالما كانت تحرث وتبذر ولا تترك مهملة !

ولاحظ أشياء كثيرة . لم يكن ثمة ما يغيب عن انتباهه الآن، حتى لقد أصبح ينفذ ببصره خلال الغيب ، بين أمطار الخريف والضباب ، ليلمح اليوم الساطع .. اليوم الذى سيكون آخر أيامه . وكانت العصافير الصغيرة قد اكتست بالريش،وهجرت أعشاشها .. والنمل يحفر دائبا فى الارض ، ويكوم التراب على حافة الدرب .. وصياد سمك غريب يجذف فى قاربه المسطح ، ماضيا فى النهر . ولكن الشيخ كان يرى أشياء أكثر من هذه .. كان يرى أشعة الشمس والقمر وهى تنفذ خلال الارض العتيقة ، فاذا الزهور تتحول الى ثمار ، واذا الحيوان يبحث عن أليفه فى ظلال الغابة المعتمة .. والعيون المائية تغسل الارض بمياهها .. والنمل يحمل دائبا قوته الى جحوره .. وظهر الرجل عار ، يلمع وكأنه شمس سمراء ،وهو يسير خلف المحراث والمرأة تتبعه ، كالقمر ، لايسأل عمايدعوه لان يتبع الشمس !

وأدرك الشيخ - الذى كان وجهه يزداد كل يوم نحـولا وشحوبا - ان السعادة قد فاضت على المزرعة ٠٠ سعادة لم يشعم مثلها يوما فى حياته !٠٠ ولم يستشعر حسـدا ، ولا بددت طمأنينة نفسه ثمة حسرة ٠ بل ان اقتراب الموت كان يشيع فى نفسه قناعة ورضى وسكينة !٠٠ ولقد كان طيلة حياته منطويا على نفسه ٠٠ كان كالحبة الجافة ، الميتة ٠ أما اليوم ، وهـو يتطلع الى يوم موته الساطع الشمس ، فقد تفتحت عيناه على غبطة جديدة ٠٠ كانت الشمس، وكان القمر ، على مقربة منه !٠٠ لقد تذوق خبز الحياة ، واحتسى نبيذ الخلود ٠٠ وفى هـذا مايكفيه كل الكفاية !

وكثيرا ما كان يفكر فى عمه « جوز » الذى وجد ميتا تحت شجرة « التامول » فى المرعى ، حيث ذهب يبحث عن جواده ٠ لابد انها كانت ميتة طيبة ، ان استلقى على الحشـائش ، والى جواره جواد كبير ، صديق ، حيره ما ران على جسد صاحبه من سكون بارد ٠ أنه ماشعر قط بعذوبة هذه الميتة بمثل القـوة التى كان يشعر بها الآن !

وكان صوت آلة «الدراس» - التى توجد فى القرية - يتناهى الى أذنيه من الحقل ٠ ومن آن لآخر ، كان يفد على الدار عمال أغراب ٠ وكان التبن الاصفر الباهت ينقل الى السقيفة ، بينما كان مخزن الغلال مليئا بالغلال ذات الحبوب الكبيرة ، المكتنزة

* * *

• على أن الصمت لم يلبث أن ران على المزرعة من جديد ، وان كان صوت آلة «الدراس» قد أيقظ الحياة فى الرجل المقيم فى الغرفة الداخلية ، فاذا به قلق ، لايستقر ، يقضى نهاره هائمـا متسكعا فى المزرعة والغابة ، ويصرخ فى الليل أثنـاء نومـه ، صرخات مروعة كانت توقظ الآخرين من سباتهم ٠ وكثيرا ماكان يقف فى الفناء ، ليرقب القرية - على البعد - بنظرة ماكرة ، تنم

عن تفكير قلق ، مضطرب

وعاد فى تلك الاثناء الى العناية بشبابه ، فأخذ يرتدى قميصا ذا ياقة ، وأزال عن ذقنه الشعر الذى كان قد تركه ينمو حتى صار لحيه ذات شعر ناعم ، قصير ، متناثر . وحاول ان يستدرج زوجته و « هيرمان » الى الحديث ، اذ راح يفاتحهما فى خطط ومشروعات للتحسين ، بعد أن جاء المحصول طيبا يضمن مالا كافيا لاستغلال المزرعة . بل انه ذهب الى حد إحصاء الاشجار التى يمكن استغلالها خشبا ، وراح يفكر فى بيع جزء من الغابة فى الخريف !

على أن تشبث الآخرين بالصمت أهاج حنقه فى النهاية ، فأخذ يتمتم ويسب ، وعادت عيناه تفيضان بالشر . وكان يتجنب « آلتونين » ، ذلك الوغد الضخم الذى أقحم نفسه فى أمر ليس لعامل المزرعة الاجير أن يتدخل فيه ، والذى اعتدى عليه فى قسوة ووحشية . وكان الحقد يستعر فى أعماقه كلما وقع نظره – على البعد – على ذلك الرجل القوى ، المعتد بنفسه، الصامت !.. **بل ان البغضاء مضت تفرى فؤاده ، وتثير الاوجاع فى رأسه ، وتدفعه الى التفكير فى الثأر ، والى الايغال فى أحلام غارقة فى الدماء !.. واستمرأ تصور الدماء تخالط أفكاره ، وان كان فى حياته الحقيقية ، الواقعية ، يكره الدماء وتغثى لها نفسه !**

كان بالنسبة للآخرين مجرد طيف ، أو شبح .. شبح بغيض ، عات .. ولكنه رغم ذلك ، عديم القيمة ! .. وكانت المرأة تنظر اليه فى جمود وعدم اكتراث ، وكأنما لم يكن له وجود كانسان ، فهو لايعدو ان يكون تمثالا من حجر ، فاذا تكلم ، لم تحفل بالانصات الى ثرثرته والى شكاياته !.. وكان الطعام يقدم اليه فى وجبات النهار كما يقدم لبقية الحيوانات

التى فى حظائر المزرعة ، ولكنه أصبح مضطرا الى أن ينظف حجرته بنفسه ، اذ باتت المرأة تأبى أن تطأ قدمها أرض هذه الحجرة ، ومن ثم ظلت القاذورات تتراكم حتى ضاق أخيرا باحتمالها ، فاضطر الى أن يتولى ازالتها بنفسه . وراح يزحف على أرض الحجرة – والدموع تملأ عينيه رثاء لحاله – فينظف ويمسح ، والتقزز يملأ نفسه ، ثم لايلبث أن ينقل القاذورات الى الخارج ، وأن يحمل الملاءات المتسخة الى ركن غرفة الجلوس !

وكان اصرار الآخرين على مقاطعته واهماله يبعث فى نفسه – أحيانا – الشك فى مجرد وجوده ، فراح يكثر من تحسس يديه البضتين ، وشفتيه الغليظتين ، وذقنه المرتعشة ، ليؤكد لنفسه انه مازال على قيد الحياة !.. **وكان ينتحب حزنا على تعاسته ، وذلته ، وانحطاطه الى مرتبة العبيد الذين يعملون بأيديهم ، وقسوة المرأة التى أصبحت تعامله كما لو كان دابة ، والتى أقامت رجلين فظين على حراسته !**

وأخذ القلق والاضطراب يستبدان به ، فأصبح نومه متقطعا ، غير منتظم ، وبات يئن ويزأر فى سريره خلال الساعات الطويلة التى تفصل بين منتصف الليل ومطلع النهار . وعبثا حاول أن يتدبر الاشياء التى يستطيع أن يسرقها ليبيعها ، فقد كان يحن الى المدينة .. الى المطاعم المتألقة الاضواء ، وخدمها الذين ينحنون له احتراما .. أو حتى الى حانة وضيعة ، تلطخ بقع الجعة أغطية موائدها !.. شد ما كان شوقه لان يمس زبد البيرة بشفتيه ، وأن ينصت الى النغمات المنسابة من الحاكى « الجراموفون » ، فى صالة يعبق جوها بدخان السجاير والسيجار ، وأن يسمع جلبة المقاعد وهى تزحزح عن أماكنها ، وضوضاء الاحاديث والثرثرة .. وان يمتع بصره بالفتيات المتبرجات !

ولم يفلح فى أن يكتشف المخبأ الذى كانت المرأة تدخر فيه

نقودها ، اذ كانت كل الادراج مغلقة ، محكمة الاقفال . وكان يعرف أن فى الدار نقودا ، اذ أن المرأة باعت خنزيرا ، وقسطا من محصول « الجودار » .. آه لو استطاع أن يحصل على ملء نصف زجاجة من « البراندى » ، وان يستدرج المرأة بعد ذلك الى أن تفتح له الباب !

* * *

• **ماكان** أتعسه وأشد فقره ! .. انه لم يكن يملك ثمن قدح من الشراب ! لقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن ليخطر بباله مطلقا أن شيئا من هذا يمكن أن يحدث ! .. لماذا كانوا جميعا يتآمرون عليه هكذا ؟ .. لماذا كان هو الوحيد الذى قضى عليه بأن يسجن فى حجرته ، وأن يحال بينه وبين مغادرة المزرعة ، مع ان غيره من أبناء المدينة يبددون نقودهم ، ويعيشون على الديون والتزوير ، دون أن يلقوا من أجل ذلك عذابا كالذى يلقاه ؟!

وفى ذات ليلة ، استيقظ من نومه على ضحكة خافتة ، فنهض مجفلا . وزاد الظلام أذنيه حدة وارهافا . لقد تناهت اليه الضحكة خلال الجدران ، من مسافة بعيدة .. ضحكة لم يسمع مثلها من قبل على الاطلاق ! .. ضحكة لامثيل لها فى نطاق خياله الضيق وتجاربه المحدودة !

وجلس فى سريره وأرهف السمع ، وهو يلتقط فى جشع ونهم كل صوت . وخيل اليه فى البداية انه كان يحلم ، فما أكثر الاصوات ، والكلمات ، وألوان الصخب ، والضحك ، التى كان يسمعها على الخط الدقيق الذى يفصل بين النوم واليقظة ! .. وكان ـ فى بعض الاحيان ـ يشعر بعقدة تنفك فى أعماقه ، فيرى ، ويسمع ، ويفهم ، فى جلاء غير طبيعى !

وتلاشت الضحكة ، ومحا الظلام آثارها ، ولكن صداها ظل يجلجل فى أذنيه رغم ذلك ! .. لقد كانت المرأة تضحك ،

بينما كان مستغرقا فى السبات !٠٠ ومرت به لحظة تفصد خلالها العرق باردا من جبينه ، وتملكه الذعر ، اذ خطر له انها فقدت عقلها !٠٠ **وزحف الى الباب ، فعالج مقبضه ، ولكنه ألفاه موصدا ٠ وطرقه ، ولكنه لم يسمع صوتا ، ولا نفسا يتهدج فى الغرفة الملاصقة ٠٠ اذن ، فالمرأة لم تكن فى فراشها !**

وتاهت الضحكة فى أطواء أحلامه القلقة ، المشوشة ٠٠ ولكنه تذكرها فى الصباح ، فلما عادت المرأة بعد ان حلبت البقر ، سألها : « أأنت التى كنت تضحكين فى الليلة الماضية؟» ٠٠ ولكنها لم تحر جوابا ٠ على انه لاحظ ـ للمرة الاولى منذ أسابيع ـ ان سؤاله أحدث أثرا فيها ، فسرت فى نفسه هزة من الفرح ٠ فقد رأى الدم يغيض من وجهها الذى لوحته الشمس بالسمرة !٠٠ وانساب اللعاب من فمه ٠٠ وود أن يضيف شيئا الى سؤاله ، ولكن القسوة التى تجلت فى عينيها أفزعته ، فشحب وجهه ، وفغر فاه خائفا ، وكأنه كان يرى الموت نفسه رؤية العين ! **أجل ، كان الموت فى أقسى صوره ، وأشدها برودة ، ممثلا فى نظرة المرأة !** ٠٠ وأسرع يغادرالدار الى الفناء ، فلم يجسر على العودة الا بعد فترة من الوقت ، كان « آلتونين » قد عاد خلالها من رحلته اليومية الى معمل الالبان ، وفك الفرس من العربة ، والرجل يرقبه خلسة ، وفى ارتياب ، اذ داخله شعور بأن ثمة شيئا يجرى وراء ظهره ، وان لم يستطع أن يتعرف كنه هذا الشىء !

ولاحظت المرأة ـ عندما حانت ساعة النوم فى مساء السبت التالى ـ انه غير موجود ٠ أجل ، لم يكن زوجها فى البيت ، ولا فى الفناء ، ولا فى أى مكان ٠ ولم يفطن « هيرمان » ولا «آلتونين» الى غيابه هذا ! ٠٠ وكانت النقود فى مخبأها الامين ، وقد استوثقت ـ لاول نظرة ألقتها عليها ـ من انها لم تمس ٠ على أن الشيخ لم يلبث ان تبين بعد فترة آن كيس نقوده قد ضاع

من أحد جيوب صديريته ، وتذكر انه كان قد ترك الصديرية في حجرة الجلوس ، حين ذهب ليقضي حاجة ! .. وزمقه « آلتونين » وفي عينيه تساؤل وتفكير ، و .. قبس من أمل ، فيما بدا . وقال « هيرمان » بصوت يتردد بين الارتفاع والخفوت : « كان في الكيس مبلغ يقل عن العشرين ماركا .. وما أراه يذهب بعيدا بمثل هذا المبلغ ! »

★ ★ ★

• **وكان** من السهل الحصول على الخمر بوفرة في القرية ، في أمسيه كل يوم سبت ، خلال موسم الحصاد . ولكن الرجل — الذي مضى متسللا في دروب مستترة في جوف الغابة — لم يجرؤ على ان يعرج على أية مزرعة ويطلب مقابلة صاحبها ، اذ كان يوقن ان أصحاب المزارع المجاورة لن يقبلوا أن يعطوه خمرا . ولو كانوا هم أنفسهم يشربون ! .. ومن ثم تركزت آماله في العمال الذين اعتادوا في أمسيات السبت — من شهر اغسطس — أن يجتمعوا عند الجسر ، أو عند مفترق الطرق خارج القرية !

وعند مفترق احدى الطرق ، وجد بالفعل شابين يتكئان على دراجتيهما ، وهما يتساءلان عما اذا كان ثمة مكان تعقد فيه حلقة للرقص ، في المناطق المجاورة . وفي حفرة رملية ، جلس شيخان من العمال الاجراء في أكبر مزرعة بالمنطقه ، وجندي في أجازة . وكانت ثمة زجاجة شراب تدور بينهم على التعاقب ، فحملق فيها الرجل في ظمأ ، وجلس على الرمل الدافيء .. وقال وهو يمد اليهم يدا مرتعشة ، أمسكت بالنقود التي كانت في كيس هيرمان : « ألا بيعوني بعض الشراب ! » .. فصاح أحد العاملين الزراعيين منذرا : « بالله ، لاتعطوه شيئا ! » .. ولكن الجندي اختطف النقود ، وناوله الزجاجة ، فقد كان هو صاحب « البراندي » ! .. وأقبل الرجل على الزجاجة يشرب منها في نهم ، جرعة وراء أخرى ، رغم ان السائل الحاد راح

يكوى حلقه ، ويكتم أنفاسه . وحملق الجندى فيه مبهوتا ، حتى اذا خفض الرجل الزجاجة عن فمه ، اسرع ينتزعها منه

وصاح وهو معجب أكثر منه مغضب : « ماهذا ؟ .. أعطشان أنت الى هذا الحد ؟ » .. ولكن الرجل لم يحفل ، بل جلس على الرمل الدافىء بمعزل عن الآخرين ، يحاول أن يستمرىء طعم « البراندى » الذى كان قد انساب الى جوفه ، ويستعذب الشعور بحياة جديدة تدب فى كيانه ! .. وكانت ظلمة الليل تتراكم وتدلهم فى تلك الاثناء ، وأخذ الثلاثة الآخرون يتجاذبون أطراف الحديث دون أن يحفلوا به ، فتكلموا عن الخدمة العسكرية ، والحياة فى الثكنات ، والاحداث التى وقعت خلال موسم الحصاد ، والفتيات اللاتى حملن سفاحا وأنجبن أولادا غير شرعيين ! .. وكان صاحبنا ينصت فى اصغاء الى حديثهم الذى كان يزداد اسرافا مع ازدياد تأثرهم بالخمر !

واشتد به الظمأ الى الخمر من جديد ، حتى اذا عجز عن مقاومته ، تجاسر وقال فى النهاية : « لنشرب كمية أخرى! » .. وأخذت يداه تتقبضان وتنبسطان فى توتر عصبى ، بينما شعر بشىء يشد امعاءه فى جوفه !

وصاح أحد الرجال : « يجب أن يساق الى داره .. كيف استطاع الفكاك من أسره ؟ » .. فتساءل الجندى فى فضول : « كأني بك تعرفه ، فمن تراه يكون ؟ » .. وأقبل زميلاه يسردان عليه كل ما كانا يعرفانه عن الرجل ، دون أن يكترثا بقربه منهما وسماعه حديثهما . ولم يتمالكا ان راحا يباهيان الجندى ويفخران بأن منطقتهما كانت تضم مثل هذا « الوحش » ! .. وثار الغضب فى نفس الرجل ، وتصاعد الدم الى رأسه ، فراح يصر على أسنانه ، ولكن ظمأه للخمر كان أقوى من فلول الكبرياء والكرامة الباقية فى نفسه ، فهتف ضارعا : « بالله عليكم أيها الرفاق .. هلا أعطيتمونى جرعة أخرى ؟ .. خذوا حذاءى ، أو

سترتى .. انهما حذاءان متينان ! »

وتظاهروا بأنهم لايسمعونه . وأخذ الجندى يعبث بقطعة من روث الخيل بمقدم حذائه ، وما لبث أن قال فجأة : « هل تقبل أن تأكل هذه (قطعة الروث) فى مقابل قدر آخر من الشراب ؟ »

وحملق الرجل بعينين جاحظتين فى الآخرين الذين كانوا يرمقونه فى فضول بارد . وكف قلبه عن الوجيب لحظة ، ثم اغرورقت عيناه بدموع الهوان واحتقار النفس ، وانحنى فالتقط قطعة الروث الجافة من الرمل ، ودسها فى فمه دون ان تغثى نفسه .. بل دون تقزز !!

★ ★ ★

● **وعاد** الى المزرعة فى اليوم التالى .. يوم الاحد!..وكانت ثيابه ملطخة ببراز جاف ، وروث ، وعيناه محوطتين بحلقات حمراء محتقنة ، وقد تورم جفنـاه ، وانتشرت فى جسمه السحجات والكدمات والرضوض . ولكن أحدا لم يلق اليه بالا ، ولا أنعمت المرأة عليه بأكثر من نظرة !.. وعندما انطرح على سريره يعول ويزأر ويئن ، استدرارا للعطف ، لم تفعل أكثر من ان أوصدت الباب عليه ، فى صمت !

ومع بداية الاسبوع الجديد ، ارتد الى ما كان عليه من قبل ، فاذا هو قلق ، واذا عيناه تتقدان بكراهية مشبوبة الاوار ! .. لم يكن يملك شيئا له تأثير الشراب ، ومن ثم كان الظمأ يكوى عروقه بنار لاذعة !.. ولكنه وجد ماشغله عن التفكير فى ذلك. فقد رأى – فى المنام – حلما ظل حيا ، قائما فى ذاكرته ، لايملك أن يصد نفسه عن اطالة التفكير فيه . اذ كانت ثمة حفرة كبيرة تحت شجرة ضخمة فى الغابة ، على مسافة من المزرعة . ورأى فى الحلم ان رجلا طويلا ، اسمر ، فى ثوب من فراء الغنم ، ويتمنطق بحزام من الجلد ، راح يقوده حتى

بلغ به تلك الحفرة ، ثم أشار اليه نحوها !٠٠ واستيقظ وهو يصرخ رعبا ٠ ومنذ ذلك الحين ، لم يدع له الحلم سبيلا الى أية طمأنينه

وعندما أطلق سراحه من الغرفة ، مرة أخرى ، أحس برغبة غريزية جامحة تدفعه لان يتفقد المكان الذى رآه فى الحلم ٠ وكانت الشجرة الضخمة تنتصب باسطة فروعها المثقلة ، والسحالى تجرى خلال غطاء من القش فوق الحفرة،فركل الغطاء بقدمه ، واذا بروائح عفنة ، متخمرة ، تفوح الى أنفه ، فتحول عن المكان مستاءا ، متقززا ٠ بيد ان الحلم لم يدع له سبيلاالى الراحة ٠ فلما كان اليوم التالى ، انتهز غفلة من الجميع ،وحمل معولا ومجرفة ، وأسرع الى الحفرة ليعكف على ردمها ٠ ولم يحفل أحد بتبين ما كان يفعله ، اذ كان أوان حصاد الشوفان قد حل، فتوفر الجميع على جمعه

وبدا مهمته بأن انتزع القش الذى كان يغطى فوهة الحفرة، وهو يجفل مرتاعا لمرأى السحالى وهى تنساب أمامه ثم أقبل على العمل ، حتى تصبب العرق من كل جسمه ، وارتجفت يداه لطول التفافهما على مقبض المعول ٠ حتى اذا أشتد به الاعياء فى النهايه ، ترك العمل ولما يتم ، ولم يحفل بأخذ الادوات التى جاء بها ٠ ولكن الحلم ظل يقض راحة باله ! ٠٠ فلما اطمأن الى خلو الدار ، بعد الظهر ، تسلل الى الحفرة ، وأخذ يحفر بالقرب منها ، ليحصل على تراب لردمها ٠ وفيما هو منهمك فى الحفر ، كشف المعول عن قطعة من قماش أصفر ، تحت طبقة من التراب ٠ وكان القماش ملتفا حول جسم ثقيل ،فأخذ يجذب هذا الجسم بيدين ترتجفان لفرط الانفعال ٠٠ واذا به بندقية روسية ، لفت بعناية فى قماش مشمع ، وبجوارها صندوقان من القذائف ٠ ولم يكن الصدأ الذى تراكم على زناد

البندقية وأنبوبتها (الماسورة) كثيفا ، لاسيما وانهما كانا محوطين بطبقة سميكة من الشحم الذى لوث يديه . وأسرع يخفى لقيته هذه تحت القش الذى كان يغطى الحفره ، وحمل المعول والمجرفة الى المزرعة ، وكل كيانه يهتز انفعالا .. فلقد أصبح يمتلك أداة تجعله أقوى من أى فرد آخر فى المزرعة !.. وكان مجرد ادراك هذا كفيلا بأن يجعل جسمه يرتجف اغتباطا!



وخطر له – فى بادىء الامر – ان يبيع البندقية ، ولكنه أقصى هذه الفكرة عن باله توا ، فقد كان الاتجار بالاسلحة محظورا . وجال بخاطره ان واحداً من رجال الحرس الاحمر أخفى هذه البندقية فى تلك البقعه منذ عشرين عاما – أثناء تقهقر القوات الروسية فى احدى محاولاتها لغزو (فنلندا) – على أمل أن يعود يوما ليستردها . ولعل الرجل قتل أخيرا ، فأرسل روحه وهى تتأجج بالشر والحقد ، لتحوم حول المكان ، فسرت شرارة منها الى روحه ، وتمثلت له فى حلمه !

ونسى قلقه ، فى غمرة التفكير فى قيمة الكنز الذى عثر عليه، وراح يستحث ذهنه بحثا عن مكان – فى متناول يده – يخفى فيه لقيته هذه . لقد طالما استخدم الاسلحة النارية فيمامضى، فى حفلات الصيد والشراب التى كان يختلف اليهاقبل الزواج..

فلعله مستطيع ان يصيد ببندقيته هذه وعلا فى الخريف !٠٠ وسال لعابه شوقا ونهما ، وهو يستعرض هـذا الخاطر !٠٠ لسوف يضطر الى أن يترك جسد الوعل حتى يدب فيه التلف والنتن ، اذ لن يجسر على أن يحمله الى المزرعة ٠٠ ولكنه راح يصور لنفسه ــ فى انتشاء ــ منظر الحيوان وهـــو يحتضر ، وجسده يختلج ، وسيقانه الرفيعه تركل الهواء فى تقلصـات عصبية ، وملمس فرائه الناعم !٠٠ وزاغت نظرات الرجل ، وانساب لعابه دافقا وهو يستغرق فى تأمل هذه الصورة على صفحة الخيال !

* * *

• وقرر فى النهاية أن يخفى السلاح فى مخزن قديم للتبن، يستطيع أن يتسلل اليه خفية ودون أن يلمحه أحد ، إذا مادار حول التل ٠ ومن ثم مسح البندقية ، وأزال عنهـا الصـدأ ، واطمأن آلى ان جوف أنبوبتها كان لايزال لامعا٠ ثم لفها باحكام فى قطعة القماش المشمع البالية ، وأخفاها بين بعض الحشائش الجافة والقاذورات المهملة ٠٠ حتى اذا فرغ من هذه المهمـة ، لاح كأنمـا دب فيـه قبس من الاعتداد والطمأنينة ، وازدادت نظراته القلقة ثباتا واستقرارا !

ولم تلمح المرأة اى تغير طرأ عليه ، اذ كان الضوء الذى سرى فى حياتها يعشى عينيها عن ان تريا شيئا آخر سوى الاستمتاع بتلك الحياة ، وبكل ساعة من ساعات السعادة، ما استطاعت الى ذلك سبيلا !٠٠ وكان جسمها ــ فى تلك الاسابيع الاخيرة ــ قد آزداد نموا ونضوجا ، وأشرق بازدهار عجيب أدهشها هى نفســها !٠٠ ثم ان المحصــول كان وفيرا ، طيبا ، غل لهم مايكفى من العلف والحبوب لتربية مزيد من الماشية والدواجن، وما يكفل لهم العيش والقوت طيلة الشتاء ٠ وكانت الظواهر تبشر بأنهم سيضطرون فى العام المقبل الى الاستعانة بعدد من

العمال ، ولكنها كانت راغبة فى ان تحتفظ بالمزرعة لنفسها الى أطول امد ممكن،دون أن تسمح لعيون الاغراب بانتهاكها!.. وأخذت الامسيات تزداد طولا ، وازدهرت الاشجار . وكان عواء الكلاب يتناهى من القرية الى آذان من فى المزرعة أثناء الليل . ثم أقبلت أيام اشتد فيها هبوب الرياح ، وتجردت الحقول من خضرتها ، وراحت أوراق الشجر الجافه الصفراء تتطاير فى أرجاء فناء المزرعة

وأعقب تلك الايام ، يوم صحو ، هادىء الريح ، بدت فيه السماء شاهقة الارتفاع ، خالية من السحب . وساد الاصفرار والشحوب أراضى الحقول ، وانبعث الدخان من دور القرية كأعمدة تنهض فى الهواء البارد . وتجمعت الغربان فى أسراب أخذت تحوم فوق الحقول ناعقة ، كما انطلقت أسراب الطيور المهاجرة فى السماء ، وصيحاتها الحزينة تتردد فى الفضاء .

وحوالى غروب شمس ذلك اليوم ، اجتمع الثلاثة فى فناء المزرعة : آلتونين ، وهيرمان ، والمرأة التى كانت تضع يدها على



كتف أجيرها القوى فى زهو ، غيرمستحيية من نظرات الشيخ!.. ووقفوا يتأملون المساحات القابلة للحرث ، ويردون طرفهم الى السماء ، ثم يسرحون البصر نحو القرية البعيدة ، والنهر

القاتم المتغلغل بين الحقول الممتدة على السفح ، وهم يستمرئون الغبطة التى يحس بها ابن الريف اذا مانعم بمحصول طيب وفير . وانجاب عن نفوسهم - فى تلك الآونة - كل خوف من المستقبل ، واطمأنت أذهانهم الى شعور غامر بالامن ، أوحى اليهم بأن الامور ربما ظلت على ما هى عليه ، اذ انها - بحالها هذه - طيبة ، ميسورة !

* * *

• **وأدركت** المرأة أن فى أحشائها جنينامنذ شهرين، اجتذبته الى الحياة ضحكة جسدها فى ليلة طويلة من ليالى الصيف !.. كان الجسد الذى طالما امتهن ودنس بشهوات زوجها قدترعرع وازدهر فى ظل اليد الطيبة ، القوية .. يد الرجل الذى أحبته !.. كانت يد رجل ريفى ، وكان من العذب أن يلقى المرء برأسه عليها فى الظلام ، ثم يطرح الماضى وراءه ظهريا .. يطرح أضواء المدينة الزائفة ، والمثيرات التى تكتنفها ، والحمى التى تدب فى أوصالها .. يطرح الاكاذيب الفارغة التى تضمها الكتب .. ويترك كل شىء تذروه الرياح كالتبن !

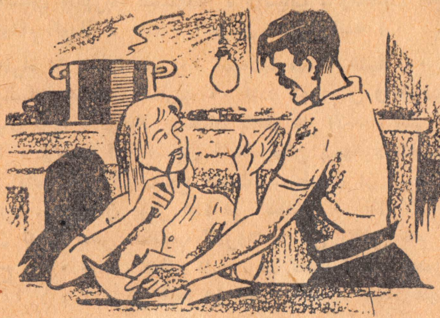
كان جسدها يحمل فى أحشائه حياة .. كان ذلك الجسد هو الارض الطيبة التى بذر الرجل فيها بذرته ، فبدأت هذه البذرة تنمو وتنضج وتتأهب للاثمار !

وذابت من السماء حمرة الشفق ، وزحف ليل الخريف باردا ، مظلما . وتذكرت المرأة واجباتها ، فرفعت يدها عن كتف الرجل الحبيب وهى تبتسم . وما آن بلغت سقيفة البقر ، حتى لمحت مرآة البحيرة السوداء .. فقد كان سطح البحيرة يلمع كمرآة حقيقية ، بين أفواف من الضباب الابيض، البارد ، واذا بالذكرى المؤلمة .. ذكرى مقدمها الى المزرعة لاول مرة ، تتمثل لعينيها ! .. كان الوقت خريفا حين أقبلت - كما هو الآن - ولكن يوم وصولها كان يوما مكفهر السماء ، مضطرب الجو . وقاد الشيخ،

يومذاك ، الفرس البيضاء العجوز الى البئر . وبين الصخور ، تراءت البحيرة السوداء للمرأة ، بشواطئها الطينية اللزجة ، وكأنها تنفث فى جو المنطقة كلها نذرا شريرة ! .. وكانت المرأة قد فقدت كل أمل ، ولم تستبق سوى روح التحدى وعناد لا يلين . وتملكها شعور قدرى أوحى اليها بالرضوخ لسلطان القدر ، وخيل اليها انها رأت ــ فى ماض سحيق ــ ذلك المنظر ، والفرس البيضاء ، ونفس اليوم المكفهر من أيام الخريف، ونفس البحيرة السوداء الموحية بالشؤم ! .. وبدا لها الاتصال المباشر بالارض أمرا يحطم حيويتها ، فشعرت بأن الشىء الوحيد الذى تستطيع أن تعتصم به ، هو كبرياؤها وترفعها الصارم . وهكذا جاءت الى هذا المكان وهى تحس بهيلولة القدر ، غير انه لم يدر بخلدها ــ ولو فى الاحلام ــ ان من المقدر لهذا المكان ان يغدو وطنا لها ، أكثر مما كان مقدرا لاى مكان آخر ، وان يجلب لها متعة تحقيق رسالتها ، وانجاب ثمرة الحياة !

وغاضت ابتسامتها عندما طافت رؤى هذا الماضى بخيالها ، ثم تلاشت سريعا، وكأنما تلاشيها أشعرها مرة أخرى بضآلتها .. ضآلة المرأة والانسانة التى كانتها ! .. كانت الارض ومياه البحيرة القاتمة تحت السماء المكفهرة تمثلان القدر الذى يخبىء المستقبل فى صدفة لم تفتح بعد دفتاها ! .. ولاح كأنما تسلل الضباب من البحيرة الى المزرعة ، وسرى فى كيان المرأة كالثلج فجعلها ترتعد .. وآذ ذاك ، هزت كتفيها ، وحملت الدلو ثم سارت الى حظيرة البقر .. وكان الجو دافئا بداخلها

وعندما عادت الى البيت الذى زحف الظلام عليه ، فأدارت مفتاح النور الكهربائى ، انفرجت شفتاها مرة أخرى عن ابتسامة قريرة انبعثت عن الدفء والهناءة !



الفصل التاسع

◆ كان المنظر المعتم لا يكاد يبين من النافذة الا بعناء ، فى مساء مكفهر من أمسيات الخريف الحزين ، عندما أخذ المطر ينهمر من السحب التى كانت تثقل سماء الليل ، وكانت الرطوبة تتصاعد بخارا ـ على الجدار القائم خلف الموقد ـ من الثياب التى ابتلت أثناء العمل فى النهار ، بينما جلس الاثنان وحدهما الى المائدة الكبيرة ، وقد تقارب رأساهما • كانت المرأة قد أحضرت ورقة وبقية من قلم ، وراحا يحسبان تقديراتهما للعام المقبل • وهز « آلتونين » رأسه أسى ، عندما رأى دفتر الايصالات الخاص بأقساط القرض الذى كانت المزرعة مرهونة من أجله • كان « آلتونين » يشعر بمسئولية فادحة ، فما كانت لدى المرأة فكرة واضحة عن حقيقة حسابات المزرعة ، ولم يحتج ـ من ناحيته ـ الى أكثر من ادراك الفلاح الامين ليتبين أن الدين كان قد تراكم ، وان لكل شيء يمكن ادخاره نفعا !•• وقدرا معا قيمة المحصول ، واستعانا بالتقويم ، وبما كان فى الصحيفة عن أسعار المنتجات الزراعية ، ليستنتجا مقدار ماينبغى أن يبيعاه من الغلال ، ومقدار مايجب استبقاؤه للبذر ، ولعلف الماشية ، ولحاجة أهل المزرعة • وكانا قد ابتاعا أربعة خنازير ، كما ان « آلتونين » زار القرية ليدبر شراء بقرة كان مقدرا ان تلد فى شهر نوفمبر ، وان لم يتفق بعد مع صاحبها على الثمن • كذلك اعتزما ان يبتاعا فى الربيع جوادا آخر ، لان الفرس كانت قد اكتهلت ، واستنفد عمل الصيف آخر قطرة

من قواها . وكانت هنـــاك ـ بجانب ذلك ـ فوائد القرض ، والضرائب ، والعشور ، وحساب الكهرباء المستهلكة ، والثياب ، والمعدات الجديدة للمزرعة .. وملأت الارقام الورقة ، فعاد « آلتونين » يهز رأسه !

وما لبثت المرأة ان مست يده .. مسحتها مسحا خفيفا .. وتطلعت اليـه وفي عينيها ابتسامة عميقة ، مشرقة .. فاذا الهواجس والخوف من الفاقة أو النحس يتلاشيان فورا . وأقبلا يشطبان بالقلم على الاشياء التى كان من الممكن الاستغناء عنها . وكانت ثمة أشجار قليلة يمكن بيعها لاستغلالها أخشـابا ، كما ان الغابة كانت من الاتســاع بحيث يستطيعان ان يبيعـا عشرات من أشجارها للوقود ، دون أن يؤثر هذا فى كثافتها . وقال آلتونين : « ولكن من الواجب ان ندخر بعض الخشب للمزرعة ، فلن ينقضى عام حتى تحتـاج مبانيها للاصلاح » .. فعادت تتطلع اليه ، اذ كانت كلماته تحمل بشرى وأملا فى المستقبل .. لا ، لا ينبغى أبدا ان يحمله الدرب بعيدا عنها !.. ها هو ذا رجلها ـ الرجل الذى منحها القدر اياه ـ يبنى فى ذهنه للمستقبل .. مستقبلهما معا !.. وأفعمت نفسها بسعادة مشوبة بالالم ، اذ تذكرت كيف انها فى ليلة كهذه منذ أمد ـ أصبحت تراه اليوم جد بعيد ـ والمطر يتساقط فى الخارج ، أحست بيأس ماكانت ترى لنفسـها فكاكا منـه ولو بالموت نفسه !.. أما الآن ، فلم يعد فى الخريف ما يخيفها ، بل ان المطر أصبح عزيزا عليها .. كما ان صفحة البحيرة أصبحت عزيزة عليها أيضا !.. وأعز من هذين ، عبير الثياب المبتلة وهى تجف الى جوار الموقد .. عبير الثيـاب المألوفة التى ابتلت أثناء العمل .. والاحذية الملطخة بطين الارض والوحل !

وتهدج صوت آلتونين وهو يقول : « يجب ان تستأجرى فتاة فى الربيـع لتعنى بالماشـية والدواجن ، حتى لا ترهقى نفسك ، الى ان يحـين موعـد الوضع ! » .. كان كل خوف ، وحيرة ، و هم ، يذوب فى وجوده .. وجود هذا الجسم القوى ، المشوق ، والعينين العميقتى النظرات ، واليـد التى يبعث ملمسها الطمأنينة !.. ألا ما أجمل الحياة فى وجوده !

وفتح الباب فى غير ما صوت تقريبا ، وتسرب « ألفريد » الى الحجرة فى نصف ثيابه ، فلمحا نظرة مختلسة تطل من عينيه الخبيثتين ، وهو منحن يشرب من الكوز . ثم تناول من فوق الرف القائم خلف الفرن علبة ثقاب . وكانا يجلسان جنبا الى جنب ، والاوراق أمامهما . و هم بأن يتكلم ، ولكنه عدل ولم يقل شيئا . وتظاهرت المرأة بأنها لم تره ، ولكن ابتسامتهـا تلاشت ، واكتسب وجهها جمودا شاملا . أما آلتونين ، فقد ظل منكسا رأسه ليتفادى النظر الى خصمه ، ولكن الدم انحسر تدريجا من وجهه ، بينما توترت عضلاته . وعاد الرجل السقيم الى غرفته ، وعلبة الثقاب تخشخش فى يده الواهنـة ،

بينما اغرورقت عيناه بدموع خفيفة ، رثاء لنفسه ، وان راح يتعزى بالتفكير في وسيلة قاسية لارضاء هذه النفس .. لقد كانا يجلسان جنبا الى جنب ، ينظران الى الحسابات . كانا يخدعانه ، ويتركانه وحيدا ، مريضا ، شقيا ، فى غرفة لا تدفئها نار .. لقد كان يدرك انهما ينقمان عليه مجرد بقائه حيا !

★ ★ ★

◆ لقد فطن الى هذا كله منذ أمد بعيد ، وان لم يستطع فى البداية ان يصدق أنها .. ان زوجته يمكن ان تنجذب الى رجل آخر ، بينما تتيبس كل عضلاتها اشمئزازا اذا لمسها هو !.. أولم يكن زوجا وعشيقا رائعا لها ؟.. وهل كان خطاه ان لم يوفق الى صهر برود هذه المرأة ؟.. لقد اكتشف منذ زمن طويل برود طبيعتها ، ومن أجل هذا كان يسترضى عقله المريض بالامعان فى اهانتها واذلالها .. أما الآن ، فها قد رأى أنوثتها تستيقظ ، وفى يقظتها هذه ، عمدت الى احتباسه عن الحياة !.. ولقد ظل يراقب هذين الاثنين ، ويرهف أذنيه فى الليالى الطوال ليلتقط كل صوت ، وكل نفس يتردد فى البيت الناعس .. ولقد نقل العامل الزراعى الاجير سريره الى داخل البيت ثانية ، مما أتاح للرجل أن يسمع ماكان كافيا لان ينشط خياله ويشغل باله .. وملأت فكره الغيرة والكراهية .. وأخذت الاوهام التى كان الشبق يوحيها اليه تذكى غيظه ، وتضاعف قلقه !

ورسم ـ فى خلال ليالى الخريف المدلهمة ، وأيامه المكفهرة ـ كثيرا من الخطط ، ولكنه لم يلبث ان نبذها جميعا .. ولكنه لم يعدل قط عن اصراره على الانتقام ، الذى كان حقا له كزوج مخدوع ، أصبح يكره الدنيا بأسرها .. بل ويكره نفسه فى بعض الاحيان !.. وكانت المشكلة تنحصر فى ان عليه ان يفرغ فورا من تدبير خطة ينفذها حتى نهايتها ، لان حياته كانت خليقة بأن تظل مهددة طالما كان هذا الرجل القوى ، المتجهم ، على قيد الحياة !.. بل ان حياته الآن أضحت فى خطر ، وقد لمس ذلك عندما أمسك « آلتونين » بعنقه ، ورفعه عن الارض ، وضربه فى غير اشفاق !

ولكنه لم يكن راغبا فى ان يؤخذ بما يفعل . كان مجرد التفكير فى ان أمره قد يكتشف ، يثير رعدة فى بدنه . لقد قرأ فى كتاب ما ان الزجاج المسحوق اذا خلط بطعام شخص ، قتله فى بطء ، اذ يحدث ثقوبا فى امعائه ، ولا يخلف أثرا خارجيا ينم عن آية جريمة . وكان يود لو يجرب هذه الطريقة ، لولا ان المرأة كانت تعد الطعام بنفسها ، كما ان جسمه كان يقشعر عندما يفكر فى انه قد يبتلع نصيبا من الزجاج المسحوق ، اذا خلط بالدقيق أو الشوفان . ثم ان هذه الخطة لم تكن تكفل له ارضاء حقيقيا !.. ومن ثم شعر ان لابد من ان يفعل شيئا فتاكا ، فعالا ، ليعاقب زوجته الغاوية ،

بالذات ، لانها حطمت حياته ، ولانها هبطت به الى مستوى الدواب بمعاملتها غير الانسانية له !.. يجب ان تدرك انه - وليس من أحد سواه - الذى اضطلع بمهمة الانتقام .. يجب ان تشعر بالذلة ، وبأن كبرياءها قد تحطمت .. يجب ان تتبين أى الثلاثة أقوى !

وراح يتمثل المحاكمة ، والانباء المثيرة التى ستنشرها الصحف ، فكان يستعذب المأساة الموهومة ويسر بها .. مأساته هو .. الزوج المخدوع فى جحود .. الزوج المريض الذى قتل عشيق زوجته في نوبة هياج !.. لسوف يفتضح عارها كله للملأ .. عار المرأة المتعلمة التى قامت بدور العاهرة مع عامل زراعى ، وزوجها حبيس ، محروم من كل فرصة لاسترداد صحته ، أو للعيش كما يعيش أى انسان عادى !.. ان هذا العمل سيرضى شعوره بالاعتداد بنفسه !.. لقد كان عليلا ، وانه ليعترف طواعية بانه قد ارتكب كثيرا من الخطأ فى مرضه ، ولكنه كان رجلا مرهف الشعور ، متوتر الاعصاب الى أبعد حد .. بل لقد كان يذهب فى لحظات ازدرائه لنفسه الى درجة التفكير فى قتل هذه النفس .. ولكن ارادته ورجولته لم تستسلما لهذه الرغبة ، فما من رجل ، صادق الرجولة ، يقبل الهزيمة أمام النحس ، والمرض ، والظروف المدنسة !.. لقد استقر فى الريف طلبا للصحة ، وليبنى لنفسه حياة جديدة ، آمنة ، هادئة . ولقد رسم خططا سليمة ، تنم عن بعد نظر ، ولكنها لم تنفذ ، لا لشىء الا للشكوك التافهة التى كانت تساور زوجته .. شكوك فى مدى سلامة تفكيره وتدبيره . فلما رأى أخيرا ان المرأة التى وقف عليها حياته - والتى مازال يحبها رغم كل شىء ! - تخدعه مع عامل حقير ، وتعمل على موته .. لما رأى هذا ، لم يعد يطيق صبرا ، وأعماه الغضب ، فقتل الرجل الذى دنس فراش زوجيته !

هكذا كان يتمثل المحاكمة . ولسوف تكون قصته مثيرة !.. فاذا ما تطلع الى القاضى فى النهاية ، وهو رافع الراس ، فلسوف يعلن انه متاهب لان يتحمل تبعات عمله ، ولان يتلقى جزاءه !.. وكانت أوداجه تنتفخ طربا وهو يتمثل كيف ان العطف سينهال عليه من الجميع ، وكيف انه سيظفر - فى النهاية - بما كان محروما منه .. سيظفر بأن يجد من يفهمه ويقدره !.. انه جدير بأن يكون أحمق ، جبانا، اذا لم يجعل من هذا الحلم حقيقة !.. ان الرجل الاسمر الرهيب الذى زاره فى حلمه ، أرشده الى الحفرة ليكتشف البندقية التى كانت تكمن الآن تحت كومة من المهملات فى المخزن القديم . ولقد نشرت الغلال فى داخل هذا المخزن لتجف ، دون ان يرتاب احد ممن ذهبوا الى المكان فى ان ثمة شيئا مخبأ فيه . آه لو لم يكن حشد قواه وارادته مهمة شاقة !.. لقد كان خائفا .. وكان يرقد فى سريره يئن ويتنهد ، ثم ينشد العزاء فى الصور العارية ، الباهتة ، المثبتة على الجدار !

* * *

◆ وفى الجانب الآخر لذلك الجدار ، كانت الغرفة التى فى نهاية الردهة، حيث كان « هيرمان » يستلقى مستيقظا . كان مطر الخريف قد انقطع ، وكانت منيته تقترب ، فان الهواء الرطب كان قاسيا على رئتيه الكليلتين ، حتى أصبح لايقوى على بلوغ فناء الدار الا بعناء . وكانت المرأة تعنى به ، وتجلس بجواره من آن الى آخر ، كلما سمح لها وقتها . وكان الشيخ يتنفس فى صعوبة وهو نائم ، وقد أصبح وجهه الغائر فى لون العظام ، ولاح أنفه أكبر من حجمه المألوف . وكانت المرأة تتحسس جبينه ، من وقت الى آخر ، وتحكم من التفاف غطاء الفراش حول جسمه ، فكانت لمساتها الخفيفة تنعش الشيخ وكأنها تنفث فى كيانه بعض دفء الحياة !.. وكان يقول لها وشارباه الاشيبان يهتزان فوق فمه الشاحب : « اننى أكبدك كثيرا من العناء ! »

وعاد « آلتونين » مرة من العمل ، فعرج على الغرفة يزور الشيخ ، دون ان يغسل يديه أو ينظف حذاءيه الموحلين أولا ، فأشار له الشيخ بيد مرتجفة ، وقال : « اننى أتمنى تابوتا متينا .. وأفضل ثيابى ، وان كان من التبذير الاخرق أن يدع المرء حلة جيدة تبلى فى القبر . وقدم لاهل القرية شيئا من الشراب على روحى ، كما هو مألوف . لقد ادخرت نقودا من أجل الجنازة .. فى ذلك الصندوق .. وستجد خمسة دفاتر للادخار بأسماء أقاربى ، حتى لا يثيروا نزاعا بشأن مخلفاتى .. أما الدفتر السادس ، فعليك ان تسلمه اليها .. هى .. دون ان تذكر عنه شيئا لاى مخلوق آخر ! » .. وكان يومىء برأسه الى حجرة الجلوس وهو يبتسم فى وهن ، ثم يقول : « انه باسمها ، رغم ان لا قرابة بيننا ، سوى صلة النسب عن طريق زوجها ! »

ولم يقو « آلتونين » على الرد ، ولكن الفلاح الشيخ لمح دهشته ، فقال فى فخر متواضع : « لست فقيرا كما حسبتنى ، ولابد من أن أخلف لاقاربى شيئا ، وان كان هذا برغم رغبتى .. فانهم كانوا يستحيون من ملبسى ، وقد أرقدونى فى المطبخ عندما زرتهم آخر مرة !.. على اننى أرتبط بهم برباط الدم ، رغم ان عقلى يؤكد لى اننى غير مطالب بشىء من أجلهم !.. ان الدم أشد كثافة من الماء .. ولهذا أترك لهم نصف مدخراتى ، أما النصف الآخر فللمرأة التى امتلكت هذا المكان ولم تزدرينى ! »

ومد الشيخ يده الضعيفة ، وقد أنهكه الكلام ، فشد عليها « آلتونين » . كان بوسعه أن يتبين انها يد رجل مشرف على الموت ، لم تبق له فى الحياة سوى أسابيع قليلة . وأغرى الصمت « آلتونين » على ان يهيم فى وديان الفكر ، وما لبث ان قال فى تؤدة : « انك لن تموت !.. بنفسى شعور غريب

يوحي الى بأنك ستشيع جسدي الى القبر ، بدلا من ان أشيع أنا جثمانك ! »
.. فابتسم الشيخ في وهن ، وولى الحائط وجهه . ولكن الكلمات ظلت عالقة بذاكرته خلال الايام التالية ، التى مرت كالاحلام ، بينما كانت خنفساء الخشب تنخر الجدار على مقربة من رأسه !

★ ★ ★

• بانقطاع المطر ، وانقضاء بعض أيام غائمة ، شرعت الشمس فى السطوع ثانية ، وارتفعت قبة السماء شاهقة بعد ان خلت من السحب التى كانت تثقلها ، وحملت نسائم الخريف قوة الى الاطراف المنهكة !.. وكان من اجمل الامور للعاشقين الشابين ، ان يجوسا فى الارض الشاسعة . وفى ذات صباح وقفت المرأة فى الفناء ترقب الرجل ـ وهو ينطلق الى الغابة ، والفأس على كتفه ـ وقد تحرر بالها من كل شجن أو خوف . وكان هواء الخريف الصافى منعشا ، ومناظر الطبيعة تتجلى عن سعة ، وأشعة الشمس اللطيفة تنزلق على الصخور القائمة ، وتتلألأ على مياه البحيرة ، وجذوع أشجار الشربين تلمع كالنحاس الحائل اللون ، والافنان المتعانقة تلوح وكأنها زرقاء اللون . كان الخريف يسبغ ألوانه الزرقاء والحمراء ، الممتزجة ، المتقلبة ، على الارض العريقة ، ويبعث البهجة الى القلب المفعم بالحب ، وهو يتبع الحبيب فى سيره الى الغابة ، وفأسه تلمع على كتفه !

وكان الرجل المقيم فى الغرفة الداخلية يتوارى خلف باب غرفة الجلوس ، فلما ولجت المرأة فى غير توجس ـ وعيناها لاتزالان تبرقان بالسعادة ـ ألقى يديه عليها .. على الجسد الذى اهتز فى احدى ليالى الصيف بضحكة نشوانة . ودون أى تردد ، التقطت المرأة كتلة خشب من جوار الموقد ، فضربت بها الرجل الذى كانت أتفه لمسة منه تدنسها . ولم تعن بأن تتبين موقع الضربة . واذا بالرجل يهوى على الارض فاقد الوعى .. ولكنها لم تحفل به ، فقد قررت ان لايمتهن جسدها مرة أخرى ، اذ صار هذا الجسد ذا قداسة ، وهو يحمل فى أحشائه جنين الرجل الذى كانت تحبه !.. وانصرفت الى عملها دون ان تلقى نظرة على الرجل الآخر ، فلما لاحظت ـ بعد دقائق ـ انه لايزال دون حراك ، ملأت كوزا من الدلو ، وصبته على وجهه الشاحب . ونهض الرجل على ركبتيه ، فتحسس جبينه الذى تورم ، ثم استوى على قدميه مترنحا ، ورمى المرأة بنظرة شريرة ، وانصرف وفى نفسه شعور وحشى . ولم تشيعه المرأة بنظرة واحدة ، بل عكفت على عملها بوجه جامد الاسارير

وكان الرجل المقيم بالغرفة الداخلية يعرف ان « آلتونين » ذهب لاقتطاع خشب الشربين ، فأسرع الى المخزن ، مع ان ركبتيه كانتا تتخاذلان عن حمل جسمه ، ومع ان بدنه كان خائرا ، ورأسه يدور من أثر الضربة العنيفة ، وفى

فمه طعم الدم !٠٠ وكان اليوم صحوا ، والمناظر تبدو جلية ٠ وغالب ارتجاف يديه ، وهو يفك القماش المشمع ، وينظف فوهة البندقية بعود من العشب ٠ ودفع بخمس رصاصات الى مخزن البندقية ، ثم انطلق فى خطى متسللة حذرة٠

وبعد ان قطع مسافة فى الدرب الذى مهدته الماشية ، سمع طرقات الفاس ، فخفف الخطو ، وقد عاودته الغبطة التى نسيها منذ زمن طويل ٠٠ غبطة الصائد حين يعثر على صيد ٠٠ ولكن صيده فى هذه المرة كان أكبر من أى صيد عرض له فى الماضى !

وعند حافة الغابة ، عـلى سفح التل ، كان « آلتونين » يقف منهمكا فى تقطيع الكتل الخشبية ٠ وكانت البحيرة الموحلة القاتمة تستلقى على بعد منه، وكوخ الصيادين يقبع فى ظلال أشجار الشربين ٠ ومن خلفهمـا ، بدا بيت المزرعة ، الذى كانت « المحبوبة » تقوم بواجباتها الصباحية تحت سقفه !٠٠ وكان « آلتونين » مغتبطا بعمله ، وقد خلـع سترته ، وأسلست الفـأس قيادها لقبضته القوية ٠٠ قبضة الصديق !٠٠ وكان يحس لصـوت ارتطام الفاس بالخشب لذة !٠٠ وتقدم الرجل الآخر زاحفا خلف أعشـاب العرعر الكثيفة ، والبندقية الروسية فى يده ٠ وراح يقترب فى بطء شـديد ، محاذرا أن يحدث أتفه صوت ، حتى بلغ فى النهاية بقعة قدر انها تقع عـلى بعد مناسب ٠٠ وسره ان ظهر فريسته كان متجها نحوه !

ورفع البندقية فى حذر ، فأسـندها الى غصن ، ثم أزاح صمام الامان ، وأحكم التصويب ٠ ولم يكن على اكثر من اثنتى عشرة ياردة من هدفه ، ومع ذلك فقد شرع ـ فجأة ـ يرتجف فى عنف ، ومن ثم اضـطر الى أن يسحب البندقية وان يستلقى على الارض ، وراء دغل ٠ فقـد تذكر للمرة الاولى ان الذخيرة كانت مدفونة فى مكان رطب حوالى عشرين عاما ، فماذا يحدث لو انها لم تنطلق ؟٠٠ ولكن قرقعة الزناد الضئيلة لن تسمع وسط الضجة التى كانت الفاس تحدثها ٠٠ ومن ثم عاد يرفع البندقية ، وهو لايزال يرتجف ، وأحكم التصويب ما وسعه ٠ وأخذت عضلات صدغيه تنتفض ، وتدافع الدم الى رأسه ، وكاد بصره يخذله ٠ وجذب الزناد فى يأس واستماتة ، فاندفعت القذيفة ، وقد أصمه صوتها ، بينما ارتد كعب البندقية فارتطم بكتفه وخده فى عنف !

★ ★ ★

◆ ودار « آلتونين » حول نفسه عندما مرقت الرصاصة بجواره ، وقـد تردد صوتها من تل الى تل ٠ واستولى عليه الذهول لحظة ، ثم رأى فوهـة البندقية ، والوجه المختلج الممتقع خلفها ٠ ولم ينطلق هاربا ، ولا قفز ينشد مكانا يحتمي وراءه ، وانما سار في غير عجلة ـ والفاس في يده ـ نحو

الرجل الآخر ، الذى راقبه وهو يقترب ، والعرق البارد ينحدر على ظهره . وكأنما أمده منظر عدوه ، فى قوته ، بما كان يعوزه من جراة ، فأخذ يسب بصوت خفيض ، وهو يثبت كعب البندقية الى كتفه بشدة . ومرة أخرى ، تردد صوت الرصاصة من تل الى تل .. وترنح « آلتونين » وهو فى منتصف احدى خطواته ، ثم هوى الى الارض وعيناه تفيضان بنظرة متسائلة .. دهشة !.. وبرزت على صدر قميصه فجأة بقعة من الدم القانى ، وندت منه صرخة مكتومة . وقفز الرجل المتربص وهو يتنفس فى عناء ، وقد اصطبغ وجهه بحمرة قاتمة ، ودق بكعب قدمه فم الشاب بقسوة ، فارتطم رأس هذا بالارض المعشوشبة ، ثم انقلب على أحد جنبيه ، وتوترت ذراعاه ، وارتفعتا لتصدا قدم غريمه ، ولكن قواهما نفدت قبل ان تبلغاها . وظلت عيناه برهة تحملقان فى الاشجار والسماء الصافية ، ثم رانت عليهما غشاوة ، وتراخى جسده . وأفلت القاتل بندقيته ، وهو يرتجف فى عنف ، ورفع قدمه عن فم القتيل !

وكانت المرأة قد أجفلت ـ وهى فى المزرعة ـ عندما سمعت صوت الطلقة الاولى يتردد عبر البحيرة .. وجمدت فى مكانها ، وكأنما تحولت الى صخر ، وراح قلبها يدق فى عنف مضطرب ، ولكنها طمأنت نفسها بأن أصوات الطلقات كانت تتردد منذ أيام فى الطرف الاقصى من الغابة ، وان كانت هذه الطلقة قد بدت لها جد قريبة . ولكنها ما لبثت ان اتخذت طريقها صوب الفناء ـ عندما سمعت صوت الطلقة الثانية ـ فوقفت على السلم وقد صار وجهها فى شحوب الموتى ، وضغطت صدرها بيديها . وكان « هيرمان » قد خرج منذ وقت ، وجلس فى الفناء يستمتع بدفء الشمس ، فما ان سمع الطلقتين حتى نهض ، واتجه بصره نحو الغابة . وخيل لكليهما ان صرخة تناهت الى آذانهما ، فصاحت المرأة : « اسرع ! » ، وجرت نحو مصدر الصوت ، والشيخ يتبعها بأقصى سرعة فى وسعه . واذا « ألفريد » مقبل فى الدرب ، فوقف اذ رأى المرأة تجرى نحوه ، وتحفز وكأنه يتأهب للفرار ، ولكنها لم تنظر اليه مطلقا . وكان وجهها شديد الشحوب ، وهى تهتف بصوت لاهث : « أين هو ؟ » .. وبحركة غريزية ، اشار الرجل نحو البقعة التى اقبل منها ، فواصلت جريها . وتبعها على غير وعى ، وهو لايملك ان يقاوم اللذة العربيدة .. لذة مراقبة وجهها المعذب !

وبالقرب من كومة من الاخشاب ، عند حافة الغابة ، هوت المرأة على ركبتيها ، ورفعت الرأس الفاقد الحياة بين ذراعيها ، وامسكت باليد المتخاذلة . ورأت الفأس التى سقطت من تلك اليد ، كما رأت البندقية على الارض ، فتساءلت : « أأنت الذى فعلت هذا ؟ » .. واقترب الرجل فى حذر ، وهو يمسح اللعاب عن فمه بظهر يده ، وقد اذهله هدوء المرأة . ولم يسعفه ذكاؤه

بأن يتخذ حذره منها .. وازداد اقترابا ، ومد عنقه الى الامام ليتفرس فى وجهها ، وقال فى شعور وحشى بالنصر : « هاك حبيبك خالصا لك ! »

وأسلمت المرأة رأس « آلتونين » الى الارض فى رفق ، وتناولت الفأس وكأنها تزنها فى يدها ، ثم نهضت . واقترب الرجل برأسه ، وكأنما كان لهدوء المرأة فعل التنويم المغناطيسى فيه !.. وفى رصانة ، وجاش رابط ، رفعت المرأة الفأس ، واستجمعت كل قواها ، ثم هوت بها على راس زوجها. وسمعت صوت عظام تتهشم ، ومع ذلك فانها لم تتورع عن ان تهوى بضربة ثانية على الرجل الذى سقط عند قدميها .. كانت تشعر - فى هدوء تام وقريحة متيقظة ! - بأنها ستظل طيلة العمر نادمة ، لانها لم تهو بكتلة الخشب على رأسه بعنف أقسى ، حين ضربته فى ذلك الصباح !

وعادت تتهالك على الارض مرة أخرى ، دون ان تلقى نظرة على الرجل الذى انكفأ على وجهه . وأسندت رأس حبيبها الى حجرها ، وراحت تقبل الفم الذى انساب منه الدم ، وتربت فى رفق خديه غير الحليقين !

الفصل العاشر



◆ **وعندما** وصل الشيخ أخيرا ، وهو يلهث ، قالت المرأة : « لقد مات ! » .. ورأى الرأس العديم الحياة فى حجرها ، والفأس والبندقية على الارض . ثم التفت فلمح الرجل الذى كان يقيم في الحجرة الداخلية ، منكفئا على وجهه ، ورأسه غارق

فى الدماء . واستقبلت المرأة نظرته المتسائلة بنظرة مجيبة ، وهى تهز رأسها . وقلب « هيرمان » جثة « ألفريد » بمقدم حذائه ، ولكنه لم ير أثرا للحياة فى الرأس المهشم ، والجسد المسترخى !

وقالت المرأة : « امكث هنا ، واحرص على ان لايفد أحد ، ريثما أذهب فأحضر الفرس » .. وأسرعت خلال الدرب ، تاركة « هيرمان » وحيداً الى جوار الأخشاب . وفى بطء ، تناول الشيخ سترة « آلتونين » من الفرع الذى كان قد علقها عليه ، فطواها ، ووضعها تحت رأس القتيل . وفى رفق وحذر - وكأنه يعنى بشخص نائم - سوى من وضع الجثه ، ورفع يديها الى صدرها ، ثم جلس على جذع شجرة ، وراح يحملق فى الفضاء ، فى تأمل حزين !.. وسرعان ما عادت المرأة تقود الفرس البيضاء خلال الاشجار ، وقد شدت اليها الزحافة التى ينقل عليها الخشب ، وجلبة ارتطامها بالارض تتردد مع وقع حوافر الفرس فى ارجاء الغابة . ولم يوجه الشيخ اليها أى سؤال ، وانما ساعدها فى صمت على رفع جثة « ألفريد » الى الزحافة ، وتناول عنان الفرس ، وأومأ اليها كى تتقدمه ، وكأنما انسابت فى جسده الواقف على عتبات الموت قوة خفية ، فجذب العنان بيد ثابتة ، وهدأ من انفعال الفرس ، التى بدأت تتململ وقد ازعجتها رائحة الدماء

وأخذت الجثة تتدحرج على المركبة التى تحركت ، وراح الرأس يتخبط من جانب الى آخر ، والمرأة تسير فى المقدمة بوجه جامد ، وعينين استحالتا الى حجرين . وتوقف الركب عند فناء المزرعة ، فتناولت المرأة كيسا من السقيفة ، واقتطعت جزءا من لفة من الاسلاك الشائكة ، ثم ملأت الكيس بالاحجار ، وحملته الى الزحافة . وتناولت مجرفة ، ثم سارت قدما على شاطىء الجدول نحو الحمأة الطينية اللزجة التي تحيط بالبحيرة ، فلم

تقف حتى بدأت قوائم الفرس تغوص فى الوحل ٠٠ واذ ذاك، حملت الجثة مع الشيخ ، وطرحاها على بساط الطين اللزج ٠ وأشارت المرأة الى الشيخ بأن يبتعد ، ولفت السلك عدة مرات حول عنق الميت وذراعيه ، ثم ربطت الكيس اليه ، وقدماها تغوصان فى الوحل ، فلا تكترث لهما ٠ وعندما انتهت ، أعملت المجرفة بقوة ، فحفرت ثغرة فى الحمأة ، دفعت اليها بكيس الاحجار ، فتناثر الماء ٠٠ **وبدأ الكيس يغوص فى الوحل ، وهو يجر الجثة الى أعماق سوداء لا قرار لها !٠٠ وما لبث ان التأم سطح الوحل ، وكأن شيئا لم يودع جوفه ، فهز الشيخ رأسه محبذا مافعلت !٠٠** ثم تحول فقاد الفرس الى حظيرتها ، وقد سرت فى وجهه النحيل وقدة محمومة ٠٠ ولكن يديه لم ترتجفا ٠٠ وبدت عيناه صافيتين ، لايعكرهما قلق ما ٠ وما لبثت المرأة ان لحقت به قائلة :

ــ لقد كسرت الدرج الذى أحتفظ فيه بالنقود فى حجرتى ، وأخفيت ماكنت أدخره فيه ، فى مكان آخر ، بحيث يبدو ان زوجى سرقه وهرب ٠٠ فاذهب الى القرية ، وادع الشهود قبل ان ننقل الجثة المسجاة فى الغابة ، واتصل برئيس الشرطة وسله ان يفرض رقابة على الطرق والمحطة ، حتى لا يحاول زوجى الفرار بالقطار أو الحافلة (الاوتوبيس) ٠٠ وقل له ان الرجلين كانا على شقاق منذ الصيف عندما تشاجرا ٠٠ ولما كان كل انسان يعرف ان زوجى مختبل العقل ، فقل للناس ان يحملوا أسلحتهم ، لان زوجى ــ عندما يصاب بنوبات الهياج ــ يصبح خطراً ٠٠ وبهذا لن يعود مجال للشك فيما حدث !

وهز « هيرمان » رأسه صامتا ، ورمقها بنظرة طويلة ، فصمدت لها دون ان يبدو على أساريرها أى اختلاج ٠ ثم تحول وسار فى اعياء نحو القرية ٠ وعادت المرأة وحيدة الى حافة الغابة ، فمسحت الدم وشظايا العظام عن الفأس ، ثم أسندتها الى شجرة ، ومحت آثار الاقدام التى طبعت على العشب وعلى

الارض ، وآثار جسد الرجل الذى كان يقيم فى الغرفة الداخلية

★ ★ ★

• **وكان** « آلتونين » مسجى على ظهره ، يحدق بعينين جامدتين فى سماء الخريف الزرقاء ، المتألقة بالضياء .. فلما محت المرأة كل الآثار ، تلفتت حولها ، ثم جلست على الارض ، ووسدت رأس الرجل ركبتيها ، وتصلبت عضلات وجهها وهى تغمض عينيه ، وتسوى شعره . وظلت جالسة بلا حراك ، تتأمل بنظرات جامدة المزرعة التى كانت تبدو على البعد ، خلال الاشجار . وراحت تحملق فى المبانى العتيقة المغبرة ، والصخور الحائلة اللون ، والبحيرة الداكنة ، والحمأة السوداء ، والحقول السمراء والصفراء . لقد ولت سعادتها الى غير رجعة ، ولكن الارض كانت أرضها ، ولابد لها ان تعمل من أجلها !.. فان هذين المنكبين العريضين ، وهاتين اليدين الكبيرتين اللتين كانت برودة الموت تدب فيهما ، قد أصلحت هذه الارض بما بذلت من جهد !

وكانت تدرك انها تحمل جنينا ، ولكن هذا الادراك لم يبعث بصيصا من البهجة فى نفسها التى طغت عليها برودة قاتلة . ان هذا الحمل لم يكن سوى واجب فرض عليها .. انه ميراث خلفه الرجل الميت .. ومن أجل هذا الرجل يجب ان تحمل الطفل ، وان تضعه ، برغم ان سعادتها ولت الى الابد !

وأجالت بصرها فى الارض الممتدة حولها تحت السماء الصافية .. ان الارض لم تكن تعرف فرحا ولا ترحا ، وانها – أى المرأة – لتشبه الارض فى ذلك ، وهى تجلس ورأس الرجل الذى أحبته يتوسد حجرها ، وشمس الخريف الخالية من الدفء تغمرهما بضوئها !

تمت القصة

٢٩/٧/٥٦

قدّمت لك هذه السلسلة فى مجلدها الأول :

من الأدب الانجليزى : قصة مدينتين ، ذات الثوب الأبيض ، الخاطئة
من الأدب الفرنسى : حياة امرأة (جزءان) ، مدام بوفارى (جزءان)
من الأدب الأمريكي : الخالدون
من الأدب الأيطالى : الخطيئة الأولى ، فتاة من الأقاليم
من الأدب اليونانى : أوديب
من الأدب الهندى : قلوب ضالة

وبدأت مجلدها الثانى بأعظم شوامخ الأدب الأيطالى فى نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة : «ديكاميرون»

واليوم تقدم لك أول ترجمة عربية كاملة ، أمينة ، لرواية من الأدب الفنلندى الحديث ، فتعرفك بحقل جديد عليك ، من حقول الأدب العالمى

فاحرص على اقتناء هذه السلسلة كاملة ، تؤسس لبيتك وأولادك أنفع وأمتع مكتبة للثقافة العالمية باللغة العربية

